

فاضل صالح السامرائي

لتعبير القدر أنما





الدكتور فاضل ضائع السامرائي
أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ لِّیْنَ اَجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَیْ اَنْ یَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا
الْقُرْءَانِ لَا یَاتُوْنَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیْرًا ﴾

قرآن کریم

«إن هذا القرآن مآدبةُ اللهِ فاقبلوا مآدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبلُ الله والنورُ والشفاءُ النافعُ. عصمةٌ لمن تمسك به ونجاةٌ لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعَب ، ولا يعوجّ فيقوّم ، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلقُ من كثرة الردّ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كلّ حرفٍ عشر حسانات. أما إني لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

حديث شريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً والصلاة والسلام على رافع لواء الهدى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته ويعد:

فقد كنت أسمع من يقول: إن القرآن معجز وإنه أعلى كلام وإنه لا يمكن مجاراته أو مداناته وأن الخلق أجمعين لو اجتمعوا على أن يقولوا مثله ما استطاعوا. وقد قرأت في كثير من الكتب نحواً من هذا القول. وكنت أرى في هذا غلوً ومبالغة، دفع القائلين به حماسهم الديني وتعصبهم للعقيدة التي يحملونها. وكنت أقرأ كثيراً من التعليقات التي يستدل بها أصحابها على سمو هذا التعبير كارتباط الآيات ببعضها وارتباط فواتح السور بخواتيمها وارتباط السور بعضها ببعض واختيار الألفاظ دون مرادفاتهما ونحو ذلك فلا أراها علمية وأجد كثيراً منها متكلفاً، وكنت أقول: إنه لو كان التعبير على غير ذلك لعللوه أيضاً فإن الإنسان لا يعدم تعليلاً لما يريد، إلا أنه بمرور الزمن وبعد اطلاعي على مؤلفات أحسبها غير قليلة في كتب اللغة والتفسير والإعجاز والبلاغة ونحوها - وذلك بحكم اختصاصي - بدأت أميل إلى تصديق هذه المقولة، فقد اتضح لي أن قسماً غير قليل مما كُتِبَ بروح علمية عالية وأن كثيراً مما كتب لا أزال أراه الآن كما كنت أراه من قبل.

ثم قررت أن أدرس النص القرآني بنفسني فبدأت أُجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التعبير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف وما إلى ذلك من أمور لغوية وبلاغية ومعنوية وأفحصها فحصاً دقيقاً فراعني ما رأيت من الدقة في التعبير والإحكام في الفن والعلو في الصنعة. وجدتُ تعبيراً فنياً مقصوداً حُسِبَ لكل كلمة فيه حسابها بل لكل حرف بل لكل حركة.

وكلما أمعنت النظر والتدقيق والموازنة ازدادتُ بذلك يقيناً وبصيرة. وانتهيت إلى حقيقة مسلّمة بالنسبة إليّ وهي أن هذا القرآن لا يمكن أن

يكون من كلام البشر وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يفعلوا
مثل ذلك ما قدروا عليه ولا قاربوا.

وأنا لا أطلب من القارئ أن يسلم بهذه الحقيقة فإن هذا طلب لا مطمع منه
لمجرد القول والادعاء، وإنما الذي أطلبه منه أن يخلع عنه جلباب العصبية
وينظر بروح علمية مجردة. وأنا لا أشك في أنه سيصل إلى ما وصلت إليه.

صحيح أن كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلمات اللغوية وليس
لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها ومن الصعب أن يهتدي هؤلاء إلى أمثال
هذه المواطن من غير دليل يأخذ بأيديهم يدلهم على مواطن الفن والجمال
ويُصبرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يعونها ويفهمونها. وهذا
الكتاب أحسبه من هذا النمط فما هو إلا دليل يشير إلى شيء من مواطن الفن
والجمال ويصبر بقسم من أسرار التعبير.

أنا لا أقول إنني وضعت الكتاب بعيداً من العصبية والهوى وإن كان يخيل
إليّ أنني فعلت ذلك، ولا أفترض أن القارئ سيسلم بكل ما يجده فيه ولا أطلب
منه ذلك ولكنني أدعو القارئ أن يقرأ بعقل متفتح وقلب يقظان وأن يصبر على
ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يعيها وذلك ليس بأمر عسير.

وأظنه متى فعل ذلك سيصبر ما أبصرناه وينتهي إلى ما انتهينا إليه.

نسأله تعالى أن يلهمنا الرشد ويجنبنا الزلل إنه سميع مجيب.

فاضل السامرائي .

التعبير القرآني

لاخلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه. وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تحذاهم أكثر من مرة.

لقد تحدى القرآن العرب ثم جميع الخلق بأن يأتوا بمثله ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فقد تحذاهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ مَا أَفْقَرْنَا بِمَسْرِ سُورٍ يَخْلِيهِ مَقَرَّ رَسْمٍ وَأَعْدُوهُمْ مِنْ آسِطَاسِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿فَلَا تَنْتَظِرُوا لَكُمْ مَا تَكْفُرُونَ﴾ ﴿هُود﴾.

فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحذاهم بأن يأتوا بسورة من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا فانقطعوا أيضاً وقامت الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿البقرة﴾.

وأكد التحدي بقوله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَعِدَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ﴿الإسراء﴾.

دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طوالها فهو تحذاهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن.

ومن الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه ولذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس. سعوا إلى أن لا يصل إلى الأذن لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحدث في النفس دويلاً هائلاً وهزة عنيفة وقد حكى الله

عنهم هذا الأسلوب فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِبُونَ﴾ [فصلت].

وكان صناديد قريش وأعتاهم محاربة للرسول وأشدهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه، فقد كان كل من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس ابن شريق يأخذ نفسه خلسة لسماعه في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا^(١). وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال: ﴿مَنْ أَهْلَكُمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ يَقُولُ الْأَطْلَاسُ إِنَّ تَنْتَهُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا﴾ [الإسراء].

وما قول الوليد بن المغيرة بئر. فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليُجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. فكان يرد هذه الأقوال ويفندها ثم قال:

«والله إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمعلو وما يعلى عليه»^(٢).

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وُضِعَ وضِعاً فنياً مقصوداً، ولم تُراعَ في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوِيَ في هذا الوضع التعبير القرآني كله.

(١) تفسير ابن كثير ٤٤/٣، سيرة ابن هشام ٢٠٧/١-٢٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٤-٤٤٣، سيرة ابن هشام ١٧٤/١-١٧٥.

لقد انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف، فإن الكلمات القافية ترددت في سورة (ق) كثيراً والكلمات الصادية ترددت في سورة (ص) كثيراً وهكذا^(١).

جاء في (ملاك التأويل) في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة: «إن هذه السور إنما وقع في أول كل سورة منها ما كثر ترداده فيما تركب من كلماتها. ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظرت في سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها وحروفها وجدت الحرف المفتوح بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلماتها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلماتها وحروفها»^(٢).

واستندوا إلى الإحصاء، جاء في (ملاك التأويل) عن سبب بدء سورة (لقمان) بـ (ألم) وسورة يونس بـ (ألر): «أنه تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها. وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتحة بالحروف المقطعة سورة النحل وهي أطول منها. والوارد فيها مما تركب على الراء من كلماتها مائتا كلمة مع زيادتها في الطول عليها»^(٣).

وانتهوا إلى شيء آخر وهو أن عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفاً أي بمقدار نصف حروف المعجم ترددت في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر حرفاً وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. وبيان ذلك أن فيها من الحروف المهموسة نصفها، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها، ومن المطبقة نصفها، ومن المنفتحة نصفها، ومن المستعلية نصفها، ومن المنخفضة نصفها، ومن حروف القلقلة نصفها، وقد ذكر من هذه الأنصاف ما هو كثير الدوران في الكلام، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته^(٤).

(١) انظر البرهان ١/١٦٩.

(٢) ملاك التأويل ١/٣٠.

(٣) ملاك التأويل ١/٤٨٣ وانظر ٢/٥٤٨.

(٤) انظر الكشف ١/٧٨-٧٩.

وليس هذا كل شيء في الإحصاء بل هناك شيء آخر وربما أشياء. أفلم تقرأ الإحصاءات الأخرى في كتاب الله العزيز لترى العجب؟

لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً ولا من غير حساب. بل هي موضوعة وضماً دقيقاً بحساب دقيق دقيق.

لقد تبين :

أن (الدنيا) تكررت في القرآن الكريم بقدر (الأخرة) فقد تكررت كل منهما ١١٥ مرة.

وأن (الملائكة) تكررت بقدر (الشياطين) فقد تكررت كل منهما ٨٨ مرة.

وأن (الموت) ومشتقاته تكرر بقدر (الحياة) فقد تكررت كل منهما ١٤٥ مرة. وهل الموت إلا للأحياء؟

وأن (الصيف) والحر تكرر بقدر لفظ (الشتاء) والبرد فقد تكررت كل منهما خمس مرات.

وأن لفظ (السيئات) ومشتقاتها تكرر بقدر لفظ (الصلحاحات) ومشتقاتها فقد تكررت كل منهما ١٦٧ مرة.

وأن لفظ (الكفر) تكرر بقدر لفظ (الإيمان) فقد تكررت كل منهما ١٧ مرة.

وتكرر لفظ (كفرًا) بقدر لفظ (إيمانًا) فقد تكررت كل منهما ثماني مرات^(١).

وأنه تكرر ذكر (إبليس) بقدر لفظ الاستعاذة فقد تكررت كل منهما ١١ مرة.

وأن ذكر (الكافرين) تكرر بنفس عدد النار. وهل النار إلا للكافرين؟

وأن ذكر (الحرب) تكرر بعدد الأسرى (٢). وهل الأسرى إلا من أوزار الحرب.

وأن لفظ (قالوا) تكرر ٣٣٢ مرة «ومن عجب أن يتساوى هذا مع لفظ (قل) الذي هو أمر من الله إلى خلقه، فسبحان من قال (قل)، ٣٣٢ مرة فكان القول ٣٣٢ مرة».

(١) انظر الإعجاز العددي للقرآن الكريم ج ١/ ١٥، ٢١، ٣٥، ٥٨، ٧٠، ١٢٤، ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ١٥/ ٢، ٤٩.

وأن لفظ (الشهر) تكرر ١٢ مرة بعدد شهور السنة .

وأن لفظ (اليوم) تكرر ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة^(١) .

وأن لفظ (الأيام) تكرر ٣٠ مرة بعدد أيام الشهر^(٢) .

وقد تقول : ولم لم يعكس فيذكر اليوم ثلاثين مرة بقدر أيام الشهر و(الأيام) ٣٦٥ مرة بقدر أيام السنة؟

والجواب أن العرب تستعمل الجمع تمييزاً لأقل العدد وهو من ثلاثة إلى عشرة فإذا زاد على العشرة جاءت بالمفرد فتقول : ثلاثة رجال ، وأربعة رجال . وعشرة رجال . فإن زاد على العشرة وصار كثرة جاءت بالمفرد فتقول : عشرون رجلاً . ومائة رجل ، وألف رجل . فالجمع يوقعونه تمييزاً للقلة والمفرد يوقعونه تمييزاً للكثرة .

وكثيراً ما يوقعون المفرد للكثرة بخلاف الجمع من ذلك الوصف بالمفرد والوصف بالجمع .

فالوصف بالمفرد يدل على الكثرة ، والوصف بالجمع يدل على القلة فقولك (أشجار مثمرات) يدل على أن عدد الشجرات قليل بخلاف ما لو قلت (أشجار مثمرة) فإنه يدل على أن الأشجار كثيرة .

ويوقعون ضمير المفرد للكثرة وضمير الجمع للقلة . ألا ترى أن قولك : « الرماح تكثرت » يعني أن الرماح قليلة وذلك لمجيء نون النسوة بخلاف قولك : « الرماح تكثرت » فإنها تعني أن الرماح كثيرة . والنون في الأصل للجمع والتاء للمفرد .

ألا ترى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ [التوبة] .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

وَمَنْ حَظِيَ الْأُنثَيْنِ ﴿١٠١﴾ [النساء] وهو في الموارث. وقال: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يُونُسَ
بِأَوْدَيْنِ﴾ ﴿١٠٢﴾ [النساء].

وهي كما ترى كلها في الأمور المادية.

ولم ترد (أوصى) في القرآن الكريم للأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقترنت فيه بأمر مادي وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْصِنِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿١٠٣﴾ [مريم] فإنه قال (أوصاني) لما اقترنت الصلاة بالزكاة والزكاة أمر مادي يتعلق بالأموال كما هو معلوم.

ومن ذلك قوله تعالى: (يشاقق) و (يشاقق) وهما لغتان: الفك لغة الحجاز والإدغام لغة تميم، ولكن القرآن استعملهما استعمالاً خاصاً فحيث ورد ذكر الرسول فك الإدغام. وحيث لم يرد ذكر الرسول بل ورد ذكر الله وحده أدمغم. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١٠٤﴾ [الأنفال].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ ﴿١٠٥﴾ [النساء] في حين قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١٠٦﴾ [الحشر].

ولعله وحّد الحرفين وأدمغمهما في حرف واحد لأنه ذكر الله وحده وفكّهما وأظهرهما لأنه ذكر الله والرسول فكانا اثنين.

وخصوصيات الاستعمال القرآني كثيرة لا نريد أن نستقصيها الآن ولكن أردنا فقط أن نضرب أمثلة على ذلك لتبين (القصد) والدقة في اختيار ألفاظ القرآن.

ومع هذا الاستعمال الرياضي الإحصائي العجيب للألفاظ فالتعبير القرآني هو في قمة الأدب والفن.

فإنك إذا نظرت إلى أي ضرب من ضروب التعبير فيه وجدته وحدة متكاملة ليس فيها نبوّ ولا اختلاف. فإذا نظرت إلى التوكيد مثلاً وجدته على تباعد مواطنه وتفرقها في القرآن وحدة فنية متكاملة متناسبة في كل موطن

مع السياق الذي ورد فيه منسقاً معه ومنسقاً مع كل المواطن الأخرى التي ورد فيها التوكيد.

فالقرآن قد يؤكد بـ (إِنَّ) وحدها مثلاً أو قد يؤكد باللام أو يجمع بينهما، ولو أنعمت النظر لوجدت أن كل موضع يقتضي التعبير الذي عبر به فلا يصح أن تزداد اللام في الموضع المتزوع منه ولا تحذف في موطن الذكر أينما وردت في القرآن وكذلك (أَنَّ) ونحوها.

فهو يقول مثلاً: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بأن وحدها في مواطن عديدة من القرآن.

ويقول: ﴿وَلَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد] مؤكداً بأن واللام.

ويقول: ﴿والله شديد العقاب﴾ بلا توكيد.

ويقول: ﴿والله غفور رحيم﴾ بلا توكيد في مواضع متعددة تبلغ ثلاثة عشر موضعاً.

ويقول: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ مؤكداً بأن في أكثر من عشرين موضعاً.

ويؤكد بأن واللام في مواضع أخرى متعددة.

ويحذف ويؤكد في تعبيرات أخرى تبلغ المئات وهو يراعي في كل ذلك الدقة في التعبير ووضع كل لفظ في مكانه حسبما يقتضيه السياق بحيث لا يصح وضع تعبير مؤكد في مكان غير مؤكد ولا ما أكد بأكثر من مؤكد في موطن أكد بمؤكد واحد.

وكذا الأمر في غير (إِنَّ) فهو يقول مثلاً: ﴿وَلَا تَقْفِرْ لِي وَتَرَحَّمْ عَلَيَّ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود] بلا توكيد.

ويقول مرة أخرى: ﴿وَلَا تَقْفِرْ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف] بتوكيد الجواب.

ويقول مرة ثالثة: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف] بتوكيد الجواب ويذكر اللام الموطئة قبل الشرط، كل ذلك حسبما يقتضيه الموطن والسياق، ولا يصح البتة وضع آية من هذه الآيات في غير سياقها وموطنها كما سنبين ذلك.

فلو نظرت إلى التوكيد في القرآن لوجدته لوحة فنية عالية متناسقة على سعة التوكيد واختلاف المؤكدات وتنوعها.

وقُلْ مثل ذلك عن الاستفهام. فهو قد يستفهم مرة بالهمزة ومرة بـ (هل) فهو مرة يقول: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَٰلِكَ مُشَوِّعٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة].

ومرة يقول: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ [الحج].

ومرة يستفهم بـ (ما) ومرة بـ (ماذا) والقصة واحدة. فيقول مرة في إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء].

ويقول مرة أخرى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات] وغير ذلك وغيره.

وقُلْ مثل ذلك عن التقديم والتأخير. فهو قد يقدم كلمة في مكان ويؤخرها في مكان. أو يقدم عبارة في مكان ويؤخرها في مكان فهو يقدم (السماء) على (الأرض) مرة، ومرة يقدم (الأرض) على (السماء)، ومرة يقدم (الإنس) على (الجن)، ومرة يقدم (الجن) على (الإنس). ومرة يقدم (الركوع) على (السجود) ومرة يقدم (السجود) على (الركوع) فهو مرة يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ مَامَسُوا أَرْكَعُوا وَأَسْجَدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج] ومرة أخرى يقول: ﴿يَنْمَرِيهِ أَفْنَىٰ لِّرَبِّكَ وَأَسْجُدْ وَارْكَعْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران].

ويقول مرة: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مَعَ كَسْبًا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم].

ويقول مرة أخرى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مَّعَ كَسْبٍ﴾ [البقرة].

وهو قد يذكر كلمة أو عبارة في موطن لا يذكرها في موطن آخر يبدو شبيهاً به فهو يقول مثلاً في موطن: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة] ويقول في موطن آخر ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران] فيزيد عبارة (ولا ينظر إليهم). وغير ذلك وغيره.

كل ذلك يضعه وضماً فنياً في غاية الروعة والجمال.

ثم هو يجمع بين ضروب القول المختلفة ويؤلف بينها في حشد فني عجيب لا يملك العارف بشيء من أسرار التركيب إلا أن يسجد لصاحب هذا الكلام إجلالاً وخشوعاً ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفْسُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَكُنْ هَادٍ﴾ [الزمر].

لقد دُرِسَ التعبير القرآني دراساتٍ مستفيضة وأولِي من النظر. مالم يَنْلُهُ نصٌّ آخر في الدنيا .

فقد دُرِسَ من حيث تصويره الفني فكان أجمل تصوير وأبرع لوحة فنية^(١). ودرس من حيث نظمه وموسيقاه فكان أروع عقد منظوم وأعذب قطعة فنية موسيقية. وهل يشك أحد في فخامة نظمه وحلاوة موسيقاه وعذوبة جرسه وحسن اختيار ألفاظه وجمال وقع آياته؟!

ودُرِسَ تناسبُ سورهِ سورةً وسورةً وتناسبُ آياته آيةً وآيةً وتناسبُ فواتح السور وخواتمها، فكان قطعة فنية واحدة محكمة الربط فخمة النسيج، وكان كما قال الفخر الرازي: إن القرآن كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض^(٢) بل هو كالأية الواحدة^(٣)

ودرس من حيث إعجازه فكانت جوانب إعجازه لا تحصى . أهو في أسلوبه وتعبيره. أم هو في تشريعه وفقهه، أم في معالجته جوانب الحياة المختلفة على أكمل وجه وأبهى صورة، أم هو في إخباره عن الأمم الماضية والأقوام البائدة^(٤). أم هو في إخباره عما سيقع^(٥). أم هو فيما قرره من حقائق علمية وكونية يكتشف الناس على مدى الدهر قسماً منها، أم هو فيما وضعه من

(١) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/٢١٤ وانظر ٣١٩ .

(٣) التفسير الكبير ٣٢/١٠٤ .

(٤) انظر كتابنا: نبوة محمد من الشك الى اليقين.

(٥) انظر المصدر السابق.

قواعد وأصول التربية ومعرفته بأدواء القلوب والنفوس. أم هو فيما ذكره من سنن التاريخ والخلق أو فيما ذكره من أصول علم الاجتماع أو غير ذلك وغيره. أم هو في كل ذلك وأشياء أخرى فوق ذلك؟!

أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تاريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟!

عجيب أمر هذا الكتاب!

يراه الأديبُ معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً ويراه المربون معجزاً، ويراه علماء النفس والمَعْنِيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخ في علمه معجزاً.

لقد كشف لهم وهم يبحثون في وجوه إعجازه عن بحار ليس لها ساحل، وغاصوا في لجج ليس لها قعر، وكُلُّ عاد بلؤلؤة كريمة أو عقد نظم وبقيت ثمة خزائن تفوق الحصر لم يَلْجِها الوالجون وكنوز لا يطيقها إحصاء، لم تمتد إليها الأيدي، تفتى الدنيا ولا تفتى، ويبلى كل جديد ولا تبلى. فيها من عجائب صنع الله ما لو أطلعت عليه لم تعرف كيف تصنع ولا مُتَبَكِّدُ بك عجب لا ينتهي وتمكن منك انبهار لا ينقضي. ومفتاح ذلك تدبره والنظر فيه.

فامنحه شيئاً من التدبر والنظر يمنحك من أسرار ما لم يكن منك ببال. إنه يعطيك أضعاف ما تعطيه.

إن هذا الكتاب يمنح مَنْ نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ويفتح الله عليه من الطافه ما يجعل عن الوصف فلا تُضَيِّع هذه الصفقة الراححة وإلا فانت والله مغبون.

أدركت الآن سر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَفَرَأَوْهُ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْعَالَهَا﴾ [محمد].

أَمَا أَنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ لَفَتَحَتْ أَقْفَالُ الْقُلُوبِ وَلَانَ مَا كَانَ عَصِيًّا مِنَ الْإِفْتِدَاءِ ،
وَلَا وَقَدَّتْ مَصَابِيحُ عَهْدِهَا بِالنُّورِ بَعِيدٍ ، وَأَشْرَقَتْ دُرُوبُ لَمْ يَسْقُطْ عَلَيْهَا فِيمَا مَضَى
نُورٌ ، وَلَحِيَّتْ نَفُوسٌ مَا عَرَفَتْ قَبْلَ ذَلِكَ حَيَاةً .

أَلَمْ يَسْمِ اللَّهَ نُورًا فَقَالَ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء] .

أَوَلَمْ يَسْمِ اللَّهَ رُوحًا فَقَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى] ؟

فَهُوَ رُوحٌ وَنُورٌ — وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ أَوْ هَلْ قَبْلَهُ شَيْءٌ !

لَيْتَ شَعْرِي هَلْ يَفْقَهُ النَّاسُ ؟

أَلَا لَيْتَ النَّاسَ يَفْقَهُونَ .

البنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بنية الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال:

١- فمن ذلك استعمال الفعل والاسم. فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت^(١) تقول: هو يتعلم وهو متعلم. فـ (يتعلم) يدل على الحدوث والتجدد أي: هو آخذٌ في سبيل التعلم بخلاف: (متعلم) فإنه يدل على أن الأمر تم وثبت وأن الصفة تمكنت في صاحبها. ومثله: هو يحفظ وهو حافظ. فـ (يحفظ) يدل على الحدوث والتجدد و(حافظ) يدل على ثبات الأمر واستقراره في صاحبه ومثله: هو يجتهد ومجتهد.

وربما كان الأمر لم يحدث بعد ومع ذلك يؤتى بالصيغة الاسمية للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت وذلك نحو قولك: أترأه سيفشل في مهمته؟ فتقول: هو فاشل وذلك لوثوقك بما قرره أي: كان الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً، ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة]. فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكانه تم واستقر وثبت. ومثله قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ۖ﴾ [هود] فلم يقل: سأغرقهم أو إنهم سيغرقون. ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي: كان الأمر استقر وانتهى. ومثله قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا إِنَّهُم مُّهِلِكُوا آلَ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ﴾ [العنكبوت] ولم يقولوا: سنهلك. فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي: كان الأمر انتهى وثبت.

فخلاصة الأمر أن الفعل يدل على الحدث والتجدد والاسم يدل على الثبوت والاستقرار. وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة.

(١) انظر كتابنا: (معاني الأبنية في العربية) باب: (الاسم والفعل).

۲۵

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف].

«ففرق بين طرفي التسوية فقال: (أدعوتموهم) بالفعل ثم قال: (أم صامتون) بالاسم ولم يسو بينهما فلم يقل: أدعوتموهم أم صمتتم بالفعلية. أو: أنتم داعوهم أم صامتون.

وذلك أن الحالة الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له. ولو رأيت إنساناً يكلم نفسه لاثمته في عقله. فالكلام طارئ يحدثه الإنسان لسبب يعرض له ولذا لم يسو بينهما بل جاء للدلالة على الحالة الثابتة بالاسم: (صامتون) وجاء للدلالة على الحال الطارئة بالفعل: (دعوتموهم) أي: أحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالكم من الصمت^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «إن قيل: هلا قيل: أم صمتتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟

قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهام أمر دعوا الله دون أصنامهم... فكانت حالتهم أن يكونوا صامتين عن دعوتهم. فقيل: إن دعوتموهم لم تفرق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم^(٢)».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ﴾ [هود].

فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية (ليهلك) وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة

(١) معاني الأبنية ١١-١٢.

(٢) الكشاف ٥٩٢/١.

عَمَّا كَانَ فِي الدُّنْيَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَتَمَشَّرَ الْجَمِينَ قَدْ اسْتَكَرُّوهُ مِنْ
الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَتَيْنَا لَنَا قَالَ النَّارُ
مَثْوًى لَكُمْ تَخِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ يَتَمَشَّرَ الْجَمِينَ وَالْإِنْسِ أَنْزِلَاكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَفْقَهُونَ عَلَيْكُمْ مَا يُقَالُ
وَيُذَكِّرُونَ لِلْآخِرَةِ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَخَرُّنَاهُمُ لِمِثْلِهِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَى يَظْلِمُ أَهْلَهَا
غُلُوبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام].

فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يكلّفوا ولم
يأتهم رسل يندرونهم. فالذين لم يندروا غافلون قال تعالى: ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ
ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿١﴾﴾ [يس]. فهو في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء
بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

في حين أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها وذكر سنة الله
في الأمم قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا
تُصْرَفُونَ ﴿٢﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ
لِّلذَّكَرِينَ ﴿٣﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾ فَكُلُوا مِن ثَمَرِهِمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
بِقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ مِنَ الْفَاسِقِينَ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْ أَهْلِهَا يَتَّبِعُونَ أَتَيْتُمُوهُمْ وَأَتَّيْعَهُمُ الدُّنْيَا فَظَلَمُوا مَا أَتَرَوْهَا
فِيهِمْ وَكَانُوا مُتَجَمِّعِينَ ﴿٥﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى يَظْلِمِ أَهْلَهَا
مُضِلِّحُونَ ﴿٦﴾﴾ [هود].

فهو - كما ترى - في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية لأن
الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا. فجاء بالصيغة الدالة على
الحدوث والتجدد (ليهلك). ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة
على المضى (ذلك أن لم يكن ربك) لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ
بالنسبة إلى الآخرة. وجاء هنا بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع
للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ [هود].

أما ما ختم به كل آية من الآيتين فله مكان آخر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال].

فقد جاء في صدر الآية بالفعل: (ليعذبهم) وجاء بعده بالاسم: (معذبهم) وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرسول بينهم فإنه - أي العذاب - موقوت ببقائه بينهم. فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِيكَ الْكَافِرِينَ إِلَّا أَهْلَهُمْ ظَلُمُوتٍ﴾ [القصص] فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات. ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال: (وأهلها ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيء.

فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية (يستغفرون) وجاء بالظلم بالصيغة الاسمية (ظالمون). فانظر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه.

ومن ذلك قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة].

فقد فرق بين قولهم للمؤمنين وقولهم لأصحابهم فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث (آمننا)، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام (إننا معكم) ولم يسو بينهما فلم يقولوا: (إننا مؤمنون) كما قالوا: (إننا معكم) وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة... وأما مخاطبة إخوانهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزولوا عنه على صدق رغبة

ووفور نشاط وارتياح للمتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد^(١).

ومن لطيف الاستعمال الفني للفعل والاسم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر].

فاستعمل مع الليل الفعل (لتسكنوا فيه) ومع النهار الاسم (مبصراً) ولم يسو بينهما فلم يقل: ساكناً ومبصراً ولا لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال الحقيقي هو: (لتبصروا فيه).

وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس]. ولو قال: «هو الذي جعل لكم الليل ساكناً» لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت (لكم) هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ (لكم) وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا. وعلاوة على ذلك فإنه لو قال: (ساكناً) لم يكن التعبير مجازياً لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال: ليل ساكن وليل ساج، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولما تقرر دلالة النعمة في صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازي بعد ذاك كسباً فنياً.

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه: فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي ودلّ على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً. ولو قال: «لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه» لفات التعبير الفني الجميل تعبير المجاز. ولو قال: «ساكناً ومبصراً» لفات الدلالة على النعمة التي هي المقصد الأول من هذه الآية. ولو قال: «ساكناً ولتبصروا فيه» لفات المجاز في التعبيرين ولكان التعبير سمجاً لا معنى تحته كما أوضحنا قبل قليل.

(١). انظر الأبنية ١٢-١٣، والكشاف ١/١٤٢.

فانظر كيف دل على المعنى بأسلوب فني جميل من أخصر طريق وأيسره .
فأنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى
هذا المؤدى . هذا علاوة على ما في جعل النهار مبصراً من جمالي وزيادة في
المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معنيين :

الأول : أننا نبصر فيه كما قيل : ليل نائم والمقصود : نائم أهله .

والمعنى الآخر : أنه جعله مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا
بالخير والشر فكان له عينين تبصران . فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً . فانظر
إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته . جاء في (الكشاف) في هذه الآية : «فإن
قلت : لِمَ قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال؟ وهَلَّا كانا حالين أو مفعولاً
لهما فيراعى حق المقابلة؟

قلت : هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى
الآخر ، ولأنه لو قيل : «لتبصروا فيه» فانت الفصاحة التي في الإسناد المجازي .
ولو قيل : ساكناً ، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى
قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه ، لم تتميز الحقيقة من المجاز»^(١) .

ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة (الكافرون) وهو قوله
تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۚ ﴾ .

فأنت ترى أن الرسول نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين : الفعلية
والاسمية (لا أعبد ما تعبدون) و (ولا أنا عابد ما عبدتم) وبالفعلين : المضارع
والماضي (تعبدون) و (عبدتم) . ونفى عن الكافرين العبادة الحق بصيغة واحدة
تين هي الصيغة الاسمية : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة
في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال . إذ لو اقتصر على الفعل لقليل : إن هذا أمر

(١) الكشاف ٥٨/٣ .

بِالْأَسْمَاءِ ﴿٧٦﴾ [آل عمران] وهو في سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات.

ومن ذلك استعمال القرآن للإيمان، فقد استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب وليس كالإنفاق يحدث وينقطع قال تعالى : ﴿ أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة]. وقال: ﴿ وَمَن يَمْلِكْ مِنَ الصَّلَاحَةِ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه] وقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم]. وغيرها وغيرها.

كما استعمله بالصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَنَّهُمْ آيَةٌ يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ [الأنعام] فجاء به بالصيغة الفعلية لأنه هنا أمر دال على الحدوث لا الثبوت فإنه لم يحصل بعد. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ الْكَافِرُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الشُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة] وغير ذلك وغيره. جاء في (البرهان): «ومن هذا يعرف لم قيل: (الذين ينفقون) ولم يقل: (المنفقين) في غير موضع؟

وقيل كثيراً: المؤمنون والمتقون، لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها، وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر والهدى والضلال والعمى والبصر فمعناها أو معنى وصف الجارحة؛ كل هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر وآثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعماليين إلا أن لكل محل ما يليق به. فحيث يراد تتجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال. وحيث يراد الاتصاف بها فالأسماء»^(١).

ومن ذلك استعماله للاستغفار فإنه لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد جاء به بالصيغة الفعلية كثيراً شأن الإنفاق قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ بِالْعَرَضِ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [غافر].

(١) البرهان ٤/ ٦٧.

وقال : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى].

ولم يرد بالصيغة الاسمية إلا في آية واحدة هي التي ورد فيها الإنفاق اسماً وهي قوله تعالى: ﴿الْمُكْسِبِينَ وَالْمُكْدِرِينَ وَالْمُكَدِّرِينَ وَالْمُكْدِرِينَ وَالْمُكْدِرِينَ وَالْمُكْدِرِينَ﴾ [آل عمران] أي أصحاب هذه الصفات.

ومثل ذلك التسييح فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً للسبب نفسه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُونَكَ وَلَمْ يُسَبِّحْكَ﴾ [الأعراف]. و ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة].

ولم يرد بالصيغة الوصفية إلا في آيتين : إحداهما: في وصف نبي الله يونس عليه السلام قال: ﴿فَلَوْلَا أَنَّمْ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [البقرة] لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [الصافات]. بمعنى أنه كان هذا وصفه الثابت. فنجأ لأنه كان من أصحاب هذا الوصف. والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسييح تخلص من الكروب والمكاره، وأن يونس إنما نجا من هذه الشدة بمداومة التسييح.

والثانية: في صفة الملائكة ﴿وَلَا تَحْنُ الْمَافُورُونَ﴾ [البقرة] وَلَا تَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [الصافات] أي هذه صفتهم الثابتة. وقد ذكر الله سبحانه أن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء] إذن فالتسييح وصف ثابت فيهم.

وانظر هنا الى لطيفة وهو أن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة وليس من شأنه أن يذكر الانصاف به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال كقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الْفَاسِقِينَ﴾ [إبراهيم] وقال: ﴿وَلِئَلَّ اللَّهُ لَهَاوِ الْذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج] ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد].

ومنه قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِنَّا هُمْ مُبْجِرُونَ﴾ [الأعراف] لأن البصر صفة لازمة للمتيقن، وعين الشيطان ربما حجبت فإذا تذكر

رأى المذكور ولو قيل: (ييصرون) لأنبأ عن تجدد واكتساب لا عود صفة^(١).

ثم انظر كيف ذكر الله الإضلال وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط للدلالة على أن هذا أمر طارئ يفعل من يستحقه ولم يسند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعوته قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر] وقال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر] وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة].

في حين وصف الشيطان بذلك فقال: ﴿هَذَا مِنْ حَلِي الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص] فجعله وصفاً ثابتاً له ويجدده أيضاً فقال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ كَيْتَ عَلَيْهِ أَنْتُمْ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنْتُمْ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ [الحج] وقال الشيطان عن نفسه: ﴿وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا مَئِينَتَهُمْ﴾ [النساء].

فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلال، كما جعل الله وصف ذاته العلية الثابت والمتجدد الهداية فقال: ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج].

وقال: ﴿وَكَفَىٰ بَرِيلِكْ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان] وقال: ﴿يَهْدِي بِرُوحِ اللَّهِ مَنِ اتَّبَعَ وَضَوَاكُمْ سَبِيلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة] وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس] فستان ما بين الوصفين.

ومن بدائع الفن في هذا الباب قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَبِإٍ مِّنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إِذْ خَلَوْا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ شُكْرُونَ [الذاريات].

ففرق الله سبحانه وتعالى بين السلامين فجعل الأول بالنصب والثاني بالرفع ولم يسو بينهما، وذلك لأن قوله: (سلاماً) بالنصب تقديره: نُسَلِّمُ سلاماً أي بتقدير فعل. وقوله: (سلام) تقديره: (سلام عليكم) أي: بتقدير اسمية الجملة. والاسم أثبت وأقوى من الفعل فدل على أن إبراهيم عليه السلام حيا الملائكة

بخير من نحيبتهم^(١). قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيْوَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء] فرد التحية بخير منها.

وجاء في «التفسير الكبير» أن «إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار^(٢)».

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَجَاءَهُ عَلَىٰ قَيْبِهِ يَدِيرُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف] فجاء بالصبر مرفوعاً أي: بتقدير الجملة الاسمية لأنه وطَّن نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره، ولم يقل: (فصبراً) بالنصب بتقدير الفعل أي: لأصبر صبراً، لأنه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت. فتمة فرق بين الاستعمالين والمعنيين.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿الطَّلَقُ مَرْثَانٌ فَإِنْسَاكُكُمْ مَعْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيعٌ وَإِحْسَانٌ﴾ [البقرة] فانظر كيف جاء بالطلقة الثالثة بالرفع، وذلك لأنها الطلقة الأخيرة والحكم معها يكون على وجه الدوام، أما الإمساك بالمعروف أو التسريح الذي لا رجعة فيه، فانظر كيف لم يقلها بالنصب وذلك لأن النصب موقوت. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد] كيف جاء بـ (ضرب) منصوباً وذلك على تقدير الفعل أي: فاضربوا، ولم يأت به بالرفع وذلك لأنه موقوت بالمعركة وليس أمراً دائماً.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزٍ مُّسَمًّى﴾ [الهمزة] فانظر كيف قال: (وبل) بالرفع ولم يقل: (وبلاً) بالنصب وذلك لأنه بالرفع جملة إسمية وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا يتقطع أو دعا عليهم به. ولو قال: (وبلاً) بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم. ثم انظر كيف قال

(١) معاني الأبنية ١٥.

(٢) التفسير الكبير ٢٨/٢١٢ وانظر الكشاف ١/٣٨-٣٩، ٣/١٦٩، بدائع الفوائد ٢/١٥٧.

في آخر السورة: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكُمْ فُجُورَةٌ فِي عُيُوشِكُمْ ۖ فَذُكِّرُوا﴾ فآخبر أن أبوابها مغلفة عليهم لا تفتح إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وكيف ناسب ذلك أول السورة برفع الويل.

فانظر هذا التناسق الجميل في التعبير والمعنى بين المفتوح والختام. وفي هذا القدر كفاية فإن غرضنا التمثيل وليس الاستقصاء فإن الاستقصاء يطول.

٢ - وكذلك استعماله للآبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَتَمَّ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل] فإنه جاء بالفعل (تبتل) غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بتل) وذلك أن مصدر تبتل هو (التبتل) فإن مصدر (تفعل) يكون على (التفعل) كتعلم تعلماً وتقدم تقدماً. وأما (التبتل) فهو مصدر بَتل لا تبتل فإن (التفعل) هو مصدر (فعل) كعلم تعليماً وعظم تعظيماً. وكان المتوقع أن يقول (وتبتل إليه تبتلاً) غير أنه لم يقل ذلك. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين معني التبتل والتبتل، وذلك أن تبتل على وزن تفعل و (تَفَعَّلَ): يفيد التدرج والتكلف مثل: تجسس وتحسس وتبصر وتدرج وتمشى وغيرها، فإن في تجسس وتحسس وبقية الأفعال تدرجاً وتكلفاً. ألا ترى أن في (تبصر) من التدرج وإعادة النظر والتكلف ما ليس في (بصر)، وفي (تمشى) من التدرج ما ليس في (مشى)؟

وأما (فعل) فيفيد التكثير والمبالغة وذلك نحو: كسر وكسر، فإن في كسر المضاعف من المبالغة والتكثير ما ليس في كَسَرَ الثلاثي فقولك: (كسرت القلم) يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت: (كَسَرْتُ الْقَلَمَ) فإنه يفيد أنك كسرت مرة واحدة. وكذلك قولك: (قَطَعْتُ اللحم) فإنه يفيد أنك جعلته قطعة قطعة بخلاف ما إذا قلت: (قطعت اللحم) بلا تضعيف فإنه يفيد أنك قطعت مرة واحدة. وتقول: (موتت الإبل) إذا كثر فيها الموت ولا يقال:

(موت البعير) لأنه ليس في موت البعير تكثير. فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل (تبتل) فقال: (وتبتل إليه تبتلاً) لم يفد غير التدرج وكذلك لو قال (ويكفل نفسك إليه تبتلاً) لم يفد غير التكثير. ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول: (وتبتل إليه تبتلاً ويكفل نفسك إليه تبتلاً) جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد وهذا باب شريف جليل.

جاء في (التفسير القيم) : «ومصدر تبتل إليه: (تبتل) كالتعلم والتفهم ولكن جاء على (التفعل) مصدر (فعل) لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيداناً بالتدرج والتكلف والتعلم والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتلاً وتبتل إليه تبتلاً، ففهم المعنيين من الفعل ومصدره.

وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز»^(١).

وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدرج في العبادة وانه بالكثرة. وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً ثم يأتي بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له. فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً.

(١) التفسير القيم ٥٠١-٥٠٢.

ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجبياً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد فقال: (وتبتل) ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة لأنها الحالة الثابتة المرادة في العبادة. أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] والقياس أن يقول: (أن يُضِلَّهُمْ إضلالاً بعيداً) «لأن مصدر (أضل): الإضلال أما الضلال فهو مصدر ضلّ، قال تعالى ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] والمعنى أن يُضِلَّهُمْ فَيَضِلُّوا ضلالاً بعيداً، وقد جمع المعنيين: الإضلال والضلال في آن واحد.

والمعنى أن الشيطان يريد أن يُضِلَّهُمْ ثم يريد بعد ذلك أن يَضِلُّوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُتَمَوَّنُونَهَا. فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهمته هو^(١).

ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنيين. والمعنيان مرادان والله أعلم.

وقد يستعمل في مكان ما صيغة ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة، فيحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق والمعنى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِنَا هُدًى وَنَذِيرًا مُنْذِرًا فَبَقِيَ الْكَافِرِينَ هَذَا نَقِيبُ﴾ [ق].

(١) معاني النحر ٥٨٩/٢.

وقوله: ﴿قَالَتْ يَوَظِّنُقْ إِلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود].

وقوله في مكان آخر: ﴿أَجْعَلِ الْآيَةَ إِلَهًا وَنِسَاءً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص].

فأنت ترى أنه قال في سورة ق: (هذا شيء عجيب) وفي هود: (إن هذا شيء عجيب) وفي سورة ص: (إن هذا شيء عجاب) فعدل من عجيب إلى عجاب، وذلك أنه تدرج في العجب بحسب قوته ففي آية (ق) ذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذر منهم فقالوا: (هذا شيء عجيب).

وفي سورة هود كان العجب أكبر لأنه من خلاف المعتاد أن تلد امرأة عجوز وعقيم (انظر سورة الذاريات ٢٩) وبعلمها شيخ إذ كل ذلك يدعو إلى الغرابة والعجب فالعجوز لا تلد، فإذا كانت عقيماً كانت عن الولادة أبعد إذ يستحيل على العقيم أن تلد. فإذا اجتمع إلى كل ذلك أن بعلمها شيخ كان أبعد وأبعد ولذا أكد العجب بأن واللام فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود] بخلاف سورة (ق) فإنه لم يؤكد العجب.

وأما في سورة (ص) فقد كان العجب عند المشركين أكبر وأكبر إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحداية الإله ونفي الشرك وهم قوم عريقون فيه؟ بل إن الإسلام جاء أول ما جاء ليردهم عن الشرك ويردهم إلى التوحيد، وحسبك أن كلمة الإسلام الأولى هي: (لا إله إلا الله) وقد استسهلوا أن يحملوا السيف ويعلموا الحرب الطويلة على أن يقرأوا بهذه الكلمة، فالقتل أيسر عندهم من النطق بكلمة التوحيد، ولذا كان العجب عندهم أكبر وأكبر فجاء بأن واللام وعدل من (عَجِيب) إلى (عُجَاب) وذلك أن (فُعَالًا) أبغ من (فَعِيل) عند العرب فـ (طُوال) أبغ من (طويل) فإذا قلت: (هو رجل طويل) فهو الطويل يكون مثله، فإذا زاد عن المعتاد قلت: هو طُوال ونحوه: كريم وكُرام، وشجيع وشُجاع.

فانظر كيف عدل من صيغة إلى صيغة بحسب ما يقتضيه المقام، وانظر كيف يراعي دقة التعبير في كل موضع، وكيف يلحظ كل كلمة ويضعها في المكان المناسب على تباعد الأمكنة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاءَ بَازِغَةً
قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِلَهِي بَرِّي وَمِمَّا فُشِّرُونَ﴾ (الأنعام).

وقوله في مكان آخر على لسانه أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ
مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ (الزخرف).

فانظر كيف عدل من (بريء) إلى (براء) من الصفة المُشَبَّهة إلى المصدر
وأنت ترى الفرق بين المقامين فإن إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في مقام
الحيرة والبحث عن الحقيقة لا يعرف ربه على وجه التحقيق، فقد ظن أن
الكوكب ربه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كل ذلك.

أما في الآية الثانية فهو في مقام التبليغ فقد أصبح نبياً مرسلًا من ربه أعلن حربه
على الشرك وأعلن البراءة مما يعبد قومه، فهناك فرق بين المقامين والبراءتين ^(١).

ولذا قال في الآية الأولى: (بريء) وفي الثانية: (براء) وذلك أن (براء) أقوى من
بريء فإنها براءة بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد فإن قولك: (هو رجل
عدل) أبلغ من قولك (هو رجل عادل) وذلك لأن معناه أنه أصبح هو العدل، أي:
لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه. وقولك: (هو رجل سوء) أبلغ من
قولك: (هو رجل سيئ) فمعنى رجل سيئ أنه اتصف بالسوء ومعنى (رجل سوء)
أنه لكثرة ممارسته السوء أصبح هو السوء، ومثله قوله تعالى في ابن نوح عليه
السلام: ﴿قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود) ولم يقل إنه عامل
غير صالح، والمعنى أن ابنك تحول إلى عمل غير صالح ولم يبق فيه من عنصر
الذات شيء، أي: تحول إلى حدث مجرد وأن العمل غير الصالح لو تجسد لكان
ابنك. فالبراءة في آية الزخرف أشد.

ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بجمعاء النون -
أعني نون الوقاية - في آية الزخرف زيادة في التوكيد فقال: (إنني براء) ولم يأت بها
في آية الأنعام بل قال: (إنني بريء) وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد ^(٢).

(١) معاني النحو. ٣٨٨/١.

(٢) انظر معاني النحو. ٣٨٨/١.

فانظر كيف أكد براءته في آية الأنعام بالنون ويتحول الصيغة إلى المصدر وهي نظيرة ما مر في آيات العجب السابقة. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وكيف أن القرآن كاللوحه الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها كل جزئية من جزئياتها واعتني بكل لمسة من لمساتها، وصدق الإمام الرازي إذ قال: القرآن كالسورة الواحدة بل كالأية الواحدة.

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله تعالى: (الرحمن الرحيم) فإنّ (الرحمن) على وزن فَعْلان و (الرحيم) على وزن فَعِيل فجمع بينهما، وذلك أن صيغة (فعلان) تدل على الصفات المتجددة، وذلك نحو: عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش في: عطشان، ليس صفة ثابتة بل يزول ويتحول وكذلك جوعان وغضبان، بخلاف (فَعِيل) فإنه يدل على الثبوت وذلك نحو: كريم ويخيل وطويل وجميل فإن هذه صفات ثابتة فليس (طويل) مثل: (عطشان) في الوصف ولا (قبيح) مثل (جوعان). ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في لغتنا الدارجة تقول: (هو ضعيفان) إذا أردت الحدوث فإن أردت الثبوت قلت: (هو ضعيف)، وكذلك سمنان وسمين: ألا ترى أنك تقول لصاحبك: أنت ضعيفان، فيرد عليك: أنا منذ نشأتي ضعيف. وتقول له: أراك طولان. فيقول: أنا طويل منذ الصغر.

وهذا من أبرز ما يميز صيغة (فعلان) عن (فَعِيل)... فإن صيغة (فعلان) تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة (فَعِيل) تفيد الثبوت فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين. إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول كعطشان وريان. ولو اقتصر على (رحيم) لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجدها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك. والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال فجمع بينهما حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة وأن رحمته مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يستبد به

الوهم بأن رحمته تعرض ثم تنقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه - فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه^(١).

ومن ذلك أنه يستعمل صيغة جمع في مكان ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في مكان آخر يبدو شبيهاً بالأول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعِ سُنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ ثَقَاتُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَوِّفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَسْكُنْنَ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَى يَأْكُلْنَ﴾ [يوسف].

فأنت ترى أن العدد في الآيتين واحد هو سبع، ولكن استعمل معه: (سنبلات) مرة ومرة أخرى: (سنايل) وسر ذلك أن سنايل جمع كثرة وسنبلات جمع قلة، وقد سيقت الآية الأولى في مقام التكرير ومضاعفة الأجور فجاء بها على (سنايل) لبيان التكرير.

وأما قوله: (سبع سنبلات) فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكرير^(٢). فجاء لكل موضع بما يقتضيه السياق.

ومن لطيف استعمال القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [النحل].

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان].

فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة (أنعم) وجمعها في لقمان جمع كثرة (نعمه) وذلك أن نعم الله لا تحصى، فلا يطيق الإنسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسماً منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأئني عليه قال: إنه شاكر لأنعمه،

(١) معاني الأبنية ٩١ - ٩٢.

(٢) التفسير القيم ١٥٤ - ١٥٥، البرهان ٢٢/٤.

ولم يقل: لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل]. وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان]. فذكرها بزنة جمع الكثرة.

وقد ذكرت في كتابي «معاني الأبنية في العربية» أمثلة أخرى لاستعمال صيغ الجمع المختلفة. وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموضعين يبدوان متشابهين فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا الْكَارُ إِلَّا أُنْيَاكُمَا تَعْدُوهُ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا الْكَارُ إِلَّا أُنْيَاكُمَا تَعْدُوهُ﴾ [آل عمران].

فقال مرة: (معدودة) ومرة أخرى: (معدودات) مع أن القصة واحدة.

والحقيقة أن السياق في الموضعين مختلف. وإيضاح ذلك أن المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دل على أن الموصوف أكثر منه، إذا كانت صفته جمعاً سالماً، فإنك إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقة) دل ذلك على أن عندكم جبلاً كثيرة بخلاف ما إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقات) فإنه يدل على القلة. والأنهار في قولك: (أنهار جارية) أكثر منها في: (أنهار جاريات) وعلى هذا فالأيام المعدودة أكثر من الأيام المعدودات وسبب ذلك أن المقامين مختلفان.

أما الأولى فالكلام فيها على بني إسرائيل وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة فذكر أنهم يُحَرِّفُونَ كلام الله وهم يعلمون. قال تعالى: ﴿أَتَنْظُرُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ مِنْ بَدَى مَا عَقِلُوا وَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ﴾ [٥٧] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ إِنْ يَبْعِثُ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

فهم يعرفون جُرْمَهُمْ وَيُفَرِّقُونَ به ويعلمون به عن قصد وإصرار وقد تَوَعَّدَهُم الله بالعذاب الشديد فقال: ﴿قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْفَعُوا بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ وَمَا كُنْتُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ وَمَا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة].

إذن فهم يعملون بالجرم عن قصد ويحرفونه عن علم ليشترؤا به ثمناً قليلاً.
وإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا: (إلا أياماً معدودة)
فجاء بصيغة الكثرة.

وليس الأمر كذلك في آية آل عمران فقد قال: ﴿أَوْتَرَكُمُ الَّذِينَ أَتَوْا نَصِيحًا مِّنَ
الْكِتَابِ يُذَمُّونَ لَكُمْ يَكْتُبُ أَوَّلُ يَمِينِكُمْ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمَعَهُم مَّقَرَّةٌ مِّنْهُمُ يَقُولُ
لَنْ نَمْسَا الشَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَمُوا فِيهِمُ وَيَنْزِعُهُمْ شَاكِكًا أَوْ يَفْتَرُونَ﴾ (١٦).

فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من
ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرق كبير بين المقامين. فجاء
بزمن العذاب الطويل للجرم الكبير، والقليل للذنب القليل فقال:
(معدودات) بصيغة جمع القلة في آل عمران، بخلاف آية البقرة فسبحان الله رب
العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٦) [الأنبياء].
وقوله: ﴿قُلْ أَزَلَّهُ الْآلِيُّ يَعْلَمُ الْبَرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٦) [الفرقان].

فقال في آية الأنبياء: (السماء) وفي آية الفرقان: (السموات) وسبب ذلك
أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول: قلت
في نفسي كذا وكذا؟

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَلَيْسَ
الْمُصِيبُ﴾ (١٦) [المجادلة].

جاء في (الكشاف) أن «القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به
العلم بالسر وزيادة فكان أكد في بيان الاطلاع على نحو أهم» (١).

والسماء هنا أعم من السماوات وذلك أن (السماء) في القرآن تستعمل على
معنيين فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ

(١) الكشاف ٣٢١/٢ وانظر تفسير البيضاوي ٤٢٦.

الدُّنْيَا بِصَنِيعٍ ﴿٥﴾ [الملك] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ بِمَرْجُونٍ ﴿٦﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنَّا قَوْمٌ مَّشْهُورُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر].

وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره قال تعالى: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكَ فِدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح] والسما هنا بمعنى المطر.

وقال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٧٧﴾﴾ [الرعد] والسما هنا بمعنى السحاب.

وقال: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ شَرَجَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَدْرُهُ ضَرِيقًا حَرْبًا كَأَنَّمَا يَمْكُدُ فِي السَّمَاءِ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام] والسما هنا بمعنى الجو.

والمعنى أن الضالَّ عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في الجو لأن المرتفع في الجو يضيِّق صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم. وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العلمية قبل اختراع المنطادات والطائرات بدُّهور.

وقال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج].

والسما هنا بمعنى السقف، أي: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا فَلْيَمْدُدْ حَبْلًا إِلَى سَقْفِ بَيْتِهِ ثُمَّ لِيَخْنُقْ نَفْسَهُ بِهِ لِأَنَّ مُحَمَّدًا مُنْتَصِرٌ لَا مُحَالَةٌ. وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذاك.

ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع. فجاء به (القول) الذي هو أعم من (السر) مع السماء التي هي أعم من السماوات فاستعمل العام مع العام والخاص مع الخاص.

ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن دُنْيِكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد].

فلما جاء بالسموات قال: (عرضها السماوات والأرض)، ولما جاء بالسما التي هي أعم من السماوات قال: (عرضها كعرض السماء والأرض) فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات.

ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كُلِّ من الآيتين، ففي آية السماوات قال: (أعدت للمتقين) وفي آية السماء قال: (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة (كعرض السماء) وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قبلهم وهم المتقون بلفظ: (السماوات) التي هي أقل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد.

ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد]. وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسَّع دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصرها على المتقين منهم، ذكر هذا الفضل العظيم في آية الحديد.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال: (سابقوا) وفي الآية الأخرى قال: (سارعوا) وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المُسارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد (المسابقة) وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر (السما) وهي تشمل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يشملون المتقين وزيادة. وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة. فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فجَلَّتْ حكمة الله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٦) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ ﴿١٧﴾ [النساء].

فقال في أصحاب الجنة: (خالد بن فيها) بالجمع وفي أصحاب النار: (خالداً فيها) بالإنفراد وقالوا: إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالاجتماع المستلزم لزيادة الأنس والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تُطابق، وإفراده لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار، والوحدة جاء في (حاشية يس على التصريح) في هاتين الآيتين: «ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار وإفراده ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالاجتماع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم وما في الأفراد من الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب كما ذكره المولى أبو السعود.

وقيل: إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة قال: (يدخله) والضمير المنصوب في (يدخله) وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء (خالد بن) لرفع هذا الإبهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً.

أما الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الأفراد في (خالداً) (١).

ومن ذلك قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِثُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف].

وقوله في قصة شعيب: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف].

فأفرد الرسالة مع صالح وجمعها مع شعيب فقال: (رسالات) قالوا: وذلك أن شعبياً بُعث إلى أمتين: مدين وأصحاب الأيكة، وصالحاً بُعث إلى أمة واحدة، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف].

(١) حاشية يس على التصريح ١٤٠/١.

وقال: ﴿كَذَّبَ أَحْسَنُ لَيْكُوَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿٣٦﴾ [الشعراء].

ومدين غير أصحاب الأيكة، وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال: (أخوهم) وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل: (أخوهم). قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف، هود ٨٤، المؤمنون ٣٦].

وقد ذكر الله جملة من الأنبياء وأمهم في سورة الشعراء، وكلهم قال فيه: (أخوهم) إلا أصحاب الأيكة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿٣٧﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿٣٨﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿٣٩﴾ [الشعراء].

ثم قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَ أَحْسَنُ لَيْكُوَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿٤٠﴾ [الشعراء].

فانظر كيف قال: (أخوهم) مع الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوامهم ولم يقل ذلك فيمن أرسل إلى غير قومه.

فشعيب أرسل إلى أمتين ولذلك جمع الرسالة فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رِسَالًا مِنَّا بِرَبِّ﴾ [الأعراف]. وقال صالح: ﴿أَرْسَلْنَاكُمْ رِسَالًا مِنَّا بِرَبِّ﴾ [الأعراف].

ثم لو نظرت إلى ما ذكره كل من صالح وشعيب عليهما السلام وبلغ به قومه لوجدت أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح.

قال تعالى على لسان صالح بعد أن ذكر نعمة الله عليهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٤٢﴾ [الشعراء].

وقال على لسان شعيب: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(٧٦)﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ السَّيِّئِ ﴿٧٩﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْعُوا فِي الْأَرْضِ مُنْسِدِينَ ﴿٨٠﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٨٢﴾ [الشعراء].

فهي في حق صالح رسالة، وفي حق شعيب رسالات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيصِينَ^(٧٦)﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيصِينَ^(٧٧)﴾ [هود].

وقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيصِينَ^(٧٨)﴾ [هود].

فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة، وخذ الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وخذ مع الرجفة وجمع مع الصيحة^(١).

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْصَرِفْ^(٧٩)﴾ [يونس].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَنْظُرْ إِلَيْكَ^(٨٠)﴾ [يونس].

فقال: (يستمعون) بلفظ الجمع وقال بعده: (ينظر) بلفظ المفرد وذلك لأن المستمعين أكثر من الرائين على وجه العموم، ألا ترى أننا نستمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعات وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائل السمع، فجمع المستمعين لأنهم أكثر وإن كان لفظ (من) يحتمل الجمع والمفرد. وذكر الكرمانى أنما فرق بينهما « لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي ﷺ بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة، فجمع ليطابق اللفظ المعنى.

(١) انظر البرهان للكرمانى ١٨٤، ٢٣٩.

وَوَحَّدَ (ينظر) حملاً على اللفظ إذ لم يكثرُوا كثرَتهم^(١).

وربما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر فإن التأثر بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوَحَّدَ النظر لأن رؤيته ﷺ واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائيين. وجمع الاستماع لأن الاستماع يختلف أثره من شخص لآخر. فالكلام يختلف مواقفه من مستمع لآخر، ولذلك وَحَّدَ الرائيين لأنهم يرون شيئاً واحداً وجمع المستمعين لأن أثر ذلك مختلف عندهم.

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا بِنُوحٍ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا بَصِيصٍ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ [الشعراء] فجمع الشافع ووحيد الصديق: «فإن قلت: لِمَ جمع الشافع ووحيد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق»^(٢) «ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء»^(٣) وبخاصة أنه وصف الصديق بأنه حميم فإن ذلك أندر.

وقريب من ذا قوله تعالى ﴿إِن زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾ [الحج].

فجمع أولاً فقال: (ترونها) ثم وَحَّدَ فقال: (وترى الناس) جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لِمَ قيل أولاً: (ترون)، ثم قيل: (ترى) على الأفراد؟

قلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائيين لها. وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لساترهم»^(٤) وهذا باب واسع نكتفي منه بهذا القدر.

(١) البرهان ٢٢٣.

(٢) الكشاف ٤٣٠/٢.

(٣) تفسير البيضاوي ٤٩١.

(٤) الكشاف ٣٤١/٢.

التقديم والتأخير

يمكننا تقسيم أحوال التقديم والتأخير على قسمين:

الأول : تقديم اللفظ على عامله نحو: (خالداً أعطيت) و: (بمحمد اقتديت).

الثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لَقَيْرَ اللَّهِ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَمَا أَهْلَ لَقَيْرَ اللَّهِ﴾ [المائدة] ومثل: (أعرت خالداً كتابي) و: (أعرت كتابي خالداً).

١- تقديم اللفظ على عامله

ومن هذا الباب تقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك. وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص فقولك: (أنجذت خالداً) يفيد أنك أنجذت خالداً ولا يفيد أنك خصصت خالداً بالنجدة بل يجوز أنك أنجذت غيره أو لم تنجد أحداً معه. فإذا قلت: (خالداً أنجذت) أفاد ذلك أنك خصصت خالداً بالنجدة وأنك لم تنجد أحداً آخر.

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [أهدنا الصراط المستقيم] فقد قدم المفعول به (إياك) على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية فلم يقل: (إيانا اهد) كما قال في الأولين؛ وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ [البقرة] فقد قدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود] فقد قدم الجار والمجرور للدلالة على

الاختصاص وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده والإنابة ليست إلا إليه وحده.

ولم يقدم مفعول الهداية على فعله فلم يقل: (إيانا اهد) كما قال: (إياك نعبد) وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص إذ لا يصح أن تقول: اللهم اهدني وحدي ولا تهد أحداً غيري أو خصني بالهداية من دون الناس. وهو كما تقول: اللهم ارزقني واشفني وعافني. فأنت تسأل لنفسك ذلك ولم تسأله أن يخصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفيه ولا يعافيه.

ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المُلْك] فقدم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وآخر (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) وذلك أن الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضرراً ولا نفعاً فيتوكل عليه^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى] «لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره. ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهًا لَّهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١١﴾» [الغاشية]. فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعَاؤُكُمْ وَإِلَيْهِ مَوَابُكُمْ﴾ [الرعد] وقوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ إِلَى اللَّهِ﴾ [القيامة] فالمراد إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب

(١) البرهان ٤١٢/٢ وانظر التفسير الكبير ٧٦/٣٠.

(٢) الطراز ٧٠/٢-٧١.

بعضهم^(١) بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود] وقوله: ﴿كُلُّ لِبَاسٍ رِجُوعٌ﴾ [الأنبياء] وغير ذلك من الآيات.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت] فعلم الساعة مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ وهو نظير الآية السابقة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاتيح الغيب) وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال: (لا يعلمها إلا هو)؟

وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أن يفيد الاختصاص. ومن التقديم الذي لا يفيد الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام] فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحاً وإنما هو من باب المدح والثناء. ونحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [النساء] و﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى] إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

٢. تقديم اللفظ وتأخيرهِ على غير العامل

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم: إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام. فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام. والعناية باللفظة لا تكون من حيث أنها لفظة

(١) انظر الطراز ٧١/٢.

معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال. ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذلك. والقرآن أعلى مثل في ذلك فإننا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام. فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء، ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس، ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر، كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير.

فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الاكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلمة هنا للعناية بها والاهتمام دون تبين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم.

فإذا قيل لك مثلاً : لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟

قلت : لأن الاهتمام بالسماء أكبر.

ثم إذا قيل لك : ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟

قلت : لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر.

فإذا قيل لك : ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الاهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين المواطنين، بحيث تبين أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء، أو تقديم السماء على الأرض فيما قدمت فيه الأرض بياناً شافياً. وكذلك بقية المواطن الأخرى. أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام. والاكتفاء بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف، إذ كل واحد يقول لك: إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال .

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن - كما في غيره - الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب . ولم يكف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله . فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة .

إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجانب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة . وسنوضح هذا القول المجمل ببيان شاف .

إن القرآن - كما ذكرت - يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام - مثلاً - متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات] فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَلْقُهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ تَارِ السَّمَوَاتِ﴾ [الحجر] فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم .

ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة] لأن السنة وهي النعاس تسبق النوم^(١) فبدأ بالسنة ثم النوم .

ومن ذلك تقديم عاد على ثمود^(٢) قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ ذُكِّرُوا لَكُمْ مِنْ مَسَكِينِهِمْ﴾ [العنكبوت] فإن عاداً أسبق من ثمود .

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) - باب المطف .

(٢) الإنشقاق ١٥/٢ .

وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور^(١) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء] فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود. وقال: ﴿يَقْبَلُ اللَّهُ التَّوْبَةَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام] وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل.

قالوا: ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحرر] قالوا: لأنه عز فحكم^(٢).

ومنه تقديم القوة على العزة لأنه قوي فعز أي غلب فالقوة أول قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠، ٧٤] وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف، منه تقديم الله سبحانه في الذكر^(٣) كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء].

فقدم الله على الرسول ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدهم بحسب تفاضلهم. كما تدرج من القلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصديقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله فمه تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل إلى الفاضل. ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قلّ صنفهم.

(١) الإتيان ١٥/٢

(٢) الإتيان ١٤/٢

(٣) الإتيان ١٤/٢

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَخَذْنَا مِنَ الَّذِينَ مِيشَقَهُمْ وَمِنَكَ وَمِنْ نُوحٍ وَلِبَنِيهِمْ وَمُؤْمِنٍ وَبِئْسَ أَتَىٰ مَرْتَبٌ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيشَقًا غَلِيظًا ۖ﴾ [الأحزاب] فبدأ بالرسول لأنه أفضلهم^(١).

وجعلوا من ذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى، وانظر غافر ٢٠] وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الإسراء، غافر ٥٦].

وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾ [الإنسان] فقدم السمع على البصر.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِشُوا عَلَيْهَا صُفًا وَصُفًا ۝﴾ [الفرقان].

فقدم الصُّمَّ وهم فاقدو السمع على العميان وهم فاقدو البصر. قالوا: لأن السمع أفضل^(٢). قالوا: والدليل على ذلك أن الله لم يعث نبيًّا أصم، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمي لفقد ولده.

والظاهر أن السَّمْعَ بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله. والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم. فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.

ويمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية، وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية، فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى، ولذا حين قال موسى في فرعون: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَ ۝﴾ [طه] قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝﴾ [طه]

(١) انظر الكشاف ٥٣١/٢.

(٢) انظر البرهان ٢٥٤/٣.

فقدم السمع لأنه يوحى بالقرب إذ الذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا يندّ عن سماعه شيء.

وقد يكون التقديم بحسب الرتبة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِّثْيَةٍ﴾ هَكَذَا مَقْلَمٌ وَيَسِيرٌ ﴿١١﴾ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَمِيرٌ ﴿١٢﴾ [القلم] « فإن الهمّاز هو العيّاب وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النسيمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص ^(١) ».

فيداً بالهمّاز وهو الذي يعيب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي بالنسيمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها. ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء. ثم ختمها بقوله: (أثم) وهو وصف جامع لأنواع الشرور، فهي مرتبة أخرى أشد إيذاءً. جاء في (بدائع الفوائد): « وأما تقدم (همّاز) على (مشاء بنميم) فالرتبة لأن المشي مرتب على القعود في المكان. والهمّاز هو العيّاب وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النسيم. وأما تقدم (مناع للخير) على (معتد) فبالرتبة أيضاً لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره ^(٢) ».

وجعلوا منه تقدم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال] وذلك أنه «خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخفي صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر ويطن وواقعاً على ما قرب وشطن. ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم ^(٣) ».

ويمكن أن يُقال: إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه.

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٢.

(٢) بدائع الفوائد ١/٦٢.

(٣) بدائع الفوائد ١/٧٤، البرهان ٣/٢٤٩.

وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة] في آيات كثيرة وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء] قالوا: وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن «المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَصْعَقُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ] فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً. والمعموم قبل الخصوص بالرتبة»^(١).

وإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم. وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعم.

ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكثر الذهب والفضة: ﴿يَوْمَ يُخَصَّ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُوفٌ بِهَا جَهَنَّمُ وَجُودُوهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة] فبدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهور «قيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عيسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس أزوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم»^(٢). فتدرج بحسب الرتبة.

وقد يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتَكَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيِّنِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُورِ﴾ [البقرة] فكل طائفة هي أقل من التي بعدها فتدرج من القلة إلى الكثرة. فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة. والعكوف يكون في المساجد عموماً. والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد. والراكعون أقل من الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم أن كل راكم لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر. فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة»^(٣).

(١) البرهان ٢٤٩/٣، البرهان الكاشف عن إجاز القرآن ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) الكشف ٣٨/٢.

(٣) انظر بدائع الفوائد ٦٥/١ والبرهان ٢٥٠/٣ وانظر معاني النحو - باب المعطف.

ولهذا التدرج سبب اقتضاء المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام. قال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَهُكَ بِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرَا بَيْتَ لِلْعَالَمِينَ وَالْمَكِينِ وَالرُّكَّعِ الشُّجُورِ﴾ [البقرة] فالطائفون هم الصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً، ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْكُلُوا الْخَيْرَ لَكُمْ تَقْلُحُونَ﴾ [الحج] فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود وهو أكثر، ثم عبادة الرب وهو أعم، ثم فعل الخير.

وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَسْرِعُ مَنَاسِكُكَ إِلَى رَبِّكَ وَاسْجُدْ وَارْكَعْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران] فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة، ثم السجود وهو أقل وأخص، ثم الركوع وهو أقل وأخص^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ فَنُفِرَ كَافِرُونَ مَثُومِينَ﴾ [التغابن] فبدأ بالكفار لأنهم أكثر (*) قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف].

(١) بدائع الفوائد ٨/١.

(*) أو هو إشارة إلى أنه سبيدا بذكر الكافرين ثم بذكر المؤمنين بعدهم فقد قال بعد هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَنُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَلِكُمْ أَكْثَرُ فَنِعْمَ عَلَيْكَ الْإِلَهِ﴾ وقال: ﴿رَبِّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُثْبِتُ إِلَهُكَ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَنْ يَخْلُقُوا شَيْئاً فَهُمْ يُعَذِّبُونَ عَنْ آلِهَتِهِمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ آلِهِمْ عَذَابٌ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يُلْهِمْ إِلَهُهُ وَمَعْلُومٌ كَيْفَ رَحْمَتِهِ سَيَّارَةً وَيَخْلُقُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

فقدم الكلام على الكافرين ثم ذكر المؤمنين بعدهم كما فعل في الآية التي ذكرناها أولاً. ولا يناقض هذا ما ذكرناه في تعليل التقديم ولا يخالفه من أن التقديم هنا إنما جرى بحسب الكثرة والقلة إذ ربما كان أكثر من ملحظ للتقديم والتأخير. فقد تعاضد على ذلك أمران كلاهما يقتضي التقديم. وهو تعاضد فني رفيع.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾ [فاطر] فقدم الظالم لكثرة ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله ثم السابقين وهم أقل^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: ((فإن قلت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيدان بكثرة الفاسقين وغلبيتهم وأن المقتصدين قليل بالاضافة إليهم والسابقون أقل من القليل))^(٢).

ألا ترى كيف قال الله تعالى في السابقين: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ [الواقعة] إشارة إلى ندرتهم وقلة وجودهم؟

قالوا: ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة] قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر. وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور] لأن الزنى فيهن أكثر^(٣).

ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعل الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير على «الكشاف» قوله: «وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع والكلام^(٤)، «ولأن مفسدته تتحقق بالاضافة إليها»^(٥).

وقد يكون التقديم لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق فنراه يقدم لفظة في موضع ويؤخرها في موضع آخر بحسب ما يقتضي السياق.

فمن ذلك تقديم لفظ (الضرر) على (النفع) وبالعكس قالوا: إنه حيث تقدم النفع على الضرر فلتقدم ما يتضمن النفع، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا آتِيَكُ الْبَغْيُ نَفْعًا وَلَا

(١) انظر الاتقان ١٥/٢.

(٢) الكشاف ٥٧٨/٢.

(٣) الاتقان ١٥/٢.

(٤) حاشية ابن المنير ٣٧٣/٢-٣٧٤.

(٥) تفسير البياضوي ٤٦٢.

مَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف] فقدم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدمه في قوله ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىَّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا تِلْكَ لَهُمُ الْخَيْرُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف] فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك قال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَهْلَمَ الْقَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَىٰ الشَّوْءُ﴾ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف] فقدم الخير على السوء ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.

وقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿١٥٩﴾ [يونس] فقدم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُمْسِجُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْمَلَهُمْ إِبْلِخِيرًا لَنَفْسِي إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ ﴿١٦٠﴾ [يونس] وقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْزَلَ لَهُمُ الْغُرُورَ﴾ ﴿١٦١﴾ [يونس].

فقدم الضرر على النفع في الآيتين. ويأتي بعد هذه الآية قوله: ﴿قُلْ آتِهِمْ مِنْ دُونِي﴾ ﴿١٦٢﴾ [يونس] فكان المناسب تقديم الضرر على النفع هنا.

وقال: ﴿قُلْ أَتَأْتِفْتُمْ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ﴿١٦٣﴾ [الرعد]. فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ ﴿١٦٤﴾ [الرعد] فقدم الطوع على الكره.

وقال: ﴿قَالِيَمَ لَا يَمْلِكُ بِشُكْرٍ لِمَنْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ﴿١٦٥﴾ [سبأ] فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله: ﴿قُلْ إِنْ رِزْقِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ﴿١٦٦﴾ [سبأ] فقدم البسط.

وغير ذلك من مواضع هاتين اللفظيتين ^(١).

ومن ذلك تقديم الرحمة والعذاب. فقد قيل إنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿يَقْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿١٦٧﴾ [المائدة] وقوله: ﴿إِنَّ رِزْقَكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿١٦٨﴾ [فصلت] وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ﴾ ﴿١٦٩﴾ [غافر].

(١) انظر البرهان ١/ ١٢٢، البرهان للكرمانى ١٩٧ وما بعدها، ٣٤٩ دورة التنزيل ٢٠٩.

وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي».

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً. من ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) لأنها وردت في سياق ذكر قطاع الطرق والمحاربين والسرّاق فكان المناسب تقديم ذكر العذاب وذلك أنها وردت بعد قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (٢) [المائدة] فقدم القتل على الإحياء، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) [المائدة] ثم جاء بعدها: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكَلَّافَ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤) [المائدة]. ثم جاء بعدها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥) [المائدة].

فانت ترى أن المناسب ههنا تقديم العذاب على المغفرة. جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ إلى قوله ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

«فإن قلت: لم قدم التعذيب عن المغفرة؟

قلت: لأنه قوليل بذلك تقدم السرقة على التوبة» (١).

ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (٢) وذلك لأنها في سياق إنذار إبراهيم لقومه ومخاطبة نمرود

(١) الكشاف ١/ ٤٦٠ وانظر ملاك التأويل ١/ ١٣٨ وما بعدها، ١/ ٢٥٢ وما بعدها.

72

ولما لم يقل في الثانية: (في سبيل الله) قدم الموت على القتل لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله: (إلى الله تحشرون) إذ الميت والمقتول كلاهما يحشره الله إليه. فستان مابين الخاتمتين. فلم يزد في غير الشهيد ومن مات في سبيل الله على أن يقول: (إلى الله تحشرون) وقال في خاتمة الشهيد: (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) فوضع كل لفظة الموضوع الذي يقتضيه السياق.

وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ لِلْأَجْرُزِ فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة] فقدم الأنعام على الناس.

وقال في مكان آخر: ﴿وَلَكُمْ وَأَبَاكُمْ أَنْتُمْ لَكُمُوهَا وَالْأَنْفُسُ﴾ [عبس] فقدم الناس على الأنعام وذلك أنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام، بخلاف آية عبس فإنها في طعام الإنسان قال تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس] إلى أن يقول: ﴿فَأَبْنَأُ فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس] ﴿وَصَبَا وَقَنْبًا﴾ [عبس] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس] ﴿وَحَبًّا وَنَخْلًا﴾ [عبس] ﴿وَلَكُمْ وَأَبَاكُمْ أَنْتُمْ لَكُمُوهَا وَالْأَنْفُسُ﴾ [عبس] ألا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكه أولاً ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأب أي: التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثم. فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ إِمْلَاقَهُمْ لَخَشِيَةٌ عَلَيْنَا إِنْ أَنْتُمْ لِلْأَنْفُسِ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةٌ عَلَيْنَا إِمْلَاقَهُمْ وَإِنَّا نَكُفِّرُ﴾ [الإسراء] فقدم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الآية الثانية قدم رزق الأبناء على الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه، فأوجب البلاغة تقديم عذرهم بالرزق تكميل العذر برزق الأولاد.

وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر^(١). فقال: لا تقتلوهم فلنا نرزقهم وإياكم، أي أن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِمْ غِشْوَةً ﴾ [الجاثية] فقدم القلوب على السمع في البقرة، وقدم السمع على القلب في الجاثية وذلك لأنه في البقرة ذكر القلوب المريضة فقال: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ نَجَسٌ فَتَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة] فقدم القلوب لذلك.

وفي الجاثية ذكر الأسماع المعطلة فقال: ﴿ وَلَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ ﴾ يَمَعُ أَيَسْتُ اللَّهُ تَتَلَّى عَلَيْهِمْ يُعْرِئُ شَتَكِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [الجاثية] فقدم السمع. فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها.

ثم إن آية البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضلالاً وكفراً ممن ذكرتهم آية الجاثية فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة].

وجاء في الجاثية قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَسْأَلُهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِمْ يَتَدَابَّرْ ﴾ [الجاثية] فقدم ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم ميؤوس من إيمانهم. ولم يقل مثل ذلك في الجاثية.

ثم كرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيد الختم فقال: ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾. ولم يقل مثل ذلك في الجاثية،

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ٢٦٠-٢٦١، تحرير التحيير ٥٦١.

بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد فقال: (وختم على سمعه وقلبه).

ثم قال في البقرة: ﴿وَعَلَىٰ آبَتِهِمْ عِشْرَتٌ ۖ﴾ بالجملة الإسمية، والجملة الإسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخلقهم فلا أمل في إبصارهم في يوم من الأيام.

في حين قال في الجاثية: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِشْرَتٌ﴾ بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث. ومعلوم أن (جعل) فعل ماض، ومعنى ذلك: أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل، يدل ذلك على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مما يدل على أنه كان مبصراً قبل تزيده. ثم ختم آية البقرة بقوله: ﴿وله عذاب عظيم﴾ ولم يقل مثل ذلك في الجاثية. فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم.

ولذا قدم ختم القلب على ما سواه لأنه هو الأهم، فإن القلب هو محل الهدى والضلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج].

وقال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

فكان تقديم القلب في البقرة أولى وأنسب، كما أن تقديم السمع في الجاثية أنسب. ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل].

وقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون].

فقدم (هذا) في الآية الأولى وأخرها في آية (المؤمنون) وذلك «أن ما قبل الأولى: ﴿أَوَدَّا كُنَّا نُرَبِّيَ وَآبَاؤُنَا إِنَّمَا كُنَّا نَعْمُرُ﴾ [النحل]، وما قبل الثانية: ﴿أَوَدَّا يَتَنَا وَكُنَّا نُرَبِّيَ وَآبَاؤُنَا إِنَّمَا كُنَّا نَعْمُرُ﴾ [المؤمنون] فالجهة المنظور فيها هناك كونهم أنفسهم وآبائهم تراباً. والجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً. ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد

البعث^(١) ذلك أن البلى في الحالة الأولى أكثر وأشد وذلك أنهم أصبحوا تراباً مع آبائهم. وأما في الآية الثانية فالبلى أقل وذلك أنهم تراب وعظام فلم يصيبهم ما أصاب الأولين من البلى، ولذا قدم (هذا) في الآية الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتعبد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَتَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوَكُّونَ﴾ [غافر].

فانت ترى أنه قدم في آية الأنعام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأخر: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وفي غافر جاء بالعكس. وذلك أنه في سياق الإنكار على الشرك والدعوة إلى التوحيد الخالص ونفي الصاحبة والولد قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُمُ بَيْنًا وَبَيْنًا يَحْتَرِفُونَ مَا بَدَأُ بِصَفْوَتٍ﴾ [يوسف] **بَيْعُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ** أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَتَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام].

فانت ترى أن الكلام على التوحيد ونفي الشرك والشركاء والصاحبة والولد ولذا قدم كلمة التوحيد: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهو المناسب للمقام.

ثم انظر كيف قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بعد قوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةٌ﴾ فأخر الخلق بعد التوحيد، وهو نظير تأخيره بعد قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهو تناظر جميل.

أما في (غافر) فليس السياق كذلك وإنما هو في سياق الخلق وتعداد النعم قال تعالى: ﴿لَخَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر] إلى أن يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر] ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْبَيْتَ لِتَتَّقُوهُ وَإِلَهُكُمْ مُبْصِرٌ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ

وَلَيْكِنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ كُفْرُكُمْ أَنَّكُمْ رَبُّكُمْ خَلَقَكُمْ كُلِّيًّا وَلَئِنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْهَوَىٰ ﴿١٨﴾ ﴿غافر﴾.

فالكلام كما ترى على الخلق وعلى نعم الله وفضله على الناس لا على التوحيد فقدم الخلق لذلك فوضع كل تعبير في موطنه اللائق حسب السياق.

جاء في (البرهان) للكرمانى: «قوله: ﴿ذَلِكَ كُفْرُكُمْ أَنَّكُمْ رَبُّكُمْ خَلَقَكُمْ كُلِّيًّا وَلَئِنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْهَوَىٰ﴾ في هذه السورة: وفي المؤمن ﴿خَلَقَ كُلِّيًّا وَلَئِنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْهَوَىٰ﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات، فدمغ قول قائله بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال: ﴿خَلَقَ كُلِّيًّا وَلَئِنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْهَوَىٰ﴾. وفي (المؤمن) قبله ذكر الخلق وهو ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿فخرج الكلام على إثبات خلق الناس لا على نفي الشرك فقدم في كل سورة ما يقتضيه قبله من الآيات﴾^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ الْقَائِمُونَ﴾ [التوبة].

فقدم الأموال والأنفس على (في سبيل الله) في سورة الأنفال. وقدم (في سبيل الله) على الأموال والأنفس في سورة التوبة، وذلك لأنه في سورة الأنفال تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة من مثل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَصَ الدَّيْتِ﴾ [الأنفال] وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله: ﴿لَوْ لَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُنْتُمْ فِيْمَا أَهْدَيْتُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ﴾ [الأنفال] أي: من الفداء، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا حَبِطَتِمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال] وغير ذلك فقدم المال ههنا، لأن المال كان مطلوباً لهم حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدؤوا بالتضحية به.

وأما في سورة التوبة فقد تقدم ذكر الجهاد في سبيل الله من مثل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِمُ عَنْيَهُمْ وَيُخَفِّضُ صُدُورَهُمْ

(١) البرهان ١٦١-١٦٢، درة التنزيل ١٢٧، ملاك التاويل ١/٣٤١.

مُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾ [التوبة] وقوله: ﴿أَرْحَبَشْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١١﴾ [التوبة].

وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿١١٢﴾ [التوبة] ^(١).

فقدم ذكر: (في سبيل الله) على الأموال والأنفس وهو المناسب ههنا للجهاد كما قدم الأموال والأنفس هناك لأنه المناسب للأموال.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ ﴿١١٣﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ﴿١١٤﴾ [فاطر].

قدم (مواخر) على الجار والمجرور في النحل وقدم (فيه) على (مواخر) في فاطر. وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لتركبها وزينة، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحَماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَنَبِّئُوا مِنْ قَضْيَاهِ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ [النحل].

قدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل. وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا كَحُلِّ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا بِكَيْدٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١١٦﴾ [فاطر] ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَالِحٌ شَرَابُهُمْ وَهَذَا مِلْحٌ لِمَاجٍ وَبَيْنَ كُلِّ نَأْسٍ لَحَماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْ حِلْيَةٍ تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِنَبِّئُوا مِنْ قَضْيَاهِ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ [فاطر].

فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم. فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المخر فقال: (وترى الفلك فيه مواخر).

(١) انظر البرهان للكرمانى ٢٠٣، درة التنزيل ١٨٩-١٩٠.

فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائل النقل والفلك قدم حالة الفلك،
ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ ثَقُوفٍ
جَدَلًا﴾ [الكهف].

قدم (للناس) على (في هذا القرآن) في الإسراء وأخرها في (الكهف) وذلك
لأنه تقدم الكلام في (الإسراء) على الإنسان ونعم الله عليه ورحمته به
فقال: ﴿وَإِذَا أَمَرْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ عَمْرَيْنَ وَتَنَاهَيْنَاهُ وَلَدًا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُفُوسًا﴾ [الإسراء].

إلى أن يقول:

﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء] ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا
رَبُّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَأنْ فَضْلِكَ كَثيرًا﴾ [الأنعام] ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَأنَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء].

فناسب ذلك تقديم الناس في سورة الإسراء.

ولم يتقدم مثل ذلك في الكهف.

ثم انظر في افتتاح كل من السورتين فقد بدأ سورة الكهف بقوله: ﴿لَمُبَدِّلِ
الَّذِي أُنزِلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف] ﴿قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ
لَدُنْهُ﴾ [الكهف].

فقد بدأ السورة بالكلام على الكتاب وهو القرآن ثم ذكر بعده أصحاب الكهف وذكر
موسى والرجل الصالح وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس، فبدأ بذكر القرآن ثم ذكر
الناس، فكان المناسب أن يتقدم ذكر القرآن على الناس في هذه الآية كما في البدء.

وأما سورة الإسراء فقد بدئت بالكلام على الناس ثم القرآن. فقد بدئت بقوله
تعالى: ﴿شُبْحِنَا الَّذِي أَسْرَيْنَا عَبْدَهُ لِيَلَذَّ مِنَ الْمَسِيحِ الْحَكرِ إِلَى الْمَسِيحِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء].

ثم تكلم على بني إسرائيل . ثم قال بعد ذلك :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ وَيُخَوِّشُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء].

فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن في هذه الآية . وهذا تناسب عجيب بين الآية ومفتح السورة في الموضعين .

ثم انظر خاتمة الآيتين ، فقد ختم آية الإسراء بقوله : ﴿ فَأَلْهَمَ الْكُفْرَ النَّاسَ إِلَّا كَثُورًا ۝ ﴾ والكُفُورُ : هو جحد النعم ، فناسب ذلك تقدم ذكر النعمة والرحمة والفضل ألا ترى أن مقابل الشكر الكفران ومقابل الشاكر الكفور قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا شَاكِرُوا رَبِّيَ إِذْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا كُفُورًا ۝ ﴾ [الإنسان] فكان ختام الآية مناسباً لما تقدم من السياق .

أما آية الكهف فقد ختمها بقوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَفَنَ وَجْهًا ۝ ﴾ لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات والجدل والمراء من مثل قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَصَيِّغِهِمْ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ۝ ﴾ [الكهف] .

وقوله : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ۝ ﴾ [الكهف] .

وبعدها : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَيْتِ لِيُدْخِلُوا بِهِ الْقَوْمَ ۝ ﴾ [الكهف]

وذكر محاورة موسى والرجل الصالح ومجادلته فيما كان يفعل .

وقال : ﴿ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ وَلَا مَرًا عَلَيْهِمْ ۝ ﴾ [الكهف] .

ولم يرد لفظ الجدل ولا المحاورة في سورة الإسراء كلها . فما اللفظ هذا التناسق وأجمله وما أجل هذا الكلام !

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِقُ مَالَهُ رِقَقًا أَنْ يَبْفِقَ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتَشْتَكِمُ عَنْهُ صِفَانِ عَلَيْهِ ثَرَاتٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُمْ مَسْلُومًا لَا يَنْقُدُونَ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ كَسِبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ [البقرة] .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ ﴾ [إبراهيم] .

فقال في آية البقرة: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا﴾ ﴿١٦١﴾ فقدم الشيء وأخر الكسب.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ ﴿١٦١﴾ فقدم الكسب وأخر الشيء، وذلك أن آية البقرة في سياق الإنفاق والصدقة، والمنفق معطٍ وليس كاسباً، ولذلك أخر الكسب فقال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا﴾.

وأما الآية الثانية فهي في سياق العمل، والعامل كاسب فقدم الكسب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٦٢﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٦٢﴾ [الأنفال].

فقدم القلوب على الجار والمجرور في آل عمران فقال: (ولتطمئن قلوبكم به)، وأخراها عنه في الأنفال فقال: (ولتطمئن به قلوبكم) علماً بأن الكلام على معركة بدر في الوطنين غير أن الموقف مختلف.

ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من فرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَسَيْحٌ يُشْلِلُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران] إلى غير ذلك من آيات المواساة والتصبير فقال في هذا الوطن: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ ﴿١٦٢﴾ فذكر أن البشرى (لهم)، وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة فقال: ﴿لَا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة.

ولما لم يكن المقام في الأنفال كذلك، وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد السماوي في هذا النصر وقد فصل في ذلك أكثر مما ذكر في آل عمران فقال: ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَاَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِ بْنِ الْمُطَلِّحِ كَوْثَرٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿١٦٥﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ يَنْشِئُكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِيزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٢﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنْ مَكِّمَكُمْ فِيَبَأِ الْبَيْتِ مَا تَرَوْنَ سَائِلِي فِي قُلُوبِ الْبَيْتِ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَآخِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾ [الأنفال].

أقول لما كان المقام مختلفاً خالف في التعبير .

أنه لما كان المقام في الأنفال مقام الانتصار وإبراز دور الإمداد الرباني قدم (به) على القلوب والضمير يعود على الإمداد . ولما كان المقام في آل عمران هو الطمأنة وتسكين القلوب قدمها على الإمداد فقال : ﴿ وَلِيُطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ وزاد كلمة (لكم) فقال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ زيادة في المواساة والمسح على القلوب فجعل كلاً في مقامه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُؤْثِرَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُؤْثِرَ اللَّهُ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ [المائدة] .

وقوله : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُؤْثِرَ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا رِيبَ لَكُمْ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأنعام] .

فقد قال في آية البقرة : ﴿ وَمَا أُؤْثِرَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ فقدم (به) على (لغير الله) . ومعنى : (ما أهل به) : ما رفع الصوت بذبحه وهو البهيمة .

وقال في آيتي المائدة والأنعام : ﴿ وَمَا أُؤْثِرَ اللَّهُ بِهِ ﴾ فقدم (لغير الله) على (به) وذلك أن المقام في آية الأنعام هو في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرعون للناس بإسم الله وهم يفترون عليه فقال : ﴿ وَجَعَلُوا قَوْلًا زَوَّارًا مِنْ آَلِهِمْ وَالْأَنْعَامِ تَصْيِبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا إِشْرَاقُنَا فَكَانَتْ إِشْرَاقَهُمْ فَلَا يَعْمَلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَعْمَلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُصُولَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

أَوَلَدِهِمْ شُرَكَّاؤُكُمْ يُزَيِّدُوهُمْ وَيَكْلِبُونَهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ أَفْكَاؤُ
فَدَرَبُهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي أَجَبْنَا لَكُمْ بِهَا وَإِنَّا لَمَكِينُونَ ﴿١٣٨﴾

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن ثمة ذوات غير الله تحلل وتحرم
مفترية على الله، وذوات يزعمون أنها شركاء لله تعبد معه ونصيبها أكبر من
نصيب الله في العبادة، ولذا قدم إبطال هذه المعبودات من غير الله على (ب)
فقال: ﴿أَوْفِقُوا هَلْ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ﴾ لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.

والكلام في المائدة أيضاً على التحليل والتحريم ومن بيده ذلك، ورفض أية جهة تحلل وتحرم من غير الله فإن الله هو يحكم ما يريد. قال: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُ الْأَنْتَمِ إِلَّا مَا يُحِلُّ عَلَيْكُمْ عِدَّ الْعَيْدِ وَأَنْتُمْ حُرٌّ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ... ۝ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْيَمِينَةُ وَالْأَدَمُ وَلَحْمُ الْفِيلِزِيرِ وَمَا أُولَ لِفَتَرِ اللَّهِ بِهِ... ۝ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْخَوَارِجِ مُكَلِّينَ تَعْلَمُونَهَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ لَكُمْ أَوْ مَا أَنْتُمْ عَنْكُمْ وَالْأَكْرَامُ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ... ۝﴾ [المائدة].

فهو يجعل التحليل والتحریم بيده ويرفض أية جهة أخرى تقوم بذلك، لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام ولذا قدمه في البطلان فقال: ﴿وَمَا أَهْلَ يَتَنَزَّهُ﴾. ثم إنه جاء في المواطنين بذكر اسم الله على الذبائح فذكر في آية الأنعام أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمداً فقال: ﴿وَأَنفَرُوا لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾. وأمر في آية المائدة بذكر اسم الله فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله.

وأما في البقرة فليس المقام كذلك فلم يذكر أن جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحریم وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات فقال: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلْأَنَاسُ كُلُّوْا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة]. وقال بعدها: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلْأَنَاسُ كُلُّوْا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة].

فلما كان المقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات قدم (به).
والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام^(١) والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَإِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ فَتَسْمَعُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [المُلْك] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَائِدُ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُكَ عَلَيْهِمْ حَذَائِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَنْجِلْكُمْ﴾ [الأنعام].

فتقدم خسف الأرض على إرسال الحاصب في آية المُلْك، وآخر عذاب الأرض عما يأتي من السماء في آية الأنعام.

وذلك أن آية الملك تقدمها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَانْشُرُوا فِي مَنَازِكِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [المُلْك] فكان أنسب شيء في الموعظة تذكيره بخسفها من تحتهم. « أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَائِدُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام] فصرف هذا الخطاب تفكر النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، وكان أنسب شيء ذكر منها القهر وكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية المُلْك^(٢).

ومما زاد ذلك حسناً قوله تعالى: (ويرسل عليكم حَفَظَةً) والحفظة: هم الملائكة، والملائكة مسكنهم في السماء، وربنا يرسلهم من فوق فناسب تقديم هذه الجهة على غيرها.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة فإن فيها كفاية فيما أحسب فهي تدل دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود، كل لفظ فيه وضع وضماً فنياً مقصوداً، وأنه لم يقدم لفظة على لفظة إلا لغرض يقتضيه السياق. وقد روعي في ذلك التعبير القرآني كله ونظر إليه نظرة واحدة شاملة.

وأظن أن ما مر من الأمثلة تريك شيئاً من فخامة التعبير القرآني وعلوه وأن مثل هذا النظم لا يمكن أن يكون في طوق بشر فسبحان الله رب العالمين.

(١) انظر ملاك التأويل ١٠٧/١-١٠٨.

(٢) ملاك التأويل ٩٠٨/٢.

الذكر والحذف

يدخل في هذا الموضوع ما حذف وأصله أن يذكر، كحذف حرف أو فعل أو اسم مما أصله أن يذكر.

كما يدخل فيه في ما ذكر في موطن، ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به لأن الموطن اقتضاه.

القسم الأول :

قد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، فقد يحذف حرفاً أو يذكره أو يجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف، كل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف].

وهذه الآية قالها ربنا في السد الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس المذاب. قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿أَتُوفَى رَبِّكَ الْخَلِيدُ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْنَا بَيْنَ الصَّانِعِينَ قَالَ أَنتُمْ حَرَّىٰ وَإِنَّا جَلَلٌ أَلَا قَالَ أَتُوفَىٰ أُنْفُجٌ عَلَيْهِمْ قَطْرًا﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف].

فقال: (فما استطاعوا أن يظهره) أي: يصعدوا عليه، فحذف التاء، والأصل: (استطاعوا)، ثم قال: (وما استطاعوا له نقباً) بإبقاء التاء. وذلك أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملاً، خفف الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال: (فما استطاعوا أن يظهره) وطول الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال: (وما استطاعوا له نقباً) فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النقب^(١).

(١) كنت أقول بهذا التعليل منذ وقت طويل ولم أكن أعلم أن أحداً قد ذكره حتى وقع في يدي كتاب (ملاك التأويل) فوجدته قد ذكره في ج ٢/ ٦٥٥.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] .
وقوله: ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة] .

فحذفت النون من (أنا) في آية آل عمران، وثبتت في آية المائدة فقيل: (إننا) وسبب ذلك والله أعلم «أن آية المائدة لما ورد فيها من التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك قوله: (أن آمنوا بي وبرسولي) فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاهما مناسب ذلك (أننا) على أوفى الحالين وهو الورد على الأصل. ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في سورة آل عمران حين قال تعالى: (قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله)، فلم يقع هنا: (وبرسوله) إيجازاً للعلم به وشهادة السياق مناسب هذا الإيجاز الإيجاز، كما ناسب الإتمام في آية المائدة الإتمام، فقيل هنا: (واشهد بأننا مسلمون) وجاء كل على ما يجب، ولو قدر ورود العكس لما ناسب»^(١).

يضاف إلى ذلك أنه قال في المائدة: (وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ) أي، أن الله هو الذي أوحى إليهم وثبتهم، فناسب ذلك زيادة النون تأكيداً لأن النون قد تأتي في مقام التأكيد^(٢).

ولم يرد مثل ذلك في آية آل عمران فناسب كل في موضعه .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل] .

وقوله في سورة النمل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل] فحذف نون (تكن) في آية النحل، وأبقاها في آية النمل.

(١) ملاك التأويل ١/ ١٦٥-١٦٦ .

(٢) انظر كتابنا: معاني النحو ١/ ٣٨٨ .

وذلك أن السياق مختلف في السورتين، فالآية الأولى نزلت حين مثل المشركون بالمسلمين يوم أحد: «بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به فراه مبقر البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرنني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك». فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلُوبٍ مِمَّا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ عُوقِبُوا﴾ ﴿١٥٩﴾ [النحل] فكفر عن يمينه وكف عما أراده» (١).

فأنزل الله تعالى: ﴿... وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۖ﴾ ﴿٢٦٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا يَأْلُو ۖ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٢٦٨﴾ [النحل] ليكون ذلك مبالغة في التسلي، وجاء في النمل على القياس لأن الحزن هناك دون الحزن هنا والله أعلم^(١).

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿... فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ...﴾ ﴿٢٦٧﴾ [هود].

وقوله ﴿... فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ...﴾ ﴿٢٦٨﴾ [السجدة].

فقال في الآية الأولى: (فلا تك في مرية) بحذف نون تكن. وقال في الثانية: (فلا تكن في مرية) بذكرها وذلك أن السياق في الآيتين مختلف، فقد قال في الآية الأولى: ﴿أَفَنُكِّنَ كَانَ عَلَٰنٍ يَّنْفَرُونَ مِنْ رَبِّهِمْ. فَتَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ ثُومًا ۖ إِنَّمَا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَن يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلَا تُرْمَعُذُمُ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٦٧﴾ [هود].

وقال في الثانية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٦٨﴾ [السجدة].

فإن الآية الأولى تثبيت للرسول ونهي له عن الريب والمرية، فقد بدأ الكلام بقوله: إنه كان على بينة من ربه، ثم يتلوه شاهد منه، ثم قبله كتاب موسى، وختمه بقوله: (إنه الحق من ربك) فناسب ذلك أن يقال: (فلا تك في مرية منه) بخلاف الآية الأخرى فإنها ليس فيها مثل هذه الدواعي كما ترى.

ثم إن الكلام في الآية الأولى على القرآن الكريم وعلى قوم الرسول وتهديد من يكفر به، والكلام في الثانية على التوراة وبني إسرائيل.

فناسب الحذف في الآية الأولى دون الثانية تثبيتاً للرسول ونهياً له عن الريبة فيه، وذلك أنه طلب منه أن لا يكون في شيء من المرية أصلاً. فلما كان الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف هاهنا دون الثانية.

(١) البرهان ٢٨١-٢٨٣.

وجاء في (البرهان) للزركشي أن حذف النون في نحو هذا قد يكون تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل: ﴿أَتَرْكُ نُظْفَةً﴾ [القيامة] حذفت النون تنبيهاً على مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه ثم يترقى في أطوار التكوين: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس] فهو حين كان نظفة كان ناقص الكون ...

وكذلك ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُحْدِثْهَا﴾ [النساء] حذفت النون تنبيهاً على أنها وإن كانت صغيرة المقدار حقيرة في الاعتبار فإن إليه ترتيبها وتضاعفها، ومثلها: ﴿يَتَّبِعُ إِنَّمَا إِنْ تَكُ شَقَالًا حَقْوَمِنْ خَرَدَلٍ﴾ [لقمان] وكذلك ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ [غافر] جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل من مبدأ فيه، وهو الحس إلى العقل إلى الذكر، ورفقهم من أخفض رتبة وهي الجهل إلى أرفع درجة في العلم وهي اليقين، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَّبِعُ تَتْلُ عَلَيْنَا﴾ [المؤمنون] فإن كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه وتم. وكذلك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضًا لَّاهِبَةً فَتَهَارُوا فِيهَا﴾ [النساء] هذا قد تم تكوينه ... وكذلك ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِسْتِنْسَاهُمْ﴾ [غافر] انتفى عن إيمانهم مبدأ الانتفاع وأقله ما انتفى أصله^(١).

ومن ذلك ذكر ياء المتكلم أو حذفها والاجتزاء بالكسرة، وإن لم تكن ياء المتكلم من الحروف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود]

فقد حذف الياء واجتزأ بالكسرة في الأعراف فقال: (ثم كيدون) وذكرها في هود فقال: (فكيدوني).

(١) البرهان ٤٠٧/١ - ٤٠٨.

ويمكن هنا أن نذكر أصلاً عاماً في ذكر الباء وحذفها وهو:

أن الاجتزاء بالكسرة عن الباء يختلف عن ذكر الباء في كل ما ورد في القرآن الكريم عدا خواتم الآي والنداء، ولها في كل ذلك خط عام إضافة إلى السياق الخاص، ففي كل موطن ذكر الباء فيه يكون المقام مقام إطالة وتفصيل في الكلام، بخلاف الاجتزاء بالكسرة فإن فيه اجتزاء في الكلام.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الباء تتردد مظهرة في المواطن التي تذكر فيها الباء أكثر من المواطن التي يجتزأ بالكسرة عنها.

وقد تتردد الكلمة ذات الباء المظهرة في السورة أكثر من تردد الكلمة ذات الباء المجتزأة في موطنها.

هذا علاوة على السياق الخاص الذي يقتضي الذكر والحذف كما سنبين، ونعود إلى الآيتين اللتين ذكرناهما، فإن المقام في هود مقام تحد كبير ومواجهة، فأظهر نفسه زيادة في التحدي، إذ المتحدي وطالب المواجهة لا بد أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه ليس فيها هذا التحدي، يدل على ذلك سياق كل من الآيتين فقد قال في الأعراف:

﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ قَدْ دَعَوْهُمْ فَلَيْسَ تَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ ۝ أَلَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِهَا أَمْ لَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِهَا أَمْ لَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِهَا أَمْ لَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِهَا أَمْ لَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِهَا ۝ أَلَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِهَا أَمْ لَمْ أَنْزِلْ بِمَشُونِهَا ۝﴾ [الأعراف].

وأما هود فالمقام فيها مختلف فقد دعاهم هود إلى عبادة الله وحده وترك ما عداه فقال لهم: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ لِمُفْتَرُونَ ۝﴾ [هود] ونصح لهم بالتوبة والاستغفار ليرضى عنهم خالقهم ويزيدهم من فضله فرفضوا قوله وردوا عليه قائلين: ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [هود] إن نقول إلا أَعَزُّكَ بِمَعْزِلِ هَارُونَ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءًا مِمَّا تَشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَيْعًا ثُمَّ لَا تُظْهِرُونِ ۝﴾ [هود].

فهم لم يكتفوا برّد دعوته وعدم التصديق به، بل قالوا له: إن بعض آلهتهم اعترأ بسوء مما جعله يتحداهم ويتحدى آلهتهم، فأشهد الله وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، ثم دعاهم جميعاً إلى كيدهم له ثم لا يمهّلونه إن استطاعوا. فزاد كلمة: (جميعاً) زيادة في التحدي رداً على قولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا يَسُوءُ﴾ [هود].

إنهم قالوا له: إن أحد آلهتهم اعترأ بسوء، فتحدى الجميع ثم أظهر نفسه، فذكر الياء زيادة في التحدي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن التحدي والمواجهة في هود أطول وأكثر مما في الأعراف (انظر الآيات ٥٠-٥٨) فذكر الياء في هود لأن الياء أطول من الكسرة. وحذف الضمير واجتزأ بالكسرة في الأعراف، فناسب بين طول الكلمة والسياق، فجعل الكلمة الطويلة للسياق الطويل والكلمة المجتزأة للسياق المجتزأ. ومن ناحية أخرى نرى أنه قد تردد ذكر ياء الضمير في هود في هذا الموطن مرات عديدة وليس الأمر كذلك في الأعراف فقد قال: (إني أشهد الله) و (اشهدوا أني بريء) (فكيدوني جميعاً) (إني توكلت على الله ربي وربكم) (إن ربي على صراط مستقيم) و (يستخلف ربي قوماً غيركم) (إن ربي على كل شيء حفيظ).

وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه لم يظهر الياء في السياق إلا مرة واحدة وهو قوله: (إن وليي الله).

فناسب ذكر الياء ما ورد في هود، وناسب الاجتزاء بالكسرة سياق ما ورد في الأعراف.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال في آية الأعراف: (ثم كيدون فلا تنظرون) فأدخل (ثم) على الكيد والفاء على الإنظار. وفي هود بالعكس أدخل الفاء على الكيد و (ثم) على الإنظار. والفاء تفيد التعقيب أما (ثم) فتفيد التراخي. فقد طلب منهم في الأعراف عدم المهلة في الإنظار. وعدم الإنظار هو المناسب لسياق الأعراف، فقد ذكر في هذه السورة تعجيل العقوبات لمستحقها في الدنيا، بخلاف سورة هود فإن سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات.

فقد بدأت الأعراف بقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فُجَاءَةً مَا بَأْسُنَا بَيْنَهُمَا أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ﴾ [الأعراف] فذكر حلول العقوبات وإهلاك الأمم، في حين قال في هود: ﴿وَأَنْ أَسْتَفْهِرُوا بِزَكْرَتِهِمْ ثُبُونًا إِلَيْهِ يَتَّبِعَكُمْ مُنْتَفِخِينَ حَسَنًا إِنَّ أَجَلَ مُتْسَيٍّ وَرُبُّهُ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَسَلِّمْهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود] فذكر التمتع والإمهال.

وقال في هود أيضاً: ﴿وَلَكِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَتَمُّ مَعْدُودٍ لِيَقُولُوا مَا يَجِبُ لَهُمْ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود] فذكر تأخير العذاب إلى أجل وهو الإمهال.

وقال في الأعراف: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلِهَاتُنَا الْهَزْأَ وَالسُّرْبَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف] فقال: (فأخذناهم بغتة) بعد قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة)، وهو نظير قوله: (ثم كيدون فلا تنظرون). فالاستدراج المذكور في الآية وهو قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة...) نظير الكيد في قوله: (ثم كيدون) معنى واستعمالاً فكلاهما بـثم وكلاهما إمهال.

وقوله: (فأخذناهم بغتة) نظير قوله: (فلا تنظرون) فكلاهما بالفاء وكلاهما عدم إنظار.

فانظر إلى التناظر الجميل بين الآيتين.

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ ﴿فأخذناهم بغتة﴾.

﴿ثم كيدون﴾ ﴿فلا تنظرون﴾.

ثم انظر إلى القصص في السورتين تر الفرق واضحاً بين السياقين. فانظر إلى قصة نوح في الأعراف فهي موجزة، وظاهر فيها عدم الإمهال فقد قال لهم نبيهم: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْصَحُكُمْ وَلْيَنْفَعُوا وَلَهُمْ زُجُجُونَ﴾ [الأعراف] وبعدها قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلَيْنِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبِينَ﴾ [الأعراف].

فجاء بالفاء دالاً على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار (فكذبوه فأنجيناه).

أما في هود فالكلام طويل وهناك مهلة حتى استبطؤوا ما وعدهم به: ﴿ قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جِئْنَا فَاكْثُرَتْ جِدَانَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود] قَالَ إِنَّمَا بِأَيْمِكُمْ يَدُ اللَّهِ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعِينَ ﴿ [هود].

وكذلك قصة عاد فقد قال في خاتمتها في الأعراف: ﴿ فَأَجْبَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ يَرْجِعُوا مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف].

وقال في هود: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود] وَقَالَ عَادٌ جَعَدُوا بِكَائِبَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿ وَأَتُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الرَّسْمِ أَلاَ إِنَّا كَذَّبْنَا وَارْتَبْنَا آلَا بَدَا لَعْنًا قَوْمُ هُودٍ ﴾ [هود].

فانظر كيف عجل العقوبة لهم في الأعراف فجاء بالفاء الدالة على عدم الإمهال، بخلاف ما في سورة هود.

وكذا قصة صالح فقد قال في نهايتها في الأعراف: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَائِرِهِمْ جُنُودًا ﴾ [الأعراف].

وقال في هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ يَوْمٍ مُّهِمٍّ إِنَّ رِجْكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْمَرِيرُ ﴾ [هود] وَلَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَضْبَحُوا فِي دَائِرِهِمْ جُنُودًا ﴾ [هود].

فذكر إنزال العقوبة بالفاء في الأعراف: (فأخذتهم الرجفة) وقال في هود: (وأخذ الذين ظلموا الصيحة).

وهكذا، فأنت ترى أن سياق الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار: بخلاف السياق في سورة هود. ولذا كان الأليق أن يأتي بالفاء مع عدم الإنظار في الأعراف فيقول: (فلا تنظرون) وأن يأتي بـ (ثم) معه في هود فيقول: (ثم لا تنظرون).

وهناك أمر فني آخر، وهو أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في الأعراف قدم (ثم) على الفاء، ومنها الآية المذكورة وفي هود بالعكس. فقد قال في الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ إِلَهُنَا الْعَذَابَ وَالشَّرَّهَ وَالنَّارَ
فَلَاخَذْتَهُمْ بِقُنًى وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف]
وقال: ﴿ثُمَّ كِيدُوا فَلَاحِظُوا فِتْنَةَ﴾ [الأعراف].

وقال في هود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾
وقال: ﴿فَاسْتَفِرُّوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾

فما أجمل هذا التناسق وما أجلُّ هذا الكلام

ومن ذلك: أي ذكر ياء المتكلم أو حذفها قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لِقُرْبٍ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ بِلِقَاءِ رَبِّكَ قَالَ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْبَيْتِ﴾ [القصص].

فإنه حذف ياء الضمير واجتزأ بالكسرة في (الكهف) فقال: (يهدين)، وأبرز الضمير في القصص فقال: (يهديني) وذلك أن المقام يستدعي إبراز ياء المتكلم، لأنه مقام التجاء وخوف وخشية. والخوف يستدعي أن يلصق الإنسان بمن يحميه ويلقي بنفسه كلها عليه، ويستدعي أن يلتجئ إلى من ينصره ويأخذ بيده بكل أحاسيسه ومشاعره إلتجاء كاملاً، وهذا هو الموقف الأول، فقد خرج موسى خائفاً يترقب فاراً من بطش فرعون، فالتجأ إلى ربه التجاء الخائف الوجل طالباً منه أن يهديه سواء السبيل، ولذا أظهر الياء دلالة على كمال الالتجاء وإلقاء النفس كلها أمام خالقه، بخلاف ما في الكهف فإنه ليس المقام كذلك فإنه قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [١٣١] ﴿لَا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا فَسَيْتٌ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِقُرْبٍ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [١٣٢] [الكهف].

فالفرق كبير بين المقامين، فمقام موسى في القصص يستدعي إلقاء النفس كلها أمام ربه وخالقه. ولما كان الخائف الضعيف يطلب أولاً من يحميه ويلتجئ إلى ربه قدم (الرب) على فعل الهداية لأنه هو الملجأ فقال ﴿عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْبَيْتِ﴾ [١٣٣] [القصص].

بخلاف ما في الكهف فإن المقام فيها مقام ذكر القول الحق فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تباينت فيه الآراء، وهذا أمر يحتاج إلى الهداية والرشد، فقدم الهداية وهذا من دقيق الاستعمال.

ثم لننظر من ناحية أخرى فإن ياء الضمير تكرر في (القصص) أكثر مما في الكهف فناسب ذكر الياء في القصص.

ثم إن لفظ الهداية تكرر في القصص اثنتي عشرة مرة. أما في الكهف فقد تردد خمس مرات، فزاد اللفظ في القصص لما زاد تردده. وهذا الأمر مراعى في القرآن الكريم كما ذكرت. ألا ترى كيف قال الله تعالى في سورة الأعراف ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [١٧٧] بإثبات الياء، في حين قال في سورة الإسراء: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [١٧٨] وفي سورة الكهف: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [١٧٩]. بالاجتزاء بالكسرة فيهما، وذلك أن لفظ الهداية تردد في سورة الأعراف أكثر مما تردد في سورتي الإسراء والكهف مجتمعين. فقد ورد في الأعراف سبع عشرة مرة، في حين ورد في الإسراء ثماني مرات وفي الكهف ست مرات، فلما زادت ألفاظ الهداية في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ: (المهتدي) على ما في السورتين.

وقال: ﴿لَيْنَ لُحْرِتَيْنِ إِنْ يَوْرَ الْيَمْنَةِ﴾ [الإسراء] بالاجتزاء بالكسرة.

وقال: ﴿لَوْلَا لُحْرَتَيْنِ إِلَ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون]، فذكر الياء. وذلك أنه تردد فعل التأخير مرتين في سورة (المنافقون) في حين ذكر مرة واحدة في سورة (الإسراء) فزاد في موطن الزيادة وحذف في موطن الاجتزاء.

ونعود إلى آيتي الهداية في القصص والكهف، فنقول علاوة على ما مر: إن مقام التبسط والتطويل في (القصص) في قصة موسى أكثر بكثير مما ورد في (الكهف)، فإن المقام في (الكهف) مقام إيجاز جاء عرضاً في أثناء قصة أصحاب الكهف. فلما طوّل الكلام وتبسط طول الفعل بذكر الضمير في (القصص)، ولما اجتزأ القول في (الكهف) اجتزأ بذكر الكسرة عن الضمير، وهو نظير ما سبق ذكره في الآيتين السابقتين.

ومما حسن الحذف في الكهف علاوة على ما ذكرنا حذفه الياء من لفظ الهداية في موضع آخر من السورة، واجتزأه بالكسرة، وذلك هو قوله تعالى:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ [الكهف] هذا علاوة على حذف الباء في مواطن أخرى متعددة من هذه السورة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ كَرِهْنَا أَوْلَىٰ مِنْكَ مَا لَكَ وَلَدٌ﴾ [الكهف] بحذف الباء من (ترني) وقوله: ﴿فَمَسَىٰ رِجْلَهُ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف] بحذف الباء من (يؤتيني) وقوله: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُلَمِّنَ مِنَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف] بحذف الباء من (تعلمني) وقوله: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ﴾ [الكهف] بحذف الباء من (نبغي).

فانظر كيف تعاضد المعنى والسياق والألفاظ والإحصاء على وضع كل لفظة في موضعها. ومن هذا النوع من الذكر والحذف قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة] وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [المائدة] وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَاسَ وَاخْشَوْنِي﴾ [المائدة].

فذكر الباء في (اخشوني) في آية البقرة، وحذفها واجتزأ بالكسرة في آتي المائدة، وذلك أن السياق في البقرة يستدعي تحذير المسلمين من خشية الناس وعدم الالتفات إلى أراجيفهم، كما يستدعي توجيههم إلى مراقبة الله تعالى وخشيته أكثر بكثير مما في المواطنين الآخرين، وذلك أن السياق في البقرة في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغيير وأكثروا القول فيه، فاستدعى ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله أو خشيتهم، وإنما عليهم أن يخشوا الله وحده فأبرز الضمير العائد على الله فقال: (فلا تخشوهم واخلشوني). فقد بدأت الآيات بقوله: ﴿سَيَقُولُ الشُّعْرَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ مِنْ دِينِهِمْ آلِي كَاوُأَعَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة].

إلى أن يقول:

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَيْهِ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة] فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

يُظْهِرُ وَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِذَا يَضَعُوا
عَلَيْكُمْ أَلْقَامَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ [البقرة].

في حين كان سياق الآية الثانية يختلف عن ذلك، فهو يدور على ذكر
المحرمات من الأطعمة . قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتُهُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ
الْخِنْزِيرِ ﴾ [المائدة] ثم قال: ﴿ الْيَوْمَ نَبِّئُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة] فالكفار ياتسون من محاربة الإسلام بعد أن أظهره الله
وأعلى كلمته .

فالمحاربة في الموقف الأول ومظنة خشية الناس أكبر، بخلاف آية المائدة
التي أنزلت بعدما أظهر الله دينه .

وكذا الأمر في الآية الأخرى وهي الآية ٤٤ من سورة المائدة، فإنه ليس
فيها ما يستدعي الخشية من الناس، وليس فيها إرجاف ولا محاربة . قال تعالى:
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورًا يُخَيِّرُكُمْ بَيْنَ النَّيْتِ وَالَّذِينَ آسَلُمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبَانُونَ
وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ
وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة].

فأنت ترى أن سياق آية البقرة وما فيها من خصومة ومحاجة ومحاربة
يستدعي جانباً كبيراً من الخشية، فأظهر الله نفسه طلباً لمراقبته وخشيته وعدم
الاكتراث بأقوال المرجفين، بخلاف ما في الآيتين الآخرين .

ثم انظر طول السياق وتكراره في سورة البقرة فقد بدأ بقوله:

﴿ سَيَقُولُ الشُّعْبَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ مِنْ قِبَلِكُمْ آلِي كَاؤُا عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ
وَلَنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ [البقرة]

فذكر أن تغيير القبلة كبير عند الناس .

ثم ذكر بعدها : ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاةِ فَلَتَوَلَّى بَنَاتَكَ مِنْهُمَا فَذَكَرَ الْبَقَرَةَ ﴾ [البقرة]

ثم أخبر أن الذين أوتوا الكتاب لا يتبعون قبلة الرسول مهما جاءهم بالبينات فقال : ﴿ وَلَكِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِئَتَكُمْ ﴾ [البقرة] وهكذا .

فانت ترى أنه أطال القول ههنا، فكان المناسب أن يطيل بذكر الضمير أيضاً . وهو المناسب لإطالة السياق بخلاف ما في الآيتين الآخرين .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه أبرز الضمير (الياء) في سياق آية البقرة أكثر مما في الموطنين الآخرين من مثل قوله : (واخشوني) و : (ولا تم نعمتي) (فاذكروني) (واشكروا لي) وغيرها .

فناسب كل ذلك ذكر الياء في آية البقرة بخلاف آيتي المائدة .

وهذا كما ترى نظير ما مر من ذكر الياء وحذفها آنفاً .

وشبيه بهذا الذكر والحذف وليس منه قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقٌ لَوْ كُنَّ ءَامِنَاتٍ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِلَى مَا تُسَلِّطُونَ عَلَى الْإِنْعَامِ ﴾ [الأنعام] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى حُسْنٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١١] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُمْ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ يَنْشَعُرُوا لَنَا أَوْ تُرَدُّ فَعْمَلٌ خَيْرٌ الْوَيْ كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [١٢] [الأعراف] .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ [١٣] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُقَدَّرٍ يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِيئَةٍ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴾ [١٤] [هود]

فحذف الياء من (يأت)، واجتزأ بالكسرة في آية هود دون الآيتين السابقتين . ولهذا الحذف سببه . فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تعجل الذين

كفروا للعذاب. كما تردد الوعد بقرب نزوله فقد قال: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَيْنَا أَنتُمْ مَعْدُودُونَ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ ﴿٨٦﴾ [هود].

وقال قوم نوح: ﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ عَلَيْنَا فَأِنَّا يَمِثُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [هود].

وقال صالح لقومه: ﴿وَلَا تَمْسُوهُا بِأَسْوَىٰ قِيَاسٍ قَدْ دَخَلُوا عَذَابَ قَيْهٍ ۖ فَمَقْرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ فَلَمَّا أَتَاهُ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ ﴿٨٨﴾ [هود].

وقال في قوم لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٨٩﴾ [هود].

وقال في موطن آخر: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٩٠﴾ [هود].

فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله، فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعاراً بقرب حلوله.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة (هود) عقاب الأمم السابقة وهلاكهم، ثم ذكر أن يوم القيامة آتٍ وأنه سيحل فيه عقاب الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة، وإن هو إلا أجل معدود فيحل. فحذف الباء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان، وليس الأمر كذلك في الآيات الأخرى.

هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كل من (الأنعام) و(الأعراف) أربعاً وعشرين مرة وفي (هود) ثلاث عشرة مرة، فلما كثّر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثّر البناء، ولما قلّ تردده في هود قلل من البناء. وهو نظير ما في (المهتد) و(المهتدي) وغيرها مما سبق ذكره.

ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنه لما منع الكلام في آية هود إلا بإذنه، حذف من الكلام فحذف الياء من (يأتي) وحذف التاء من فعل التكلم فقال: (تكلّم) ولم يقل: (تتكلم) إشعاراً بقلّة الكلام في ذلك الوقت. وهذا مما يدعو إلى العجب.

ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَبْتَلُونَ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف].

فقال في أصحاب الجنة: (ما وعدنا ربنا حقاً) وقال في الكافرين: (ما وعد ربكم حقاً) ولم يقل: (ما وعدكم) وذلك أن الكافرين كانوا منكروين لأصل الوعد والوعيد، وليسوا منكروين لما وعدهم به فقط، فكأنه قال: هل وجدتم وعد ربكم حقاً؟ بخلاف المؤمنين فإنهم كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة فقال: (وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة (وعدنا) عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم، فأطلق لذلك»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَوْلٌ عَنْهُمْ حَقٌّ جِبِينٌ﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْعِرُونَ ﴿١٧٧﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿وَقَوْلٌ عَنْهُمْ حَقٌّ جِبِينٌ﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْعِرُونَ ﴿١٧٧﴾ [الصافات] فذكر الضمير في: (أبصرهم) الأولى وحذفه من الثانية فقال: (وأبصر).

قالوا: وسبب ذلك أن الأولى كانت بسبب نزول العذاب بهم يوم بدر وما حلّ بهم من قتل وأسر، فلما تضمنت المعركة ما تضمنت من قتل صناديد قريش وأسرهم وشفاء صدور المؤمنين قال: (وأبصرهم).

وأما الثانية فكانت في يوم فتح مكة وليس فيه قتل ولا أسر وإنما هو هداية ورحمة، ثم إن فتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب ولذا أطلق فقال: (وأبصر) لأنه ليس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر. فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل

(١) الكشاف ٥٤٩/١.

مكة وقد حل عليهم العذاب وحدهم قال: (أبصرهم)، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق فقال: (وأبصر). جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين: «ومن فوائد قوله تعالى في الأولين: (وأبصرهم) وفي هاتين: (فأبصر) أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلاً وأسراً وهزيمة ورعباً. فلما تضمنت التشفي بهم قيل له: (أبصرهم).

وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في إستسلامهم لعينه قرّة ولقلبه مسرة ف قيل له: (أبصر)»^(١).

ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس].

فحذف (به) من آية الأعراف، بخلاف آية يونس، وذلك أن الإطلاق هو سياق الأعراف، والتخصيص هو سياق سورة يونس، فقد جاء قبل آية الأعراف قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا لِيَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف].

فأطلق التكذيب ولم يذكر بما كذبوا، وهو نظير الإطلاق في الآية التي بعدها: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ولم يذكر بماذا كذبوا.

في حين أن السياق في يونس سياق الذكر لا الإطلاق، فقد جاء قبل الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس] وهو نظير الذكر في الآية التي بعدها (بما كذبوا به).

فانظر كيف قال في الأعراف: (ولكن كذبوا فأخذناهم) وقال: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) فلم يذكر بماذا كذبوا.

(١) البرهان ٣/ ٢٣.

وانظر كيف قال في يونس: (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) ثم قال بعدها: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) فذكر بماذا كذبوا في الموطنين، فاستدعى كل سياق ما ورد من ذكر وحذف.

ثم انظر السياق بعد كل من الآيتين فقد قال في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ قُرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ﴾ [الأعراف].

وقال في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ قُرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ بِآيَاتِنَا﴾ [يونس]. فذكر في الأعراف أنه بعث موسى. وفي يونس ذكر أنه بعث موسى وهرون فزاد ذكر (هرون). فانظر كيف لما زاد (به) في الآية الرابعة والسبعين وزاد (بآياتنا) في الآية الثالثة والسبعين زاد (هرون) في السياق. فأية دقة هذه؟ وأي فن هذا أيها الناس؟!

جاء في (البرهان) للكرماني أنه ذكر في يونس: (بما كذبوا به) «لأن أول القصة في هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْعَةِ آمَنُوا﴾» [الأعراف]. وفي الآية: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾» وليس بعدها الباء فختم القصة بمثل ما بدأ به.

وكذلك في يونس وافق ما قبله وهو: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ لِمَا يُرِيدُ﴾ [يونس] (كذبوا بآياتنا) فختم بمثل ذلك فقال: (بما كذبوا به) «(١)».

ومن طريف الذكر والحذف في القرآن الكريم ذكر الاسم الموصول وحذفه، فقد ذكر القرآن الكريم الاسم الموصول في مواطن، وحذفه في مواطن أخرى، فقد قال مرة: ﴿لَمْ يَكُنِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [طه] بتكرير الاسم الموصول. وقال مرة أخرى: ﴿لَمْ يَكُنِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة] فلم يكرره. وقال مرة أخرى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [العنكبوت].

وقال مرة: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر] وقال مرة أخرى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد].

(١) البرهان للكرماني ١٨٨-١٨٩ وأنظر درة التنزيل ١٦٥-١٦٦.

وهذا يقتضينا المساواة عن سبب ذكر ما ذكر وحذف ما حذف، إذ من المعلوم أنه لا بد في الكلام البليغ من سبب للذكر والحذف، وخصوصاً في القرآن الكريم الذي هو أعلى الكلام.

لقد ذكر بعضهم أنه تأمل ما في التنزيل العزيز من قوله تعالى: (من في السماوات والأرض) و: (من في السماوات ومن في الأرض) وقوله: (ما في السماوات والأرض) وقوله: (ما في السماوات وما في الأرض) فوجد أنه حيث قصد التنصيص على الأفراد ذكر الموصول والظرف، ألا ترى إلى المقصود في سورة يونس^(١) من نفي الشركاء الذين اتخذوهم في الأرض، وإلى المقصود في آية الكرسي^(٢) من إحاطة الملك.

وحيث قصد أمر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس والإهتمام بما هو المقصود في تلك الآية. ألا ترى في سورة الرحمن^(٣) المقصود منها علو قدرة الله تعالى وعلمه وشأنه وكونه مسؤولاً ولم يقصد السائلين^(٤).

وهذا صحيح فإنه إذا قصد التنصيص على الأفراد، ذكر الموصول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر] فهنا قصد التنصيص على كل فرد من أفراد السماوات والأرض على وجه التخصيص فكرر (من) لذلك. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَقَرَّجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل].

غير أن هذا واحد من الأسباب التي تدعو إلى تكرار الاسم الموصول وليس هو السبب الوحيد. وهناك أسباب أخرى للتكرار منها:

- (١) يعني قوله تعالى ﴿إِلَّا إِيَّاكَ يَوْمَئِذٍ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَشْعُرُ﴾ [البقرة] يدعون من دُورِ أَهْوَى شَكَاةٍ إِنْ يَخْمُوتُ إِلَّا الظُّلَمُ وَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِضُونَ ﴿٥٦﴾ [يونس].
- (٢) يعني قوله تعالى ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [البقرة].
- (٣) يعني قوله تعالى ﴿يَسْتَلْزِمُنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن].
- (٤) البرهان ٧٣-٧٤.

أنه إذا كان الموطن دالاً على التفصيل والإحاطة كرر الاسم الموصول، بخلاف ما إذا كان الكلام مجملاً غير مفصل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْأَلُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا يَحِثُّ عَلَيْهِمْ إِلَّا هُوَ سَاءَ مَا يَحْكُمُ وَلَا أدْنُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ كَانُوا تُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة].

فكرر (ما) قائلاً: (يعلم ما في السماوات وما في الأرض) وذلك لأن الموطن موطن إحاطة وتفصيل، بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ كَوْنُوا لِلَّهِ بَنِينَ وَسِعَ كُفُّهُمُ يَدًا يَلْعَنُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت] فلم يكرر (ما).

وأنت تحس الفرق واضحاً بين الموطنين والسياقين، فإن في آية المجادلة من ذكر لسعة علم الله وشموله وإحاطته بالجزئيات والتفصيلات ما ليس في آية العنكبوت، فقد ذكر في آية المجادلة أنه لا يند عنه شيء ولا يغيب عنه مجلس قل أو كثر، ثم يبنى الله أهله بكل ما قالوا وما تناجوا به، أحصاه الله ونسوه وهو بكل شيء عليم. فانت ترى في آية المجادلة من التفصيل ما ليس في آية العنكبوت. فلما فصل في آية المجادلة أعاد ذكر (ما) ولما أجمل في العنكبوت أجمل في ذكر الموصول فلم يعد ذكره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه] فكرر (ما) لأن الموطن موطن شمول وإحاطة وتفصيل، فقد ذكر أن له (ما في السماوات) و (ما في الأرض) و (ما بينهما) و (ما تحت الثرى) بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل] فانت ترى الفرق واضحاً بين السياقين في التفصيل والإحاطة، فكرر في موطن التفصيل وأجمل في موطن الإجمال.

ونحوه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَبِيرُ﴾ ﴿١٠٠﴾ يَلْمِ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَصْعَدُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿١٠١﴾﴾ [سبا].

فالتفصيل في هاتين الآيتين واضح، ولذا كرر الاسم الموصول بخلاف قوله
تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَدِيتُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾
[البقرة].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَيَطْلُبُ لَهُمْ
بِالْقُدْرَةِ وَالْإِكْمَالِ﴾ ﴿١٠٣﴾﴾ [الرعد] فلم يكرر الموصول في حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَسْجُدُ لَمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْبَاءُ
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿١٠٤﴾﴾ [الحج].

فكرر (من) ههنا بخلاف الآية الأولى. ومقام التفصيل واضح في آية
الحج، فقد ذكر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثيراً من
الناس بخلاف آية الرعد. ففي مقام التفصيل كرر وفصل وفي مقام الإجمال
أجمل وأوجز.

وقد يكون إعادة ذكر الموصول لأمر آخر وهو ذكر أمر يتعلق بصلته، فمن
الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا كرر الاسم الموصول فقال: (ما في السماوات
وما في الأرض) فإنه يريد أن يخص أهل الأرض بذكر أمر من الأمور، وإذا لم
يكرر (ما) فإنه لا يريد أن يذكرهم بأمر خاص بهم. ويتضح هذا في آيات التسييح
خاصة نحو قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿١٠٥﴾﴾ [الحديد] و ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿١٠٦﴾﴾ [الحشر].

فحيث كرر (ما) في آيات التسييح فإنه ذكر أهل الأرض بعدها، وحيث
أجمل لم يذكرهم. وإليك أمثلة على ذلك:

قال تعالى في (سورة الحديد): ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٠٧﴾
لَمْ تَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ نِيْمَةً وَوُضِعَ الْكَوْكَبُ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٨﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿١١٠﴾﴾ [الحديد].

وقال في (سورة الحشر): ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴿١﴾ [الحشر].

فأنت ترى أنه في آيات الحديد لم يعقب التسييح بالكلام على أهل الأرض، بخلاف آية الحشر فقد قال بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ويستمر في ذكر أحوالهم.

ويدلك على ذلك أنه في آخر سورة الحشر لم يكرر (ما) حين لم يذكر شيئاً عن أهل الأرض بعد الآية، فقد قال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاءُ الْبَارئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٢ [الحشر]. فكرر في أول السورة وأجمل في آخرها لما ذكرناه والله أعلم.

ونحوه ما جاء في سورة الصف، قال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصَةٌ ﴿٥﴾ [الصف].

ويعضي في الكلام على أهل الأرض فكرر (ما) لأنه خص أهل الأرض بعدها بالذكر، ونحوه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَامِلِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ٦ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا فَهُمْ يَشَارِعُونَ عَلَيْهِمْ أَيْنِيْزُهُمْ وَبِرَّكِيْهِمْ وَعِلْمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْ سَكَلِي ثَبِيْنِ ﴿٧﴾ وَآخَرِيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ [الجمعة]. ويعضي في الكلام على أهل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٩ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنَحْشٍ وَكُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُتًا ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ يَتَعَمَّلُونَ بِهِ ﴿١١﴾ [التغابن]. ويعضي في الكلام على أهل الأرض.

فكل موطن كرر فيه (ما) أعقبه بالكلام على أهل الأرض. في حين قال في سورة النور: ﴿أَلَمْ نَرَأَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ١٢ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴿١٣﴾ أَلَمْ نَرَأَنَّ اللَّهَ يُرْسِي سَوَابِقَهُمْ فِي الْبَيْتِ... ﴿١٤﴾ يَلْبَسُ اللَّهُ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ... ﴿١٥﴾ [النور].

فلم يكرر (من) إذ لم يعقب التسيح بالكلام على أهل الأرض^(١). ونكتفي بهذه النماذج وإلا فإن الأمر يطول ويطول.

ثم نأتي إلى القسم الثاني: وهو ما ذكر في موطن ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف لنرى كيف يكون الكلام المعجز، لنرى كيف تكون الصياغة العجيبة في فن القول والتعبير. لنرى الكلام الذي قالت فيه الجن حين سمعته: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا لَعَنَ اللَّهُ ۖ﴾ [الجن].

القسم الثاني:

وهو أن يذكر في موطن ما لا يذكره في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف، وإنما هو قد يزيد لفظاً أو أكثر مراعاة لما يقتضيه السياق أو يستدعيه المقام.

فقد يزيد حرفاً في مكان ولا يذكره في مكان آخر حسبما يقتضيه موطن الكلام. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمَكَكُمْ وَأَصْنَعَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ قَنْ لَّهُ عِزُّ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ يُوْا نَظَرُ ۚ كَيْفَ تُصِرُّونَ ۚ أَلَا يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ يَصِدُّونَ ۚ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً أَوْ جَهَنَّةَ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ۚ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه قال مرة: (أرأيتم) ومرة أخرى: (أرأيتمكم) بزيادة الكاف. وهذه الزيادة إنما تكون لغرض توكيد الخطاب، وذلك كان يكون المخاطب غافلاً أو يكون الأمر يوجب زيادة التنبيه. وإنما فرق بين الخطابين ههنا لسببين والله أعلم:

(١) انظر: معاني النحو - الاسم الموصول.

الأول: أنه قال في الآية الأولى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ﴾ فاحتاجوا بعد إلى زيادة في التنبيه والخطاب، وذلك أَنْ فاقده السمع والبصر والمختموم على قلبه به حاجة إلى زيادة خطاب وتنبيه أكثر من السَّوِيّ فقال فيما بعد: (أرايتكم).

والسبب الثاني: أن الآية الثانية أشد من الآية الأولى تنكيلاً وعذاباً، فإن فيها عذاب الله الذي هو أشد من أخذ السمع والبصر، فاحتاج الموقف إلى تنبيه أكثر وزيادة حذر وحيطة فجاء بكاف الخطاب.

وقد تقول: ولم قال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس] ولم يقل: (أرايتكم) كما قال في الآية السابقة، أو كما قال في آية أخرى من سورة الأنعام فقد قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرُ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام] والآيات متشابهة والموقف واحد؟

والحقيقة أن الموقف مختلف والسياق غير متفق. فإنه لا ينبغي أن ينظر إلى الآيات مجردة، بل تؤخذ في مواطنها وسياقها، وهكذا ينبغي أن ينظر إلى كل نص أدبي، فإن اللغة ليست جملاً مفردة بل هي مواقف ومواطن، وقد تصلح جملة في موطن ولا تصلح في موطن آخر.

واليك إيضاح الفرق بين الآيتين:

قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُبَدِّلُهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسْمُ اللَّهِ يُعَذِّبُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرُ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [الأنعام].

فأنت ترى أنه وصف الذين كذبوا بآيات الله بالصمم والبكم وأنهم في الظلمات فاحتاجوا إلى زيادة تنبيه وخطاب لسمعوا ولعبوا. وهذا شبيه بالموقف الذي سبق أن ذكرناه آنفاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ﴾ [الأنعام] بخلاف سورة يونس التي ليس فيها هذا الأمر. جاء في

(البرهان): « وأما رأيك فقد وقعت هذه اللفظة في سورة الأنعام في موضعين وغيرها وليس لها في العربية نظير، لأنه جمع فيها بين علامتي خطاب وهما التاء والكاف. والتاء اسم بخلاف الكاف، فإنها عند البصريين حرف يفيد الخطاب، والجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبيهاً (كذا) على مبناها عليه من مرتبة وهو ذكر الاستبعاد بالهلاك، وليس فيما سواها ما يدل على ذلك فاكتفى بخطاب واحد.

قال أبو جعفر بن الزبير: « الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المفيد لذلك تأكيد باستحكام غفلته، كما تحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان، ولهذا حذفت الكاف في آية يونس [٥٠] لأنه لم يتقدمها قبلها ذكر صمم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب، وقد تقدم قبلها قوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ [يونس].

إلى ما بعدهم فحصل تحريكهم وتنبيههم بما لم يبق بعد إلا التذكير بعذابهم انتهى^(١) ومثل هذا الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿ يَتَأَخَّلَفُ الْمُكَذِّبِينَ لِمَ تَعَايَرُونَ فِي إِزْهَامِهِمْ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هَكَذَا نَمَّ هَؤُلَاءِ حَتَّى جَعَلْتُمْ فِيكُمْ يَوْمَ عِلْمٍ فَلَوْلِمَ تَعَايَرُونَ فِي مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْشُرَ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ وَلَا تَحْتَوِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلَوْنَ أَنْفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَاتًا أَيسَارًا ﴾ يَسْتَعْفِفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَعْفِفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ هَكَذَا نَمَّ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجْنِدُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء].

فذكر (ها) التنبيه قبل الضمير وقبل اسم الإشارة في آية آل عمران: (ها أنتم هؤلاء) لأنه أراد أن يقرعهم ويزيد في تنبيههم ولومهم لأنهم جادلوا بالباطل وهم يعلمون، فكرر التنبيه مرة قبل الضمير ومرة قبل اسم الإشارة فقال: (ها

(١) البرهان ٤/ ١٥١-١٥٢.

أنتم هؤلاء حاجتكم)، وكذلك في آية النساء فقد كرر تنبيههم ولومهم ليتعظوا فلا يقفوا مثل هذا الموقف وأنت ترى أن الموقف يتطلب الزيادة في تنبيههم ووعظهم، بخلاف قوله تعالى مثلاً: (ها أنتم أولاء تحبونهم) فإن الموقف لا يحتاج إلى زيادة في التنبيه واللوم، فإنه خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا يَدَّتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَقْرَبِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿١١٧﴾ هَٰئِهِمْ أَوْلَاءُ حُبُّوهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ وَتُقَمُّونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَاوَا عَنْكُمْ عَلَيَكُمْ الْآثَانِيلُ مِنَ الْقَيْظِ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

فأنت ترى أن الموقف مختلف عما في الآيتين السابقتين، وهوليس موقف تقريع ولوم كما كان ثم.

وقد لا يحتاج الموقف إلى التنبيه فلا يذكره، وذلك نحو قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَصَيْتُ أَمْرًا رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه].

فلم يأت بالتنبيه لأنهم غير حاضرين.

فأنت ترى أن التنبيه أتى به في المكان المناسب بالقدر الذي يحتاج إليه. فقد يكرر أو لا يكرر أو لا يذكر التنبيه بحسب الحاجة إليه^(١).

ومن ذكر التنبيه وعدمه قوله تعالى:

﴿وَأَنْ يَتَّخِذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِي﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة].

فلم يجرى به (ها) التنبيه في الوطنين في حين قال:

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ هُوَ الْبَعْدُ ﴿١٢٩﴾﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ هُوَ الْبَعْدُ ﴿١٣٠﴾﴾ [الملك].

(١) انظر معاني النحو باب أسماء الإشارة.

فجاء بـ (ها) التنبيه. وسبب ذلك - والله أعلم - أن التحدي في الآيتين الأخيرتين أشد وأقوى، وهو واضح من السياق. فالآية الأولى خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمْتُم مِّنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَنَّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا تَعْمَلُوا مَنَ حَرَكَ فَاغَفَّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٦﴾ إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران].

وآية سورة المُلْك في الكلام على الكافرين وهو في سياق التخويف من قدرة الله وبطشه قال تعالى: ﴿أَمِئْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦٤﴾ أَمْ أَمِئْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٦٥﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٦٦﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ١٦٧﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَزُفُّكَ إِنْ أَمْسَكَ يَزْفُكُم بِكُلِّ جَبْوٍ إِنَّ عِتَابَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ ١٦٨﴾ [المُلْك].

فالسباق والجو مختلف في الآيتين، فالأولى مقام رحمة ومسح على جراح المؤمنين ومقام عفو ومغفرة بعد معركة أحد. وأما الثانية فمقام ترهيب وإنذار وتخويف وتحذير فجاء بـ (ها) التنبيه زيادة في التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام.

وقد تقول: ولم قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ [البقرة] من دون تنبيه في حين قال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾ [المُلْك] فذكر التنبيه، والمقامان متشابهان؟

والحق أن المقامين مختلفان وليسا متشابهين، وذلك أن آيات سورة المُلْك في خطاب الكافرين - كما ذكرنا - وليس كذلك سياق آية الكرسي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة، ومقام آية الملك مقام نصر ورزق، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر.

فقد قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ [البقرة] والشفيع طالب حاجة مرتجٍ قضاءها عالم بأن الأمر بيد من هو أعلى منه، فهو متلطف بسؤاله في

حين قال في سورة الملك: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُ دُونَ الرَّحْمَنِ...﴾ (١٠) **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقُكَ بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ** ﴿١١﴾ [المُلْك] وهذا كما ترى موقف نذ وليس موقف شفيع. فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن رزقه لا يكون إلا نذاً لله سبحانه، تعالى الله عن النذ، ولا يمكن أن يكون هذا لغير الله. ولذا سأل رب العزة قائلاً: من هذا الناصر الرازق من دوني؟ فزاد التنبيه. هذا علاوة على ما في هذا من السخرية من إله لا يعرفه رب العالمين ١١.

فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه، بخلاف آية البقرة. فما أعظم هذا الكلام وأجله!

ومن هذا الباب قوله تعالى في سورة الصافات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٤﴾ أَيُّكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٢٥﴾ فَمَا تَلَكَرِبَ رَبِّكَ التَّالِينَ﴾ [الصافات].

وقوله في سورة الشعراء على لسانه أيضاً: ﴿وَاتَّقِ عَلَيْهِمْ بَنَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ آبَاءَنَا مَا قَطَّلُوا مَا عَنَّا كَيْفَ﴾ [الشعراء].

فقال في الآية الأولى: (ماذا تعبدون) وقال في الثانية: (ما تعبدون).

وهناك فرق بين (ما) و (ماذا) في الاستفهام، فإن في (ماذا) قوة ومبالغة في الإستفهام ليست في (ما)، ففي قولك (ماذا فعلت؟) قوة ليست في (ما فعلت؟) ولعل ذلك يعود إلى زيادة حروفها. ويدل على ذلك الاستعمال القرآني^(١) ومن ذلك ما جاء في الآيتين اللتين ذكرناهما. فإنه إنما جاء في الآية الأولى بـ (ماذا) وفي الثانية بـ (ما) لأن الأولى في موقف تحدٍّ ظاهر ومجابهة قوية، بخلاف الثانية، يدل ذلك على السياق.

فإن المقام في الأولى ليس مقام استفهام وإنما هو مقام تقرير، ولذلك لم يجيئوه عن سؤاله بل مضى يقرعهم بقوله: ﴿أَيُّكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات].

(١) انظر كتابنا: (معاني النحو) باب الاستفهام.

وأما في الثانية فهو في مقام استفهام المحاجة إذ قال لهم: ما تعبدون؟

فأجابوه: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين.

فسألهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ ۖ أَوْ يَبْصُرُونَ﴾ [الشعراء].

فأجابوه قائلين: ﴿قَالُوا بَلْ يَسْمَعُونَ ۚ بَلْ أَتَيْنَا بِكَ كَذِبًا ۖ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء].

فانت ترى أن المقام مقام محاجة بخلاف الآية الأولى فإنه مقام تحدّ وتقريع ومجابهة.

ويوضح ذلك نهاية القصتين.

ففي آية الشعراء قال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۚ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء] وما بعدها.

وأما في آية الصافات فانتهى السياق بتحطيم الأصنام وتحريقه بالنار.

﴿فَرَأَى إِلَهُ الْإِبْرِيمَ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الشعراء] ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ [الشعراء] ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الشعراء] ... وما بعدها [الصافات].

فشعة فرق كبير بين النهايتين وبين السياقين. فجاء في مقام المجابهة وشدة التحدي بـ (ماذا) دون المقام الآخر الذي جاء فيه بـ (ما).

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل عن زيادة (ذا) في قوله في الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء ما في الشعراء منها.

والجواب أن يقال: إنَّ قوله (ما تعبدون) معناه: أي شيء تعبدون؟

وقوله: (ماذا تعبدون) في كلام العرب على وجهين:

أحدها: أن تكون (ما) وحدها اسماً و (ذا) بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي تعبدون. و (تعبدون) صلة لها.

والآخر أن تكون (ما) مع (ذا) اسماً واحداً بمعنى: أي شيء. وهو في الحالتين أبلغ من (ما) وحدها إذا قيل: ما تفعل؟ و (ما تعبدون) في سورة الشعراء إخبار عن تنبيهه لهم، لأنهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم،

فاجابوه وقالوا: ﴿قَالُوا تَبْذُرْنَ آبُنَا فَأَنْظِلْ لَنَا عَذَابَكُمْ﴾ فنه ثانياً بقوله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ كُرْ إِذْ تَدْعُوْنَ﴾ ﴿٧٦﴾؟

وأما (ماذا تعبدون)؟ في سورة الصافات فإنها تفریع، وهو حال بعد التنبيه. ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيته لم يجيبوا كإجابته في الأول. ثم أضاف تبكيتاً إلى تبكيت ولم يستدع منه جواباً فقال: ﴿أَفَبُكَاءُ إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ فُرِيدُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ فَمَا تَعْبُدُونَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ [الصافات].

فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية. ولما بالغ وقَرَعَ استعمل اللفظ الأبلغ وهو (ماذا) التي إن جعلت (ذا) منها بمعنى (الذي) فهو أبلغ من (ما) وحدها. وإن جُعِلَ اسماً كان أيضاً أبلغ وأؤكد مما إذا خلت من (ذا) «(١)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَقُفُّ أَمْجُومُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿٨٠﴾ [الأحزاب].

فمد (السبيل) في حين قال في الآية الرابعة من السورة نفسها: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿٨١﴾ [الأحزاب] فلم يمه.

وذلك أن الأولى في كلام أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمد، وهو المناسب لمد الصوت بالبكاء ورفع، بخلاف الآية الثانية.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُ يَوْمَ وَضَأَ يَوْمَ دُرَّعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ﴿٨٢﴾ [هود].

وقوله:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُ يَوْمَ وَضَأَ يَوْمَ دُرَّعًا وَقَالُوا لَا خَفَافَ وَلَا تَحْزَنَ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكُنَّ مِنْكَ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ [العنكبوت].

(١) ذرة التنزيل ٣٣١.

فقد زاد (أن) بعد (لَمَّا) في سورة العنكبوت بخلاف سورة هود والقصة واحدة، وذلك أن سياق القصة في العنكبوت يقتضي هذه الزيادة من عدة أوجه، بخلاف سياقها في هود. فإنه أفاض في ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما هو في هود، فقد ذكر فيها من صفات قوم لوط السيئة ما لم يذكره في هود فقد قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ (٢٧) [العنكبوت].

ولم يزد في هود على أن قال: ﴿وَمَنْ جَاءَكَ مِنْهُمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ رَبِّكَ إِنَّهُ يَجْزِي الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٨) [هود].
ففضل في عمل السينات ما لم يفصله في هود.

فلما كان المقام مقام إطالة وتفصيل في سورة العنكبوت ذكر (أن) لمناسبة سياق الإطالة والتفصيل بخلاف سورة هود.

ومن ناحية أخرى أن برم لوط بقومه وضيقة بهم في سورة العنكبوت، كان أظهر وأشد مما في سورة هود. كما يبدو أن ترقب لوط للخلاص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر مما في هود. يدل على ذلك عدة مواضع في القصة: منها قوله في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا آتَتْ جَلْثَ رُسُلَنَا لُوطًا سَاءَ يَوْمَهُمْ وَمَضَّاكَ يَوْمَهُمْ ذُرًّا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَعْلَاكَ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦) [العنكبوت].

في حين قال في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَاءَ يَوْمَهُمْ وَمَضَّاكَ يَوْمَهُمْ ذُرًّا وَقَالَ هَذَا يَوْمُ عَصِيبٍ﴾ (٢٩) [هود].

فزاد في آية العنكبوت قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ...﴾.

ومنها دعاؤه ربه أن ينصره على قومه بعدما كذبوه وتعجلوا العذاب قائلين: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٦) [العنكبوت] فقال ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٧) [العنكبوت] وليس الأمر كذلك في هود، فإنهم لم يصرحوا بتكذيبه ولم يدع لنفسه بالنصر. ومنها التصريح بلفظ التنجية ومجيء

الفرج في سورة العنكبوت مرتين، مرة مع سيدنا إبراهيم إذ قال ملائكة الله له في لوط: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [العنكبوت]. ومرة مع لوط نفسه، إذ قالوا له: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت] ولم يرد مثل ذلك في هود.

ولذا حسن ذكر (أَنْ) في العنكبوت دون هود مراعاة للتبسط في ذكر القصة والإفاضة فيها، وللدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال.

وشبيه بهذه الزيادة للانتظار والترقب قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُ الْبَشِيرُ الْفَتْنَةُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَزْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف].

فزاد (أَنْ) بعد (لما) وذلك لمناسبة حالة الإنتظار والترقب التي كان يمر بها نبي الله يعقوب، فقد كان شديد اللهفة على رؤية ولده. ومن المعلوم أن الشخص في مثل هذه الحال يستطيل كل لحظة تمر به، ففصل بين (لما) ومجيء البشير ويأخذ بينهما إشارة إلى الشعور باستطالة الوقت وطول الانتظار. ولا يؤدي اتصال (لما) بالشرط ما يؤديه هذا الفصل الجميل.

جاء في (معترك الأقران): «فإن قلت: إن قوله تعالى: (فلما أن جاء البشير) لم يقع فيه تكرار فَلَمَ زيدَ (أَنْ) ولم يأت على الأصل؟

قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن وتباعد المدة، ناسب ذلك زيادة (أَنْ) لما في مقتضى وضعها من التراخي»^(١).

وذكر مصطفى صادق الرافعي أن المراد بذلك: «تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف، وبين مجيئه لبعده ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب مقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي: (أَنْ) في قوله: أن جاء»^(٢).

(١) معترك الأقران ٣/٣٥٩ وانظر ملاك التأويل ٢/٥٢٧.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٦٣.

ونحو ذلك قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْشُوعُ أَرِيدُ أَنْ تُقتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ...﴾ [القصص] فزاد (أن) بعد (لما) وذلك أن موسى لم يكن مندفعاً للبش بالقبطي في هذه المرة فزاد (أن) للدلالة على التريث والتمهل، وفصل بين (لما) والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن وعدم الاندفاع، بخلاف المرة الأولى التي اندفع فيها فجأة لنصرة صاحبه، ألا ترى كيف قال في المرة الأولى: ﴿فَاسْتَعْتَنَهُ الْكُذِّبُ مِنْ شَيْعِيِّهِمْ عَلَى الْكُذِّبِ مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ...﴾ [القصص] فجاء بالفاء الدالة على التعقيب وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنة (فاستغاثه، فوكزه، ف قضى عليه).

ومما يدل ذلك على تمهله وعدم اندفاعه في المرة الثانية تعنيفه لصاحبه قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَنُؤْيِي مِثْرَينَ﴾ [القصص] حتى ظن صاحبه أنه ينوي البش به بدلاً من عدوه فقال له: ﴿يَمْشُوعُ أَرِيدُ أَنْ تُقتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص]. فزاد (أن) للدلالة على ذلك.

وهذا نظير ما قبله كما هو واضح.

وقد يزيد كلمة أو أكثر في موضع، ولا يذكرها في موضع آخر، كل ذلك حسبما يقتضيه المعنى والسياق.

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَنْهُ وَهْمًا وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء].

وقوله:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِذَا كَانَ فِي حُجَّتِهِ وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء].

فقد زاد قوله: (ومقتاً) في آية النساء وذلك أن متزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة بمقت فاعلها ويشناً وتستخسه الطباع السليمة، فوصفت فعلته بالمقت، وسأوت الزنى فيما وراء ذلك^(١).

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٠٠.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ. وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
[التغابن].

وقوله:

﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَعَلَ مَا بُدِئَ بِهِ مِنَ الْحَدِّ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الطلاق].

فقد زاد في التغابن قوله: (ويكفر عن سيئاته) دون الطلاق وذلك أن آية التغابن خطاب للكافرين وقد دعاهم إلى الإيمان فقال: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُنْ يُعْتَقَلُ﴾ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا تُؤْخَذُوا بِدِينِكُمْ غَنًا لَكُمْ بِهِ تَكُونُونَ ﴿١١﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُهَا وَتُذَكِّرُهَا لِقَاءِ رَبِّكَ وَتُحَذِّرُهَا مِنَ الْكَفْرِ وَالتَّغَابُنِ. [التغابن].

ثم قال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ.﴾ [التغابن].

وَأَمَّا آيَةُ الطَّلَاقِ فَفِي خُطَابٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّقْوَىٰ فَقَالَ: ﴿فَآتُوا اللَّهَ بِخُلَافٍ أَلْبَنِسَ الْبَلِينِ﴾ أَيْ مَا قَدْ أَزَلَّ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿﴾ [الطلاق].

ثم قال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ...﴾ [الطلاق].

فكان ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة
وسيئاتهم غير منقطعة أولى من ذكرها مع المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِمْ أَيْنُنَا ۖ وَأَنْتَ مُسْتَكْبِرٌ ۚ كَانُوا يَسْمَعُهَا كَافً ۖ فِي أَذُنِهِمْ وَقَدْ فُتِّرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان].

وقوله:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۚ كَذَلِكَ نُنْزِلُ الْكِتَابَ عَلَى الْمُتَذَكِّرِينَ ۚ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۚ﴾ [الجن: ١٠].

فقد زاد في آية لقمان قوله: (كَانَ فِي أُذُنِهِ وَقَرَأَ) دون آية الجاثية، وذلك وإن آية الجاثية لما تقدم فيها قوله: ﴿وَرَبِّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ﴾ يَمُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى

عَلَيْهِمْ السَّلَامُ [الجاثية] فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات. والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه...

ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِضَيْحٍ ظَلِمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان] وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية. فازداد ووضح التلازم^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ قَرَّبْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَلَمَّا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغِ
الْمُبِينِ﴾ [المائدة].

وقوله :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن].

فزاد في الآية الأولى قوله: (واحدروا) وقوله: (فاعلموا) مع اتحاد ما تضمنته الآيتان فيما سوى ذلك.

وسبب ذلك والله أعلم أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجزء عليهم هذه المحرمات من ضرور فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَذْكَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ [١] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصْلَحَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٢﴾ [المائدة].

فمناسب ذلك ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير .

(١) ملك التأويل، ٧٨٩/٢-٧٩٠.

« وأما آية التغاين فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٥١ ﴾ [التغاين] فلما لم يرد هنا نهى عن محرم متأكد التحريم... لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك. فجاء كل على ما يجب ويناسب. وليس عكس الوارد بمناسب^(١).

وقد يزيد الجار والمجرور في موضع ولا يذكر نحوه في موضع آخر، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٥٢ ﴾ [الفتح] وقوله:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ٥٣ ﴾ [المائدة].

فزاد (لكم) في آية الفتح ولم يذكر مثل ذلك في المائدة. والسبب أن الخطاب في سورة الفتح مختص بالمخلفين من الأعراب قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَعْمَلُنَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ٥٤ ﴾ [الفتح].

فلما كان الخطاب مختصاً بهؤلاء زاد (لكم) لأن الخطاب موجه إليهم.

أما في سورة المائدة فالخطاب عام، وليس خاصاً بجماعة معينين قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ٥٤ ﴾ [المائدة].

ألا ترى إلى قوله تعالى: (ومن في الأرض جميعاً) كيف عم أهل الأرض فلم يحسن أن يذكر (لكم) بل جاء الخطاب عاماً. جاء في (درة التنزيل) عن سبب ذكر (لكم) في (الفتح) وعدم ذكرها في (المائدة) قوله: إن آية سورة الفتح

(١) ملاك التأويل ٢٧٤-٢٧٥.

انزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير عذر وتأخروا عن الجهاد وقالوا: شغلنا أموالنا وأهلونا، ثم سألوه ﷺ أن يستغفر لهم، يكتُمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم وقصدهم إستمالته كيلا تضرهم عداوته فقال عز وجل:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ أَلَهٍ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح] فلما كان في قوم مخصوصين احتيج إلى (لكم) للتبيين.

فأما في هذه السورة [يعني سورة المائدة] فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق بل عم بها. دليله أن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً. فلما سبقت الآية إلى العموم لم يحتج إلى (لكم) التي للخصوص^(١). ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنتَرِمْعِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت].

وقوله:

﴿وَمَا أَنتَرِمْعِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى].

زاد في آية (العنكبوت): (ولا في السماء)^(٢) وذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسولها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب وغيرهم، وما حاق بهذه الأمم من العذاب والعقوبات، بخلاف آية الشورى فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ وَمَا أَنتَرِمْعِزِينَ فِي الْأَرْضِ... [الشورى].

فلما كان الكلام في العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء ومحاربة الرسل ومعاقبة الله لهؤلاء الأقوام، كان من المناسب أن يزيد لهم في

(١) درة التنزيل ٩٤ وانظر ٤٤٣، البرهان للكرمانى ٤٣٩، ملاك التأويل ٢٤٧/١ وما بعدها.

(٢) في هذه الآية إعجاز علمي إذ إن فيها إشارة إلى أنهم سيعصدون في السماء وأنه سيكون لهم فيها شأن ومع ذلك فهم غير معجزين في السماء كما أنهم غير معجزين في الأرض. وإلا فأين هم من السماء في ذلك الوقت؟!

القول ويسط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَتَنِمُّوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ...﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿فَتَنِمُّوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء].

فزاد (منه) في آية المائدة، وذلك أن آية المائدة فيها تفصيل وتبيين لأحكام الوضوء كاملة، بخلاف آية النساء فإنها لم تذكر أحكام الوضوء تفصيلاً. فلما فصل وبين في آية المائدة وزاد في ذكر الأحكام زاد الجار والمجرور (منه) للزيادة في التبيين. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَمَقًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَلَأِ أَوْ لَسْتُمْ اأْنْسَاء فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة].

وقال في سورة النساء: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَمَقًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَلَأِ أَوْ لَسْتُمْ اأْنْسَاء فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء].

فأنت ترى أنه حيث كان السياق مجعلاً أجمل في الذكر، وحيث كان مفصلاً مبيناً زاد وبين، فوضع كل تعبير في الموضع الذي هو أوفق له. جاء في (البرهان) للكرمانى: أنه زاد في آية المائدة (منه) لأن

المذكور في هذه السورة [يعني النساء] بعض أحكام الوضوء والتميم فحسن الحذف. والمذكور في المائدة جميع أحكامها فحسن الإثبات والبيان^(١).

ومثل هذه الزيادة للتفصيل ما جاء في قوله تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾

[الحديد].

وقوله:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ [التغابن] فقد زاد

قوله: (في الأرض ولا في أنفسكم) على ما في التغابن، وذلك لأنه فصل في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يفصله في التغابن، فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبلها. جاء في سورة الحديد قوله: ﴿ أَطْلَمُوا أَنَّمَا الْكُفْرُ الدُّنْيَا أَوْهَا زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْبٍ أَحَبَّ إِلَى الْكَافِرِ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْكُفْرُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الشَّرِيعُ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ... ﴾ [الحديد].

ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحديد] مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴾ [التغابن].

فأنت ترى أنه فصل وذكر في سورة الحديد ما لم يذكره في التغابن، ولذا زاد في التفصيل في الآية المذكورة موافقة لما قبلها. جاء في (البرهان) للكرمانسي أنه فصل في سورة الحديد وأجمل في سورة التغابن موافقة لما قبلها في هذه السورة [يعني الحديد] فإنه فصل أحوال الدنيا

(١) البرهان ١٢٨.

وَالْآخِرَةُ فِيهَا بِقَوْلِهِ ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْغَايَةُ الدُّنْيَا لَكُمْ وَتَمَوْ وَزِينَتُهُ وَقَفَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَافُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: (١)].

وقد يكون الذكر والحذف مراعاة لواقع الحال، فيكون الكلام في غاية الدقة في التعبير عن الحقيقة. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١١١﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١١٢﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى...﴾ [الحج: (١١)].

فإنه قال: (وكذب موسى) ولم يقل: (قوم موسى) كما قال في الأقوام الأخرى، وذلك لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما الذي كذبه فرعون وقومه. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قيل: (وكذب موسى) ولم يقل: قوم موسى؟

قلت: لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط» (٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَبُشِيرًا بِرَسُولِ اللَّهِ إِنِّي مِنْ بَنِي آدَمَ أَتَمُّ أَحَدٌ...﴾ [الصف: (١)].

وقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُم مَائِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ...﴾ [الصف: (١)].

فإنه لم يقل في عيسى: (وإذ قال عيسى لقومه) كما قال في موسى: (وإذ قال موسى لقومه) بل قال: (يا بني إسرائيل) وذلك أن عيسى عليه السلام لم يكن له نسب فيهم فيكونوا قومه إذ لم يكن له فيهم أب (٣) بخلاف موسى.

(١) البرهان ٤٥٢.

(٢) الكشاف ٣٥٠/٢.

(٣) معترك الأقران ٥٣٠/٣.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء].

ولم يقل: (أخوهم شعيب) كما قال فيمن قبله من الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الشعراء] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء] وغير أولئك من الرسل، إلا شعيباً فإنه لم يقل فيه: (أخوهم) وذلك أن شعيباً ليس من أصحاب الأيكة وإنما هو أخو مدين، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف] بخلاف أصحاب الأيكة. فهو قد أرسل إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: (أخوهم شعيب) كما في سائر المواضع؟

قلت: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: (إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة)»^(١).

ومن ذلك ما ورد في قصة نوح وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكَلٍ مُمِينٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

وفي قصة هود قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأعراف].

فقد زاد (الذين كفروا) على ملا قوم هود دون ملا قوم نوح. قيل: لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، فأخرج المؤمنين من أشراف قوم هود، لأن القائلين هم الذين كفروا منهم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم وصف الملا بالذين كفروا دون الملا من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم: مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتنم لإسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف. ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن.

(١) الكشاف ٢/٤٣٥.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَبْوَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَئِنْ يَدْعُوا إِلَى الْحَرْبِ﴾ [المؤمنون] ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير^(١).

وقد يكون الذكر والحذف لغير ذلك، فهناك أسباب مختلفة تدعو إلى الذكر والحذف، وكلها ترجع إلى مراعاة المقام وحسن الاختيار وذكر اللفظة في الوضع الذي يقتضيها وينادي عليها بأبلغ تعبير وأجمل صورة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] على لسان جميع الأنبياء الذين جرى ذكرهم في سورة الشعراء، فنوح قال لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] وكذا قال هود لقومه (الشعراء ١٢٧)، وكذا قال صالح لقومه (الشعراء ١٦٤) وكذا قال شعيب (الشعراء ١٨٠) إلا إبراهيم وموسى فإنهما لم يقلوا ذاك.

أما إبراهيم فلأن أباه كان من المخاطبين، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء] إذ قال لأبيه وقبوه ما تقبّدون^(٢) فاستحيا أن يخاطب أباه بذلك.

وأما موسى فلأن فرعون ربه وقد ذكر ذلك له فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ لَكَ فِتْنَةً وَلَبَدًا وَلَيْسَتْ فِتْنَةً مِنْ عَمَلِكَ سِينِينَ﴾ [الشعراء] فلا يليق أن يقول له: (وما أسألك عليه من أجر). ألا ترى أنه لا يليق أن يقول شخص لأبيه أو لمن ربه وأنفق عليه: (لا أسألك أجراً) فانظر إلى جمال الذوق وحسن الاختيار في التعبير. جاء في (البرهان) للكرمانى أنه ليس في قصة موسى عليه السلام ذلك لأنه ربه فرعون حيث قال: ألم نربك فينا وليداً؟

ولا في قصة إبراهيم لأن أباه في المخاطبين حيث يقول: (إذ قال لأبيه وقومه) وهو ربه.

واستحيا موسى وإبراهيم أن يقلوا: (ما أسألكم عليه من أجر) وإن كانا منزهين من طلب الأجرة^(٣).

(١) الكشف ١/ ٥٥٤.

(٢) البرهان ٣٥٣.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْيُتُونَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ١٥٦﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُ كَيْدَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَنَجَّيْنَاكُم مِّنَ الْمَلَأِ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِذْ تَمَرَّدْتُمْ عَلَىٰ مَا أُوتُوا بِهَا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَغَاوُوا ١٥٧﴾ [المائدة].

فزاد في آية المائدة: (يا قوم) ولم يذكر ذلك في آية إبراهيم وذلك أنه في آية المائدة عدّد عليهم النعم الجسمانيّة في أن جعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وأنه آتاهم مالم يؤت أحدًا من العالمين، فحسن ندأهم به (يا قوم) وذلك أن الإنسان يحب أن يتنسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية، بخلاف المستذلين والمستعبدين وهو سياق الآية الثانية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال: ﴿يَقَوْمُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ١٥٨﴾ [المائدة].

فناداهم به (يا قوم) عطفًا لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتكليفهم بهذا الأمر الشاق.

أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تكليف بأمر، وإنما فيها تذكيرهم بما مر عليهم من محن وعذاب. وفرق بين الحالتين.

ومن جهة أخرى أن سياق قصة موسى في سورة المائدة أطول مما في سورة إبراهيم، فزاد (يا قوم) لمناسبة طول القصة في سورة المائدة. وهذا خط واضح في التعبير القرآني فافتضى كل ذلك هذه الزيادة في سورة المائدة دون سورة إبراهيم والله أعلم.

جاء في (البرهان) للكرمانلي أن «تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به. ولما كان ما في هذه السورة نعمًا جسامًا ما عليها من مزيد وهو قوله: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْيُتُونَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ١٥٦﴾ صرح فقال: (يا قوم). ولموافقة ما قبله لما بعده من النداء وهو قوله:

(يا قوم ادخلوا) (يا موسى إن فيها) (يا موسى أنا) ولم يكن ما في إبراهيم بهذه المتزلة فاقصر على حرف الخطاب^(١).

ومن لطيف الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿وَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالْشَّهَادَةُ فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة].

وقوله:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُردُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالْشَّهَادَةُ فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة].

فزاد في الآية الثانية قوله: (والمؤمنون) بخلاف الآية الأولى وذلك أن الآية الأولى في المنافقين، وهم الذين يطنون الكفر ويظهرون الإيمان ولا يعلم المؤمنون بهم إلا من أطلعه رسول الله عليه، فلم يقل: (والمؤمنون) لأن المؤمنين لا يرون أعمالهم بخلاف الآية الثانية فإنها في طاعات المؤمنين وهي ظاهرة للجميع ففرق بين الجماعتين.

قال تعالى في الطائفة الأولى وهم المنافقون: ﴿يَسْتَزِدُّونَ إِلَىٰكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَسْتَزِدُّونَ أَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّنْ أَمْبَارِكُمْ وَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالْشَّهَادَةُ فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة].

وقال في الجماعة المؤمنة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الْكَافِرِينَ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [آل عمران] وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة].

جاء في (البرهان) للكرمانى في هاتين الآيتين أن «الآية الأولى في المنافقين ولا يطلع على ما في ضمائرهم إلا الله

(١) البرهان ١٤١ وانظر درة التنزيل ٩٧، ملك التأويل ٢٥١/١.

تعالى، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليهما لقوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَا اللَّهُ مِنْ أَتْبَارِكُمْ﴾.

والثانية في المؤمنين. وطاعات المؤمنين وعاداتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين. وختم آية المنافقين بقوله: (ثم تردون) فقطعه عن الأول لأنه وعيد. وختم آية المؤمنين بقوله: (وستردون) لأنه وعد فبناء على قوله: (فسرى الله) (١).

وجاء في (درة التنزيل) أن الآية الثانية: «فمن أمر الله تعالى نبيه ﷺ وهو الذي أوجب عليهم الصدقات بأن يقول لهم: اعملوا ما أمركم الله به من الطاعات كالصلوات والصدقات فإن الله ورسوله والمؤمنين يرون ذلك، وهذه الأعمال مما ترى بالعين خلاف أعمال المنافقين التي تقتضي لهم النفاق لإضمارهم خلاف إظهارهم وهو مما لا يرى بالعين وإنما يعلمه عالم الغيب، فلذلك لم يذكر المؤمنون في الأولى وذكروا في الثانية» (٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْتِيهِمْ عِلْمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْفُونَ مَوَاطِنَ يَنْزِلُ الْكَفَّارُ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَذُوبَاتِهِ إِلَّا كَذِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَا يُفْقُونَ تَفَقُّةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ يَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿إِلَّا كَذِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ وقال في الثانية: ﴿إِلَّا كَذِبَ لَهُمْ﴾، وذلك أن الآية الأولى فيها ما ليس عملاً لهم كالظلم والنصب والمخصة فهذه ليست من أعمالهم غير أنه تكتب لهم أعمالاً صالحة. أما الآية الثانية فما جاء فيها كله من أعمالهم فالنفقات وقطع الوديان هي أعمالهم ولذا لم يكن ثمة داع إلى القول: (كتب له به عمل صالح) لأنه عمل حقيقة.

(١) البرهان ٢١٤-٢١٥ وانظر ملاك التأويل ٤٧٣/١.

(٢) درة التنزيل ٢٠٣.

ثم انظر إلى خاتمة كل من الآيتين . فقد قال في ختام الآية الأولى : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأن ما تقدم ليس عملاً وإنما هو من الإحسان الذي تدخل فيه عموم العبادات .

وقال في ختام الآية الثانية : ﴿ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأنه من أعمالهم . جاء في (البرهان) للكرمانى أن الآية الأولى مشتملة على ما هو من عملهم وهو قوله : ﴿ وَلَا يَطْفُونَ مَوْطِنًا يَبْتَغِ الْكُفَّارُ وَلَا يُنَالُونَ مِنْ غَدُوِّ نِيْلًا ﴾ وعلى ما ليس من عملهم وهو الظمأ والنصب والمخمصة .

والله سبحانه وتعالى بفضلُه أجرى ذلك مجرى عملهم في الثواب فقال : ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِمْ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ أي : جزاء عمل صالح .

والآية الثانية مشتملة على ما هو من عملهم وهو إنفاق المال في طاعة الله وتحمل المشاق فكتب لهم ذلك بعينه . وكذلك ختم الآية بقوله : ﴿ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأن الكل من عملهم فوعدهم أحسن الجزاء عليه .

وختم الآية الأولى بقوله : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ حين الحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم . ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء ^(١) .

وجاء في (درة التنزيل) : « فلما كان ما في الثانية عملهم كتب على جهته لم يحتج إلى أن يكتب به عمل صالح لأنه هو . والأول كان فيه ما ليس بعملهم فكتب به أجر مثل عملهم فلذلك كانت الزيادة في الأولى ولم يحتج إليها الأخرى .

والجواب عن المسألة الثانية وهي تعقيب الأولى بقوله : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هو أن من أخبر عنه بأنه أصابه ظمأ ونصب وجوع فقد أخبر عنه بفعل غيره به ولم يخبر عنه بفعل فعله هو . إلا أنه يجب له بما وصل إليه من ألم العطش والجوع والتعب والنصب الأجر ، فلذلك عقبه بقوله : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : من أحسن طاعة الله وتعرض منها لما يلحقه فيه هذه الشدائد .

(١) البرهان ٢١٥-٢١٧ .

وأما الآية الثانية وتعقيها بقوله: ﴿يَتَجَرَّبَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْمَلُونَ﴾ فلأن جميع ما ذكر كان عملاً لهم فوعدهم حسن الجزاء على عملهم. وذلك ظاهر والله أعلم^(١).

ومن لطيف الذكر الذي يقتضيه المعنى قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة].

ولم يكتف بقوله: (إنه آثم) بل أسند الإثم إلى القلب وذلك لأن الشهادة محلها القلب وكتمانها هو أن يبقيا في قلبه فنسب الإثم إلى القلب وهو تعبير بديع. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: هلا اقتصر على قوله (آثم) وما فائدة ذكر القلب، والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؟

قلت: كتمان الشهادة هو أن يضرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترناً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي. ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكانه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط»^(٢).

ومن الذكر الذي يقتضيه المعنى أيضاً قوله تعالى:

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة، الأعراف ١٦٠].

وقوله:

﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

فزاد في الآيتين الأوليين: (كانوا) بخلاف آل عمران وذلك أن آيتي البقرة والأعراف في أقوام قد مضوا وهم بنو إسرائيل، قال تعالى في البقرة:

(١) درة التنزيل ٢٠٥.

(٢) الكشاف ٣٠٧/١.

﴿وَلَللَّنَا عَلَيْكُمُ الْقَصَصُ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة].

وقال في الأعراف: ﴿وَلَللَّنَا عَلَيْكُمُ الْقَصَصُ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف].

وأما آية آل عمران فهي ليست في أقوام ماضين وإنما مثل ضربه الله لكل عصر قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَ قَوْرَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

فناسب ذكر (كان) في آيتي البقرة والأعراف دون آية آل عمران . جاء في (البرهان) للكرمانى أن ما في السورتين يعني البقرة والأعراف «إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا وما في آل عمران مثل»^(١) .

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿وَمَا أُوتِشْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا...﴾ [القصص].

فقد ذكر الزينة بخلاف قوله تعالى:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا...﴾ [الشورى].

وقد ورد ذكر الزينة في القصص لورودها فيما بعد في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ...﴾ [القصص] بخلاف سورة الشورى فإنها لم يرد فيها مثل ذلك .

جاء في (معترك الأفران): «فإن قلت: ما وجه زيادة (الزينة) في هذه الآية على آية الشورى: ﴿وَمَا أُوتِشْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا؟

والجواب لورود ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ فالتحتم الآية بتلك القصة. ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها

(١) البرهان ٨٨.

حال دنيوي لأحد بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها وأنه مقدور غير مبسوط. وتلك حال الأكثر^(١).

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْحِكْمِ يَشْعُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْعُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران].

فقد زاد في آل عمران: (ولا ينظر إليهم) بخلاف البقرة وذلك لسببين:

الأول: أن آية البقرة في الذين يكتُمون ما أنزل الله ويشعرون بكتمانهم هذا ثمنًا قليلًا. وأما آية آل عمران فليست في الذين يكتُمون بل في الذين يشعرون بعهد الله وإيمانهم ثمنًا قليلًا وهو ذنب أكبر وأعظم من مجرد الكتمان. إذ هم لم يكتُموا الحق فقط بل غيروه وأقسموا على ذلك واشتروا به ثمنًا قليلًا. فهم لم يكتفوا بالكتمان بل تجاوزوه في دعم الباطل، فلما زادوا في الذنب زاد الله لهم في العقوبة فقال: (ولا ينظر إليهم).

والسبب الثاني: أن السياق في آل عمران في الوفاء بعهد الله فقد قال قبل هذه الآية:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران]. وليس الأمر كذلك في البقرة فقد سبق هذه الآية الكلام على الميتة والدم ونحوها قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [البقرة].

(١) معترك الأقران ٤٢٢/٣.

فلما كان المقام في آل عمران هو الكلام على عهد الله ناسب تشديد العقوبة على مضيعيه أكثر مما في البقرة لأن السياق يقتضيه .

فما أجلّ هذا الكلام وأعظمه !

ونكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية وإلا فالاستقصاء بعيد المنال .

التوكيد في القرآن الكريم

من المعلوم أنه يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها. فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد، وقد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام. وقد راعى القرآن الكريم ذلك أدق المراعاة في جميع ما ورد من مواطن التوكيد. فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة.

إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعيًا موطنًا آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهاً به لانهدام موجب، وترى أنه هنا أكد بمؤكدتين وأكد في موطن آخر يبدو شبيهاً به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك في اختيار المؤكدات فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة. وهنا بياناً المشددة وفي موطن آخر بيان المخففة ويستبدل حرفاً بحرف كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن، فجاء التوكيد كله في القرآن كله كأنه لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن - وليس فيها إلا العجيب - ما يجعل أمهر الفنانين يقف مبهوراً دهشاً مقرأً بعجز الخلق أجمعين عن استخلاص عجائبه فضلاً عن الإتيان بمثله.

ولنضرب أمثلة على ذلك تكون مرقاة لما فوقها ومن الله التوفيق.

١- لقد ذكرنا أن القرآن الكريم قد يأتي بلفظ مؤكد في موطن وينزعه في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وإذا تأملت ذلك وجدت أنه وضع كل تعبير في موطنه اللائق به.

أ- فمن ذلك مثلاً الإتيان باللام التي تفيد التوكيد وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا قُلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿قِيلَ ادْخُلُوا ابْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا فَيْسُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر].

وقوله:

﴿ادْخُلُوا ابْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا فَيْسُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر - المؤمن].

فقد أدخل اللام في آية النحل على (بئس) فقال: (فليس مثوى المتكبرين) دون الآيتين الآخرين إذ قال فيهما: (فبئس مثوى المتكبرين) وذلك أنه في سورة النحل وصف قوماً أشد كفراً وأكبر جرماً من المذكورين في آتي الزمر والمؤمن، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَ مَا يَزِرُّوكَ﴾ [النحل].

فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الآخرين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

ومن ناحية ثانية أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفرضه في السورتين الآخرين، فناسب ذلك أيضاً ذكر اللام وزيادة في التوكيد، إذ كما زاد وتبسط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول:

ما بال الآية في سورة النحل خصت وحدها بدخول اللام على قوله: (لبئس) فيها وإخلاء الآيتين من السورتين منها فيما قبلهما؟

الجواب أن يقال: إن الآية الأولى من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله وإنما هو أساطير الأولين: قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِغِيرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل].

وهؤلاء أكثر الناس آثاماً وأشدهم عقاباً. ومن هذه صفته اختيار عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه فاخترت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل] فاللام في: (لنعم) بإزاء اللام في: (لبئس). وليس كذلك الآيتان في سورة الزمر والمؤمن لأنهما في ذكر جملة الكفار قال الله عز من قائل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ [الزمر] وقال في سورة المؤمن: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَنَحْنُ أَرْسَلْنَا بِهِمْ رَسُولًا فَفَعَلُوا مَعْصِيَ الْأَكْفَارِ﴾ [غافر] إلى قوله: (ادخلوا) فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم ووزان عن ذنوبهم التي أتوها وعن ذنوب غيرهم التي حملوا^(١) عليها ولم يذكر من سواهم في الآيتين الأخيرتين يحمل أثقلاً مع أنقالهم، حسن التوكيد هناك فضل حسن فلذلك خص باللام^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام].

فأكد ذلك باللام في حين قال:

﴿أَلَمْ يَرْجِعْهُ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف].

فلم يؤكد باللام.

(١) كذا في المطبوع ولعل الصواب (حصلوا).

(٢) درة التنزيل ٢٦٣.

وسر ذلك والله أعلم أن السياق في آيات الأنعام والنحل هو عن الدار الآخرة، وليس كذلك السياق في آيات الأعراف.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ مَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا إِنَّا نَبْتَلُكُمْ ۖ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ سُبْحًا وَلَا مِثْلَهُ لَيْلًا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٠١﴾ بَلْ بَدَأْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا بِخَفْوَةٍ يَسْقُوتُ مِنْ قَبْلِ وَهُمْ لَا يَحْشَوْنَ ۚ وَإِنْ كَانُوا لَشَاكِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ مَقَعُوا عَلَىٰ نَارِهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْعَرَىٰ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِ ۖ وَاللَّهُ حَقٌّ ۖ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَقْتَتَا ۖ قَالُوا ابْسِرْنَا ۚ عَلَىٰ مَا قَرَّبْنَا فِيهَا ۖ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْثَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لُتْلُةٌ ۖ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَئِنْ يَتَفَقَّهُونَ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام].

[illegible]

فلما كان الكلام في آيات الأنعام على الدار الآخرة أكدها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف على عقوبات الدنيا لم يؤكد الآخرة باللام، بل أكد سرعة العقاب لأنه عاجلهم في الدنيا فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾.

وَكَذَلِكَ آيَةُ النُّحْلِ فَالْبَاقِ فِيهَا يَتَحَدَّثُ عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُذِهِ يَوْمَ الْيَمِينَةِ يُخْبِرُهُمْ وَيَقُولُ إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ كُنُوا فِيهِمْ قَالِ الَّذِينَ أُزِيلُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْغَزَى الْيَوْمَ وَالسَّوَةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّوهُمْ الْمَلَكُوتُ طَلَبَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَلَسًا مَا

كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءِ بَلَدٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَدْخَلُوا ابْنَابَهُمْ فِيهَا فَلَيْسَ مَتْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٥٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٌ مَدُونٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ تَوَقَّعُوا الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ [النحل].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، فأكدوا باللام بخلاف آية الأعراف^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَائِلٍ...﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل].

فلم يذكر اللام في جواب (لو) في الآية الأولى بخلاف الثانية، وذلك لأن هداية الناس أصعب وأعسر من الإهلاك. فإهلاك الألوף وألوף الألوף ممكن بوسائل الفتك والتدمير والظواهر الطبيعية، ولكن هدايتهم عسيرة، فجاء باللام لما هو شاق وعسير ونزعها مما هو أيسر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ شَاءَ أَصَبْتَهُم بِدُؤَيْبِهِمْ...﴾ [الأعراف] وهذه نظيرة آية الإهلاك السابقة بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِئَةً...﴾ [الزخرف]. فتزع اللام من الآية الأولى لأن فعلها أيسر من الآية الثانية، فأكد ما هو أعسر وأشق وإن لم يكن على الله شيء عسير.

ونحوه قوله تعالى:

﴿أَطْلَعْتُمْ مِّن لَّوْبِئَاءِ اللَّهِ أَلْعَمَهُ...﴾ [يس].

فإنه أيسر من قوله:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَفْتَحُوا وَخِيبًا وَلَا

(١) انظر معاني النحو ٣٤٢/١ وما بعدها.

يَجْعَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴿يَسْ﴾ فالإطعام أيسر من المسخ^(١). فجاء باللام في الموضع الذي تستحقه، ونزعها من الموضع الذي لا يقتضي ذكرها.

ومن طريف ذلك قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٧﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ءَمْ هُمْ الزَّارِعُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَتَلَوُّهُ تَكْهُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّا لَمَعْرِضُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُمْ مَحْرُومُونَ ﴿٢١﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ هُمُ الْمُنزِلُونَ ﴿٢٣﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَتَلَوُّهُ تَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الواقعة].

فقال في آية الزرع: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَتَلَوُّهُ تَكْهُونَ ﴾ باللام في: (لجعلناه)، وقال في آية الماء: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَتَلَوُّهُ تَشْكُرُونَ ﴾ فلم يذكر اللام وذلك لسر لطيف وهو أنه ذكر عمل الإنسان في الحراثة والزرع وبذل الجهد فيهما فقال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٧﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ءَمْ هُمُ الزَّارِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة] فإن الزراعة والحراثة تقتضي بذل جهد كبير ليستوي الزرع على سوقه، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر بذل جهد فيه للإنسان بل قال: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ هُمُ الْمُنزِلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الواقعة] فأية الزرع ذكر فيها بذل الجهد والعمل، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر فيها شيئاً.

ثم إن الإنسان إذا حرث وزرع وبذل جهداً ومراقبة حتى إذا استوى زرعه على سوقه وحان وقت الاستفادة منه أصبح حطاماً، كان ذلك أشق شيء عليه لأنه يرى عمله وكده وإنفاقه ذهب هباءً وضيع سدىً، ألا ترى إلى قوله تعالى فيما بعد: ﴿ فَتَلَوُّهُ تَكْهُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّا لَمَعْرِضُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُمْ مَحْرُومُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الواقعة]. ومعنى (تفكهون): تندمون على اجتهداكم فيه^(٢) وتذكرون الحرمان بعد التعب، والمغرم: المثقل بالديون.

ثم انظر إلى فداحة الخسارة الاقتصادية بصيرورة الزرع حطاماً وما ينتج عن ذلك من كوارث جسام تحيق بالبشرية.

(١) انظر معاني النحو - لو.

(٢) تفسير البضاوي ٧١٢.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الماء الأجاج يمكن تحويله إلى ماء عذب بالتقطير أو بغير ذلك من وسائل التحلية فيكون صالحاً للاستعمال والشرب كما نرى الآن في كثير من الأماكن، أما الحطام من الزرع فلا يمكن تحويله إلى حب أو فاكهة يأكل منها الإنسان، فحالة الحرمان والخسارة فيه أكبر. فانظر الفرق بين الحالين.

فوضع اللام في الموضع الذي يقتضيها. جاء في (الكشاف): «إن هذه اللام إنما أدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد يفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم... ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب»^(١).

يدل ذلك على ذلك أنه حيث اجتمع الأكل والشرب في القرآن الكريم قدم الأكل على الشرب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُهُ وْيَسْقِيهِ﴾ [الشعراء]. وقال: (كلوا واشربوا) في آيات عدة من القرآن الكريم^(٢) بتقديم الأكل على الشرب، وههنا قدم الحراثة والزرع على الماء، فناسب ذلك إدخال اللام على آية المطعوم دون المشروب.

وجاء في (روح المعاني) نقلاً عن (المثل السائر) : «إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الماء المالح أكثر من الماء العذب. وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتاج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق.

وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد. فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره. انتهى»^(٣).

(١) الكشاف ١٩٧/٣.

(٢) انظر البقرة ٦٠، الطور ١٩، الحاقة ٢٤، المرسلات ٤٣.

(٣) روح المعاني ١٤٩/٢٧.

ب - ونحو ذلك إدخال نون التوكيد على الفعل في الموضع الذي يقتضيها وذلك نحو قوله تعالى :

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴾ [البقرة].

وجاء هذا التعبير في الأنعام - الآية ١١٤ وفي سورة يونس - الآية ٩٤ . غير أنه قال في سورة آل عمران :

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴾ [آل عمران].

فأكد الفعل (تكون) في سورة البقرة والأنعام ويونس دون آية آل عمران . وذلك أن المقام يقتضي التوكيد في كل موطن أكد فيه الفعل دون الموطن الذي لم يؤكد فيه . فقد أكد في سورة البقرة لأن المقام فيها في تبديل القبلة وما صحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتد بعض ضعاف الإيمان . قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الشُّعْبَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ آلِي كَاؤُا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ مِرْطَ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة] . وقال : ﴿ ... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ... ﴾ [البقرة].

ثم ذكر أن أهل الكتاب لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مهما جتهدوا بالآيات البينات والحجج الواضحة فقال مؤكداً بالقسم : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فَنَقَلْنَا مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ فَبَلَّغْ مِنْهُمْ وَمَا يَعْصُهُمْ فَبَلَّغْ قِبْلَةَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [البقرة].

ثم قرر أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، فاحتاج كل ذلك إلى التوكيد فقال : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴾ .

وأما في آية آل عمران فليس الأمر كذلك فقد قال : ﴿ إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَا خَلَقْنَا آدَمَ ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِي قُلْ لَنْ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران] .

ففي آيات البقرة من الإرجاف والفتنة ماليس في آية آل عمران، فاحتاج المقام في البقرة إلى التوكيد بخلاف آل عمران.

وكذلك السياق في آية يونس فإنه يقتضي التوكيد فقد قال تعالى:

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ١٠١ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ١٠٢ ﴾ [يونس].

فلما قال: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ ﴾ احتاج إزالة الشك إلى التوكيد. ثم انظر إلى المؤكدات في السياق وهي:

١- التوكيد بالقسم وقد في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾.

٢- التوكيد بالنون في قوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾.

٣- التوكيد بـ (إن) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٣ ﴾ [يونس] فافتضى كل ذلك التوكيد، إذ السياق كله مؤكد.

وكذلك ما جاء في آية الأنعام، فإن السياق فيها في تكذيب الرسول وعدم الإيمان به حتى قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَكِّينَ وَكَلَّمَهُمُ التَّوْقِ وَحَرَّصْنَا عَلَيْهِمُ كُلَّ شَيْءٍ وَجَعَلْنَا كَاوُيَ يُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ يَهْمِلُونَ ١٠٤ ﴾ [الأنعام].

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرَهُمْ فِي الْأَرْضِ يُعْذِرُونَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّهُمْ لَا يَتُورَمُونَ ١٠٥ ﴾ [الأنعام].

فانظر كيف احتاج السياق إلى توكيد أنه على الحق وأنه عليه ألا يكون من الممترين، فأكد في الموطن الذي اقتضى ذلك بخلاف مالم يقتض ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ عَنْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَمِّ ١٠٦ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَرِيسَ الْهَامِ ١٠٧ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ مَا يُجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنفِرُكَ قُلُوبُهُمْ فِي الْيَلَدِ ﴾ [غافر].

فقد أكد النهي في آل عمران بالنون فقال: ﴿ لَا يَفْرُكَكَ قُلُوبُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بخلاف آية غافر. وذلك أن المقام في آل عمران يقتضي التوكيد، إذ الآية في سياق ابتلاء المسلمين في أموالهم وأنفسهم والأذى الكثير ينالهم من عدوهم الكافر يطش بهم ويفتنهم عن دينهم وينال منهم حتى يبلغ به الأمر إلى أن يخرجهم من ديارهم. قال تعالى:

﴿ تَسْبُكُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَقَدْ مَعَكُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَنَفَرُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ وَقَتَلُوا وَقِيلُوا لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سِقَاتِيهِمْ وَلَا ذَنْبُهُمْ جَعَلَتْ يَجْزِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... ﴾ [آل عمران].

فاحتضى ذلك تأكيد عدم الاغترار بقلب الذين كفروا في البلاد وسيطرتهم عليها، في حين لم يكن السياق في شيء من ذلك في (غافر) فلم يحتج إلى التأكيد والله أعلم.

ج - ونحو ذلك التأكيد بـ (إن) وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُنَّمْ فَيَقْبَلُوا خَافِينَ ﴾ [آل عمران] لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ فَإِذَا أَحْسَنَ فَإِنَّ أَتَرَكَ يَكْفُرُ قُلُوبُهُمْ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ نَصْرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النساء].

وقوله :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ لَمَّا عَلَّمْتَهُمْ مَا يَتْلُونَ كِتَابَكَ إِذْ يَقُولُونَ لَا تِلْكَ إِلَّا آيَاتُ اللَّهِ وَبَدَّلُوا الْآيَاتِ ۚ وَكَفَرُوا مِنْهَا عَظِيمًا ۚ وَلَقَدْ يَكُونُ لَيْسَ الَّذِينَ يَكْفُرُوا مِنْهَا إِلَّا نَجْنُ اللَّهِ الْعَظِيمُ ۚ﴾ [المائدة].

فأنت ترى أنه في الآيات الثلاث لم يؤكد المغفرة بل قال : ﴿وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ﴾ في حين قال :

﴿فَمِاذَا آفَضْتُمْ مِنْ عَرَفْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْعَرَبِيِّ ۚ وَادْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْكَافِرِينَ ۚ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَكْثَرَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ﴾ [البقرة].

وقال :

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسَى جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ﴾ [البقرة].

بتوكيد المغفرة فيهما فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موطنه، وإيضاح أن المقام في آيات آل عمران هو في إذلال الكافرين وكتبهم وقطع طرف منهم حتى قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران] فلا يناسب ذلك توكيد المغفرة.

ومثل ذلك ما جاء في سورة المائدة فإنها في سياق التهديد للذين يقولون : إن الله ثالث ثلاثة، وقد توعدهم بأنهم إن لم يتهتوا عن القول بذلك فسيمسهم عذاب اليم، ثم دعاهم إلى التوبة عن القول بذلك. فالمقام - كما ترى - مقام التهديد والتوعد وليس مقام توكيد المغفرة.

ونحوه جاء في سورة النساء فهو في سياق إقامة الحد على من يأتي الفاحشة. وأظن أنه من نافلة القول أن نذكر أن هذا ليس مقام توكيد المغفرة

أيضاً، بخلاف آية البقرة الواردة في سياق الحج وفي مناسكه وشعائره فقد قال: ﴿كَلِمَاتٌ أَقْصَرُ مِنْ عَزَمَتِهَا فَذَكِّرُوا اللَّهَ﴾.

وأحسب أن الفرق بين هذا المقام وما قبله من المقامات من الوضوح بمكان وأن هذا المقام أولى المقامات بتوكيد المغفرة. وكيف لا وقد أخبر الصادق المصدوق أن: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، و: «أن الله يباهي الملائكة بأهل عرفه ويشهدهم على أنه قد غفر لهم».

إن أصحاب هذا المقام ذهبوا ليؤدوا فريضة الحج طلباً للمغفرة، وأولئك إما في مقام معصية أو مقام كفر فأَيُّ المقامين أحق بتوكيد المغفرة؟

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَافٍ مِنْ مَوْجِ جَنَفٍ أَوْ إِثْمٍ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ ذَرِيرٌ﴾ [البقرة].

فالمقام هذا مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم. أفترى أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة؟

وأخيراً وازن بين المقامين اللذين مرّا: مقام المعصية والكفر ومقام الإصلاح هذا وحفظ الحقوق، ثم احكم أيهما ينبغي أن يكون مقام توكيد المغفرة تجد الجواب بيناً شافياً. ثم بعد ذلك انظر أي الكلام هذا؟

د - ومن هذا الباب التوكيد بالحروف الزائدة. فإنه من المعلوم أن ما يسمونه بالحروف الزائدة يفيد التوكيد في الأغلب.

قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَيُلَوِّدُهُمْ إِذَا مَا كَانُوا يَمْتَلُونَ﴾ [فصلت].

وقال: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ بَلَّيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِيقَيْنِ فَيَنْسَ الْفَرِيقَ﴾ [الزخرف].

وقال: ﴿... حَقَّ إِذَا جَاءَهُمَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ [الزمر].

فزاد (ما) بعد (إذا) في آية فصلت، وذلك لأن شهادة السمع والأبصار وسائر الجوارح من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المجيء.

الانرى استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم: (لم شهدتم علينا؟) فأجابوا بأن قالوا: ﴿أَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وليس كذلك: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهَا فَتُحَتَّ أَبْوَابُهَا﴾ لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب ... وكذلك: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: قال الآدمي لقرينه من الجن اللذين اشتركا في الدنيا في معصية الله ثم اشتركا في العذاب في الآخرة: ليتني لم أتبعك وكان بعد ما بين المشرقين بيني وبينك.

وهذا أيضاً مما يتوقع كونه منهما، ثم يتبرى بعض من بعض فليس في الجزء ما يوجب قوة الشرط الذي لا يتوقع ولا يستفاد إلا به ومنه ^(١). ثم إنَّ شهادة السمع والأبصار والجلود أمر مستغرب بخلاف فتح الأبواب ونحوه فأكد ذلك .

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة ٢٨٢].

زيدت (ما) مؤكدة على الشهداء حضور الشهادة عند الدعوة إليها بخلاف قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَانِيْنَهُمْ يَدِيْنُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُتِبُوهٖ﴾ [البقرة ٢٨٢].

وقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة ٢٨٢].

وذلك أن الشهيد قد يتباطأ أو يتكاسل أو ينكص عن الشهادة لأنه ليست له مصلحة خاصة به أو قد تلحق به ضرراً فاحتاج إلى التوكيد ^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَآ يَرْفَعُ بِهِ سُلْطٰنًا وَمَا لِيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِيْنَ مِن نَّصِيْرٍ﴾ [الحج].

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِن عِلْمٍ اِنْ هُمْ اِلَّا يَخْرُصُوْنَ﴾ [الزخرف].

فقال في آية الحج: (ما ليس به علم) وقال في الزخرف: (ما لهم بذلك من علم) فزاد (من) في آية الزخرف وذلك أن المقامين مختلفان.

(١) درة التنزيل ٤١٧-٤١٨.

(٢) انظر (معاني النحو) ٤/٤٧٨.

فالكلام في آية الحج على من يعبد غير الله، فقد ذكر أن هؤلاء عبدوا ما عبدوا من دون علم ولا معرفة. والتمييز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، فأقل قدر منه يكفي لمعرفة الطريق الصحيح، وأقل قدر من النظر يهدي إليه ويدل على ضرورة ترك عبادة غير الله.

وأما آية الزخرف فالكلام فيها يتعلق بالقدر قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾ [الزخرف]. والكلام في القدر قد يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوم قدم في المعرفة.

فحتى الذين اتفقوا على عبادة الله اختلفوا في القدر اختلافاً كبيراً حتى أنه أثر عن الرسول ﷺ أنه نهى عن الكلام في القدر، فاحتاج الموطن هنا إلى تأكيد العلم بخلاف الموطن السابق، ولذا قال: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فنفى عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة الشائكة، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ بخلاف الآية الأولى التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم بل قال ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ يَهُودَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَن يُخْشِعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ دُونَهُ رَبٌّ وَلَا يَسْعَىٰ لَهُمُ الْيَتُومَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿وَلَنَرَنَّ عَنْكَ الْفَيْدَةَ وَلَا تَصْنَعِي حَتَّىٰ تَتَّبِعِي مَا كُنَّا نَفْعِيكَ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الرعد].

فقال في آية الأنعام: ﴿لَيْسَ لَهُمْ دُونَهُ رَبٌّ﴾. وقال في آية البقرة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. وكذا في آية الرعد.

وسبب ذلك أن آية الأنعام في الكلام على الذين يخافون أن يحشروا إلى الله ليس لهم من ولي. وهم على كل حال مؤمنون بهذا اليوم ترجى لهم التقوى بخلاف سياق الآيتين الآخرين. فقد ذكر في آية البقرة أن اليهود والنصارى لن ترضى عن الرسول حتى يترك دينه ويتبع ملتهم، وهذا كفر صريح وانسلاخ من الدين، ولذا عقب عليه بقوله: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: إن فعل ذلك ماله من الله من ولي ولا نصير.

فالفرق واضح بين المقامين فاحتاج الكلام في آية البقرة إلى تأكيد نفى الولي والنصير دون آية الأنعام.

وكذلك المقام في آية الرعد.

هـ - وقد يأتي بالفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك، ويتركها في مواطن أخرى تبدو شبيهة بها. فإذا دقت النظر وجدت أنه استعمل كل لفظة في المكان اللائق بها. فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ يُلُوا...﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلِمَةُ...﴾ [الأنفال].

فأكد الدين بلفظ (كل) في الأنفال بخلاف البقرة وذلك لأن القتال في البقرة مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فمع جميع الكفار ولذا عمم^(١).

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُ وَالْإِنْفَةَ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَقَرِّ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ فَإِنْ تَوَلَّوْهُمْ فَأَمْلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ يُلُوا فَإِنْ

(١) انظر ملاك التأويل ١١٧/١ وما بعدها.

أَنَّهُمْ قُلَّةٌ عَدُونَ إِلَّا عَلَى الْغُلَامِينَ ﴿٢٦﴾ الشُّرُكُ لَكُمُ الْفَرْجُ وَالْفَرْجُ لَكُمُ الْفَرْجُ وَالْمَرْثَةُ قِمَاصٌ مِّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ يَمْثِلُ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة].

ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ﴾، والمسجد الحرام في مكة. ولم يذكر القتال عند المسجد الحرام في سورة الأنفال بل جعله عاماً فقال:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ قِارِبًا أَنَّهُمْ قَارِبٌ لِلَّهِ إِذَا يَمْشُلُونَ بِهِدْمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال].

فلما كان القتال ههنا عاماً عمم الدين فقال: (كله).

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ﴾ «أي من مكة وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح»^(١).

هذا ومن ناحية أخرى حصر القتال في سورة البقرة بصدد العدوان فقال: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُواكُمْ وَلَا تَسَدُّوا إِلَيْكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْبِدِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ [البقرة]. فلما كان القتال محدوداً بأذى ذي بدء لم يأت باللفظة الدالة على العموم بل قال (ويكون الدين لله) بخلاف ما في الأنفال فإنه لم يخص القتال ببرد العدوان بل أطلقه فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣١﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ...﴾ [الأنفال] فلما أطلقه في الأنفال وعممه، جاء باللفظة الدالة على الشمول وهو لفظ (كل) أي: جميعه. فأنت ترى أن لفظة (كل) في آية الأنفال اقتضاها المقام من ناحيتين:

الأولى: أن القتال في البقرة كان خاصاً بأهل مكة، وفي الأنفال كان عاماً مع أهل الكفر.

(١) الكشف ١/ ٢٦٠.

الثانية: أن القتال في البقرة مخصوص بصد العدوان وفي الأنفال عام .
فناسب وضع (كل) في الأنفال دون البقرة .

ثم انظر إلى ختام كل من الآيتين فقد قال في ختام آية البقرة: ﴿ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدُونِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ١٥٩ ﴾ .

وقال في ختام آية الأنفال: ﴿ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدُونِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ١٥٩ ﴾ وذلك أنه لما كان الكلام في البقرة على الاعتداء فقال: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِيَّاهُ لَا يُحِبُّ الْمُحْسِنُونَ ١٥٩ ﴾ [البقرة] وقال بعدها: ﴿ فَمَنْ عَادَ عَلَىكُمْ فَاغْدُوا عَلَيْهِ يَغْزِي مَا عَادَ عَلَىكُمْ ١٦٠ ﴾ [البقرة] ناسب أن يقول: ﴿ فَلَا عُدُونِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ١٥٩ ﴾ .

وأما في آية الأنفال فالمقصود أن تكون السيطرة للإسلام، وليس معناه دخول أهل الأديان كافة في الإسلام بحيث لا يبقى أحد منهم على دينه، بل ربما بقي من أهل الملل الأخرى من بقي على دينه في حكم الإسلام فقال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٦١ ﴾ أي: إذا كادوا فإن الله بصير بكيدهم .

و - ومن ذلك استعمال ضمير الفصل الذي يفيد التوكيد فتراه يستعمله استعمالاً حسبما يقتضيه السياق والفن .

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٦٢ ﴾ [فصلت] .

وقوله:

﴿ وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٦٣ ﴾ [الأعراف] .

فاكد في سورة (فصلت) بضمير الفصل، وعزف السميع العليم فقال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٦٣ ﴾، وترك ذلك في سورة الأعراف. هذا وإن سياق كل من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به فقد قال في سورة فصلت:

﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلَكُ خَبِيرٌ ١٠٠ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ١٠١ ﴾ وَمَا يَزَعُكَ مِنْ
الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٠٢ ﴾ [فصلت].

وقال في سورة الأعراف:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٠٣ ﴾ وَمَا يَزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ
فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٤ ﴾ [الأعراف].

فأنت ترى أنه طلب في سورة فصلت أن يقابل السيئة بالحسنة، وهذا أمر
شاق على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلهما، فإذا أرادوا أن
يحسنوا عفوا عن المسيء. أما أن يقابلوا السيئة بالحسنة فذلك أمر شاق على
الإنسان عسير عليه، فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس والأخذ بالحق
ويشيطه عن الإحسان إلى المسيء ولذا قال: ﴿ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

وأما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين، وهو أيسر
من الإحسان إلى من أساء إليك. ولذا أكد وعزف في سورة فصلت فقال:
﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وترك ذلك في سورة الأعراف. فوضع كل تعبير في
المكان الذي يقتضيه.

جاء في (درة التنزيل): « لسانل أن يسأل عن التوكيد في سورة حم السجدة
في قوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وتعريفه الصفتين بالآلف واللام وترك
التوكيد بقوله هو وترك^(١) التعريف في: سميع عليم من الأعراف.

والجواب أن يقال: إن الذي في سورة السجدة لما كان بعد دعاء إلى ما
يشق على الإنسان فعله وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ويقابل غلظة عدوه بالملاينة
استكفافاً لشره وأذاه، حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعل
فيصير وإن كان عدواً كأنه صديق قريب القربى، ثم قال: ﴿ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ

(١) في المطبوع (وهو ترك) وما ذكرناه أشبه بالصواب.

صَبْرًا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُورٌ حَقِيظٌ عَظِيمٌ ﴿١١٩﴾ ... فلما كان الأمر الذي بعث الله تعالى أوليائه شاقاً عظيماً حتى قال: ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُورٌ حَقِيظٌ عَظِيمٌ﴾ كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ...

وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: ﴿خُذِ الزُّكْرَانَ مِنَ زُرْعِهِمْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف] ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة السجدة، بل كان ما هناك بعثاً على أحسن الأخلاق ولم يخص نوعاً من المشاق كما خص في سورة السجدة، فلم تقع المبالغة في اللفظ واقتصر في الخبر على الأصل وهو أنه: «سميع عليهم»^(١).

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان].

فأنت تلاحظ تشابه الآيتين إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج (هو الباطل) وخلوها منه في آية لقمان (الباطل). وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسولهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَائِنَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَمْسَحُنَا جُحِيمٌ﴾ [الحج].

إلى أن يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قِيلُوا أَوْ مَا تَأْتُوا بِنِعْمَتِهِمْ اللَّهُ يَرْزُقْكُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الحج].

(١) درة التنزيل ٤١٩-٤٢٠.

وهذا من نتائج الصراع، الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت. فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.

ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان].

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُهُ كُفْرُهُ إِذْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِزْرًا ﴿١٠١﴾ فَتَتَّبِعُهُمُ الْغَايَةُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿١٠٢﴾ تَتَّبِعُهُمْ الْغَايَةُ نَفْطَرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٠٣﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُبْلِغُ أَلِيلَ فِي النَّهَارِ وَيُبْلِغُ النَّهَارَ فِي أَلِيلٍ وَصَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا تَشَاءُونَ خَيْرٌ ﴾ ﴿١٠٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَلِكُ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان].

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف . فهم في الصورة الأولى ساعون معاجزون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض نتيجته هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكنهم من رقاب الناس فإن للسلطان فتنة ورهبة . فاقضى السياق تأكيد أن ما هم عليه هو الباطل .

وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجة بين الفريقين، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه .

فلم يقتض السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه لما تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ ﴿١٠٥﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَكَانَ الْعَشِيرُ ﴾ [الحج].

ولم يتقدم مثل ذلك في (لقمان) أكد ذلك في الحج . جاء في (ملاك التأويل) : « أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير

والتي هي أقوى من الفعلية وأكد، فناسب كل ذلك تأكيد الفوز وعظمه.

٢- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه زاد على الجنات ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن فقال: ﴿وَسَنُكِنُّكَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ فقد ذكر الجنة وذكر علاوة على ذلك المساكن الطيبة، فناسب ذلك أن يزيد في تأكيد الفوز.

٣- ومن ناحية أخرى أنه ذكر (من) في الآية الثانية دون الأولى فقد قال: ﴿جَنَّاتُ عَجْرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿جَنَّاتُ تَجْرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ومعنى (من) هنا الابتداء أي: أن الأنهار تنفجر من تحتها وهذه الحالة أكمل من الحالة الأولى فإنه قال فيها: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فإنه ذكر أن الأنهار تجري تحتها، وليس بدء الجريان منها، فناسب كل ذلك زيادة ضمير الفصل لتأكيد الفوز وعظمته. فسبحان الله العظيم، ما أجل هذا الكلام وما أعظمه وما أفخمه!

ثم انظر إلى دقيقة أخرى في هذا التعبير، وهو أنه حيث ذكر الجنات في القرآن قال: ﴿عَجْرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بذكر (من) إلا في هذا الموطن فقال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قيل: وسبب ذلك أنه حيث ورد ذكر الجنات ووردت (من) معها كان الكلام عاماً لعموم المؤمنين الذين فيهم الأنبياء والرسل وغيرهم ففيهم من هو أعلى منزلة من المذكورين في آية (السابقين). أما آية (السابقين) فهي مخصوصة بهم، فناسب ذلك أن يزيد (من) لأن فيهم من هو أعلى منهم.

جاء في (درة التزيل): أن «الذي أخبر عنهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار الأنبياء وغيرهم صلوات الله عليهم. و (من) لإبتداء الغاية، والأنهار أشرف مباديها، والجنات التي مباديها الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها. فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو لقوم عام فيهم الأنبياء. والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء. ألا ترى إلى قوله في سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَسِنُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا... ﴿١٠٣﴾ [التوبة].

إذ لا موضع في القرآن ذكرت فيه الجنات وجري الأنهار تحتها إلا وقد دخلتها (من) سوى الموضع الذي لم ينطق ذكر الموعودين فيها على الأنبياء عليهم السلام. فهذا الكلام في (من تحتها). اعتبروا بما ذكرت في جميع القرآن^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ ذَرَفٌ وَبُحْكُمُ فَعَبْدُهُ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ رَبِّكَ فَعَبْدُهُ﴾ [مريم].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَعَبْدُهُ﴾ [الزخرف].

فزاد ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، وذلك أن آية الزخرف قبلت في سياق عبادة عيسى وإتخاذه إلهاً بخلاف غيرها، فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له. جاء في (ملاك التأويل): «وأما زيادة الضمير الفصلي في سورة الزخرف فيحرز مفهومه معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم في الآية قبله. وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف] إلى ما يتلو هذه. ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَكُودُونَ﴾ [الأنبياء] تعلق بها الكفار وقالوا: قد عبدت الملائكة وعبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون، فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضىنا. وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَتَا مِعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء]. فلما كان تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: (آلهتنا خير أم هو) يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به من قوله حاكياً عن المسيح عليه السلام:

(١) درة التنزيل ١٠٢-١٠٣.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾... فأحرز هذا المعنى. ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ماورد هنا، فلم يحتج إلى الضمير المحرز كما ذكرناه^(١).

٢- وقد يستعمل طريقة أخرى للدلالة على التوكيد وهي أن يختص حرفاً بالدلالة على التوكيد دون نظيره، وذلك كاستعمال الهمزة وهل واستعمال حروف النفي فهو يستعمل (هل) للتوكيد دون الهمزة، ويستعمل (ما) للتوكيد دون (ليس)، ويستعمل (إن) أكد من (ما) بطريقة فنية عجيبة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا وَيَسَّ الْصَّيِّرُ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَنْ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء].

وقوله:

﴿قُلْ هَلْ لَّيْسَ لَكُمُ الْأَنْبِيَاءُ أَمْثَلُ﴾ [الكهف].

فاستعمل الهمزة و (هل) مع الفعل (نبا)، وعند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل (هل) لما هو أقوى وأكد في الاستفهام، وبين ذلك السياق.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَّائِنَاتُنَا يَذَّبْنَ تَصَدُّقٌ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُصَكَّرُ مَكَادُورٌ يَسْطُورُ وَالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ مَّائِنَاتُنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا وَيَسَّ الْصَّيِّرُ﴾ [الحج].

فاستعمل الهمزة.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ أَخَذُوا دِيْنَكُمْ هَذَا وَلَكُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

(١) ملاك التأويل ١/ ١٦٣-١٦٤.

يَكْفُرُوا بِالْكَفَارِ أُولَئِكَ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَخَذُوا هُزُوا وَلَبَّأَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ يَكْفُرُ الْكَافِرُ هَلْ تَتَّقُونَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا بَقِيَ وَمَا أُتْرِلَ لَنَا وَمَا أُتْرِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَتَقُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٠٣﴾ [المائدة].

فاستعمل (هل).

والفرق واضح بين السياقين، فأنت ترى أن في السياق الثاني قوة وتبكيلاً لا تجده فيما قبله. فذكر أن الكفار اتخذوا الدين والنداء والصلاة هزواً ولعباً. وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسح منهم قرده وخنازير وأنهم عبدوا الطواغيت. ثم قال (أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل). ويمضي في تبكيتهم ووصفهم بأقبح الوصف.

وليس الأمر كذلك في الآية التي قبلها، ولذا جاء في الأولى بالهمزة: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ وفي الثانية بهل: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟﴾.

ونحوه ما جاء في آية الشعراء ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿١٠٦﴾ [الشعراء].

إلى أن يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿١٠٧﴾ تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاوٍ أَثِيمٍ ﴿١٠٨﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٩﴾ [الشعراء].

فأنت ترى في السياق قوة وشدة بالغة في الرد على الكفرة المغترين فاستعمل لذلك (هل).

ونحوه ما جاء في سورة (الكهف) فقد قال:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاوَةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ﴿٢﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي آلِهَةً إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ﴿٣﴾ قُلْ هَلْ يُنْفِخُ الْأَنفُسَ أَعْمَلًا﴾ ﴿٤﴾ الَّذِينَ حَزَلَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي الْغَيَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُخَيَّرُونَ ضَرًّا أَوْ لَيْلًا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ لَمْ يَحْطُوا بِأَعْلَانِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُ لَهُمْ يَوْمَ يَقْبِضُوا ذَلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ وَمَا كَفَرُوا وَأَخَذُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ هُزُلًا﴾ ﴿٥﴾ [الكهف].

فإن قوة التبكيت وشدة التقرير واضحة في السياق، فاستعمل لذلك (هل) ولم يستعمل الهمزة.

وكذلك استعمال (إن) و (ما) النافيتين فيستعمل (إن) لما هو أكد، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ فَعَنَّهُمْ مَّن يَسْتَجِيبُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا فَلَا يُؤْمِنُوا بِهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ بِهِ جُودٌ لَّكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام].
وقوله:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيَأْمِنُنِي أَوْ لِيَكُنِيَ آيَةً أَن أَخْرَجَ خَلْقَ الْفَرُوسِ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَنبِغَانِ اللَّهَ وَيَبْلُغُ آيَاتِي إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف].

فقال في الآية الأولى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقال في الثانية: ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴾. والأولى أكد يدل على ذلك السياق فقد قال فيها:

١- وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.

٢- وفي آذانهم وقراً.

٣- وذكر أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

فأنت ترى أن درجة التكذيب أشد مما في الآية الأخرى، لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأولين أشد وأكثر، ولذلك أكد النفي فيها بـ (إن) بخلاف الثانية.

وقال تعالى:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البجائية].

وقال:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأُفٍّ لَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [٣٣] وَلَٰكِنِ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِلَّا لَكُمُ الْإِكْرَامُ

لَعَلَّيْمُ ﴿١٦﴾ أَيْدُكُمُ الْكُفْرُ إِنَّا بِكُمْ وَكُنْتُمْ تَرَايَا وَعِظْنَا الْكُفْرَ تَحْرُجُونَ ﴿١٧﴾ هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَيْلٌ أَقْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَمْ يُبْعِثِينَ ﴿٢٠﴾ [المؤمنون].

فقال في الآية الأولى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وقال في الثانية: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وواضح أن التكذيب في الآية الثانية أشد وأقوى من وجوه:

١- فقد أسند التكذيب والإنكار في الآية الأولى إلى ضمير الكفرة: (وقالوا).
وأما في الثانية فقد أسنده إلى الكفرة صراحة مضيفاً عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَأُتِرْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
فهذه صفات تزيد في قوة التكذيب بخلاف الآية الأولى التي قال فيها: (وقالوا).

٢- المجادلة في صدق الرسل: فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ويشربون كما يشربون فلا ينبغي أن يطاعوا البتة.

٣- السخرية من الوعد بالحياة الأخرى: ﴿أَيْدُكُمُ الْكُفْرُ إِنَّا بِكُمْ وَكُنْتُمْ تَرَايَا وَعِظْنَا الْكُفْرَ تَحْرُجُونَ﴾.

٤- الاستبعاد المؤكد في قولهم: ﴿هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

٥- ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَيْلٌ أَقْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَمْ يُبْعِثِينَ﴾.

فكان طبعياً أن يكون إنكارهم أشد وأكد مما في الآية الأولى، ولذا جاء بيان وإلا وهو المناسب للسياق بخلاف الآية الأخرى، فإنه جاء بما وإلا لأنه أقل تأكيداً وقال تعالى:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَايِنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يَؤْتِي الْكَافِرِينَ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [الاحقاف].

وقال:

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ (١) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) إِنْ حَسِبْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ (٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥) قَالُوا لَنْ نَبْرُدَّ لَكَ لَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُصْرَبِينَ (٦) قَالَ رَبِّ إِنْ قَرَيْتُ كَذِبِي (٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَا وَجْهِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٨) فَأَنبِئْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُوبِ الْمُشْكُورِ (٩) ثُمَّ أَهْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٠) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١١) ﴾ [الشعراء].

فقال في الآية الأولى: ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

وقال في الثانية: ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴾.

ومن الواضح أن الآية الثانية في مقام المحاربة والمجادلة والجهاد في القول والتنقيص من المؤمنين، بخلاف الآية الأولى فإنها في مقام الدعوة الهادئة المبينة بالحجة. يدل على ذلك في الآية الثانية:

١- وصفهم المؤمنين بالارذلين.

٢- طلبوا طردهم فرد عليهم بقوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٣- تحذيرهم نوحاً والطلب إليه الكف عن الدعوة وإلا رجموه (لن لم تنته يأنوح لتكونن من المرجومين).

وأنت ترى أن المقام في الآية الأولى يختلف عنه في الثانية فجاء في الثانية بيان وإلا وجاء في الأولى بما وإلا^(١).

٣- وقد يستعمل طريقة أخرى للتوكيد وهي تكرار اللفظ الذي يريد توكيده، وذلك حسبما يقتضيه موطن الكلام وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران].

(١) انظر معاني النحو - باب الاستفهام وباب النفي.

وقال: ﴿وَيَحِذِرُكُمُ اللَّهُ أَنْ تُنْفَسُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ فَتَنْفَكُوا عَنْ أَفْعَالِكُمْ﴾ [آل عمران].

وكرر هذا المعنى فقال:

﴿وَيَحِذِرُكُمُ اللَّهُ أَنْ تُنْفَسُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ فَتَنْفَكُوا عَنْ أَفْعَالِكُمْ﴾ [آل عمران].

إلى أن ذكر الآية الكريمة. فانت ترى أن المقام مختص بالله وحده
فذكر طاعة الله وجعل طاعة الرسول تبعاً لها.

وكذلك آية آل عمران ١٣٢ فلم يكرر فيها لفظ الطاعة فقد قال قبلها:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران].

في حين كرر لفظ الطاعة في الآيات الأخرى لأن السياق يقتضيها - ففي آية
النساء ٥٩. جعل طاعة الله وطاعة الرسول أصلية ليفصل بين طاعة الرسول
وطاعة أولي الأمر، فهُمَا لَيْسَا بِنَفْسِ الْمَنْزِلَةِ ثُمَّ قَالَ: (فإن تنازعتم في شيء
فردوه إلى الله وإلى الرسول) فالرسول مرجع للفصل بخلاف أولي الأمر. ثم
قال بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء].

فقد جعل الرسول مرجعاً كالقرآن، ثم قرر حكماً ثابتاً فيما بعد
فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [النساء].

فانت ترى أن المقام ههنا مقام تبيان طاعة الرسول فكررها لما كان السياق
يقتضيها. وكذلك ما جاء في سورة النور الآية ٥٤، فقد تكرر ذكر الرسول
وذلك قوله:

﴿أَمْ يَتَفَقَهُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرُسُلَهُمْ بَلْ أَوَلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور] ﴿لَمَّا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ
دَعُوا إِلَى اللَّهِ وَرُسُلِهِ لِنَحْكُمَ بَيْنَكُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور] وَمَنْ يُطِيعِ
اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَنَحْشُ اللَّهُ وَنَتَّقُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور].

ثم انظر كيف قال فيما بعد: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُلَ
لَعَلَّكُمْ تَرْجَعُونَ﴾ [النور].

فجعل طاعة الرسول مقترنة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فأنت ترى أن السياق يؤكد لفظ طاعة الرسول.

وكذلك ما جاء في سورة محمد - الآية ٣٣ فقد ورد لفظ الرسول وطاعته وعدم مشاقته فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ لَنَ يُصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُخْطِطُ أَعْمَلُهُمْ ۖ﴾. وكذلك ما جاء في التغابن فقد ختمها بقوله: ﴿قُلْ إِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۖ﴾ [التغابن]. هذا وإن كل آية ختمت بمثل هذا التعقيب كرر فيه لفظ الطاعة للرسول.

فانظر دقة هذا التعبير وسُمُوهُ.

ونحوه قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿الَّذِينَ يُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [هود].

فقد قال في آية الأعراف: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، وقال في هود: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فزاد: (هم) للتوكيد، وذلك لما زاد على الأولين افتراء الكذب على الله. فقد قال في الأعراف:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَبْتِمُّونَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۖ﴾ [الأعراف ٤٤ وما بعدها].

وقال في هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۖ﴾ [الَّذِينَ يُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۖ] [أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

كَانُوا يَجْرُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿١٨﴾ ﴿هود﴾.

فقد ذكر في الأعراف من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً. وذكرها في هود وزاد عليها افتراء الكذب على الله فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. ثم ذكر أن الأشهاد يقولون أمام الخلق: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾.

فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة (هم)، وزاد لهم في العذاب فقال (يضاعف لهم العذاب)، وزاد في صفة الخسران فقال (هم الأخسرون).

فانظر إلى جلال هذا التعبير وسموه.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿وَلَن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر].

فذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية فاطر، ولم يذكرها في آية آل عمران، ذلك أن هذا التكرار يفيد التوكيد، والمقام في (فاطر) يقتضي هذا التأكيد إذ هو في مقام الإنذار والدعوة والتبليغ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَذِيرُ الَّذِينَ خَشَرُوا رَبَّهُمْ بِالْقَبْرِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَرَكِيَ فَلَئِمَّا يَنْزِلُ لِنَفْسِهِ. وَلِئِلَّا اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ وما يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٣﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٤﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٥﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَنْجَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿١٦﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿١٨﴾ وَلَن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٩﴾ [فاطر].

فلما كان المقام مقام إنذارٍ وتبليغٍ كرر الباء فقال: ﴿وَالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾^١ وَكَتَبَ الْتَنْبِيْهِ. لأن هذه هي كتب الإنذار والدعوة و التبليغ.

وليس المقام في آل عمران مقام تبليغ وإنذار بل هو كلام عام وذكر حوادث تاريخية معينة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدُا۟ أِِٔنَا۟ اَلَّا تُوۡفِىٰٓكَ رِسٰلُوۡهُ حَتّٰى يَأْتِيَنَا بِقُرْاٰنٍ تَاۡمِلُوۡهُ الشَّاۡرُۙ كُلّۡ قَدْ جَآءَكُمۡ رُسُلٌ مِّنۡ قَبْلِىۚ اِلَّا يَسْتَكْبِرُوۡۤا۟ فَتَلَۡتَمِۡهُمۡ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيۡنَ ﴿١٧٩﴾ اِنْ كَذَّبُوۡكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنۡ قَبْلِكَ جَآءُوۡا بِالْبَيِّنٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتٰبِ الْغٰثِ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران].

فلما لم يكن المقام كذلك لم يكرر الباء في وسائل الدعوة وكتبها إذ ليس المقام يقتضي ذلك.

ومما يقتضي التوكيد أيضاً في (فاطر) قوله تعالى: (وإن يكذبوك) بصيغة المضارع فإن هذا مما يفيد استمرار التكذيب بخلاف ما في آل عمران، فقد قال: (وإن كذبوك). فإن في آية فاطر من الاستمرار على التكذيب مالمس في آية آل عمران، فافتضى التوكيد، ولذا عقب بعد ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَافٍ كَافٍ﴾.

وقد تقول : ولم ورد الفعل بصيغة المضارع في (فاطر) وبصيغة الماضي في آل عمران؟

والجواب: أن التكذيب في سورة آل عمران منصب على ذكر حادثة تاريخية معينة، هي الآية التي ذكرناها أعني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدُا۟ أِِٔنَا۟ اَلَّا تُوۡفِىٰٓكَ رِسٰلُوۡهُ حَتّٰى يَأْتِيَنَا بِقُرْاٰنٍ تَاۡمِلُوۡهُ الشَّاۡرُۙ كُلّۡ قَدْ جَآءَكُمۡ رُسُلٌ مِّنۡ قَبْلِىۚ اِلَّا يَسْتَكْبِرُوۡۤا۟ فَتَلَۡتَمِۡهُمۡ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيۡنَ ﴿١٧٩﴾ اِنْ كَذَّبُوۡكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنۡ قَبْلِكَ جَآءُوۡا بِالْبَيِّنٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتٰبِ الْغٰثِ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران].

وأما في (فاطر) فالكلام في سياق الهداية والاستجابة فالمقام مقام تبليغ الرسالة ومقام الدعوة. فلما كان المقام في آل عمران تعقياً على أمر تاريخي انقضى وحادثة معينة ذهبت، جاء بالفعل على صيغة الماضي فقال: (وإن كذبوك).

ولما كان المقام في الثانية مقام إنذار وتبليغ ودعوة قال: (وإن يكذبوك) بصيغة الفعل المضارع الدال على التكرار والاستمرار لأن الدعوة مستمرة والتبليغ والإنذار مستمران متكرران. فجاء لكل مقام بما يناسبه.

ومما يقتضي التأكيد في (فاطر) أيضاً ذكر تاء التأنيت دون آية (آل عمران) فقد قال في (فاطر): (جاءتهم رسلهم) بذكر التاء مع الفعل (جاءتهم) وقال في آل عمران: (فقد كذب رسل من قبلك) بدون تاء فلم يقل: (فقد كذبت). وذكر التاء في مثل هذا الموطن كما هو معلوم يفيد الكثرة، فاقضى ذلك التوكيد في فاطر لكثرة المكذّبين دون آل عمران.

وقد جاء في (البرهان) للكرماني وغيره أن سبب الاكتفاء بباء واحدة في آل عمران وذكر ثلاث باءات في فاطر أن الكلام في آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير، ومن ذلك أن الفعل الذي جاء في جواب الشرط مبني للمجهول ولم يسم فاعله^(١).

وهذا سبب آخر يضاف إلى الأسباب التي ذكرناها، فإن التفصيل واضح في آية فاطر بخلاف آية آل عمران. ومما يدل على ذلك:

١- بناء الفعل للمجهول في آية آل عمران (كُذِّبَ) في حين ذكر الفاعل في آية فاطر فقال: (فقد كذب الذين من قبلهم).

٢- قوله في فاطر: (جاءتهم رسلهم) بذكر الفاعل ظاهراً في حين قال في آل عمران: (جاؤوا) بالضمير، فالتفصيل في فاطر أكثر وأوضح.

٣- ذكر الباء مع كل معطوف في (فاطر) (بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) وحذفها في آل عمران، مما يدل على مقام التفصيل في (فاطر) ومقام الاختصار في آل عمران.

٤- صيغة الفعل في (فاطر) أطول مما هي في آل عمران فقد قال في (فاطر): (وإن يكذبوك) وقال في آل عمران: (وإن كذبوك).

كل ذلك مما يدل على مقام الإطالة والتفصيل في فاطر دون آل عمران، فدل على أن تكرار الباء في (فاطر) أليق.

(١) انظر البرهان ١٢٤-١٢٥، درة التنزيل ٧٥.

فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته، فإن كلاً من مقامي التفصيل والتوكيد يقتضي تكرار الباء، فكيف بهما إذا اجتماعاً فانظر أي كلام هذا؟

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ...﴾ [البقرة].

فكرر (على) مع السمع. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في (وعلى سمعهم)؟

قلت: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة. وحين استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضعين»^(١).

٤- وكما يؤكد القرآن التعبير قد يخففه إذا اقتضى المقام ذلك، وذلك كأن يأتي بـ (إن) المخففة ونون التوكيد الخفيفة للدلالة على تخفيف التوكيد حسبما يقتضيه السياق ومقتضى الحال فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيلِينَ﴾ [يوسف].

﴿قَالُوا يَا هَٰؤُلَاءِ مَا نَحْنُ بِذُنُوبٍ إِنَّا كُنَّا خَاطِلِينَ﴾ [يوسف].

وهذا الكلام قاله أخوه يوسف والكلام موجه في الآية الأولى إلى أخيه يوسف وفي الثانية إلى أبيهم.

وأنت ترى أن إخوة يوسف قالوا لأخيه: (وإن كنا لخاطلين) بـ (إن) المخففة، وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِلِينَ﴾ بالمشددة. وقد يتبادر إلى الذهن أنه كان ينبغي أن يكون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أساءوا إليه إساءة مباشرة - أعني يوسف - كان عليهم أن يأتوا بإن المشددة للدلالة على زيادة التوكيد بخلاف التعبير مع أبيهم. غير أنك إذا أنعمت النظر وجدت الطريقة

التي استعملها القرآن هي المثلى. فإن إخوة يوسف لما رأوا أباهم وما حل به من جراء فعلتهم من الوهن واللوعة وحرقة الفؤاد وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى تأكيد الاعتذار والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم فإن الله أكرمهم بعدهم ويوآه مكانة عالية ويمكن له في الأرض، وكأن فعلتهم تلك عادت عليه بالخير والرفعة، بعكس ما جرت على أبيهم، فهناك فرق بين الحالتين، فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.

والذي يدل على ذلك السياق القرآني، فإن يوسف دعا لهم بالمغفرة من دون أن يسألوها منه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ﴾. وأما أبوه فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه، وإنما وعدهم بالاستغفار: ﴿قَالُوا إِنَّا تَابْنَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿قَالَ سَوْفَ أُسْتَفْرَضُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف] فوعدهم بالاستغفار في المستقبل. ثم انظر كيف جاء بـ (سوف) لا بالسين، و(سوف) أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِذَا تَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا تَلُوكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالَ يَنْفُورُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكُوتِ﴾ ﴿أَتُفْسِكُمْ رَسُولَ رَبِّ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَصْمَلُونَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلُمِ إِنَّهُمْ كَانُوا هَدَّابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء].

فأنت ترى أنه قال في سياق آيات الأعراف: (وإننا لنظنك من الكاذبين) وفي سياق آيات الشعراء: (وإن نظنك لمن الكاذبين). ويظهر سياق الآيات أن

التكذيب في آيات الأعراف أشد منه في آيات الشعراء، والذي يوضح ذلك أنه في آيات الأعراف قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ بخلاف آيات الشعراء فإنه قال: ﴿قَالُوا لَئِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١).

وأنت ترى الفرق بين القائلين ففي الآيات الأولى قول الملأ الذين كفروا. والقائلون في الآيات الثانية مختلطون، فإن فيهم الشديد التكذيب والقليل والإمتعة والخائف، فهو تكذيب مختلط لا يصل إلى تكذيب الذين كفروا خصوصاً. والذي يدل على ذلك قوله تعالى بعد آيات الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن فيهم قلة مؤمنة، فهو نسب الكلام في آيات الشعراء إلى أصحاب الأيكة عموماً، بخلاف آيات الأعراف فإنه نسب الكلام إلى الذين كفروا خاصة.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى وكيف تعقب الرسول كلام قومه بعد كل من الآيتين يتبين لك ما ذكرته واضحاً، فإن هوداً عليه السلام رد على قومه بآيات عدة: ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف] بخلاف آية الشعراء فإنه لم يزد على قوله: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَظْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢). ومن هنا يتبين الفرق واضحاً بين التعبيرين (١).

ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في يوسف:

﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ لَيْسَ جَنًّا وَلَكِنْ كُنَّا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [يوسف].

فقال: (ليسجنن) بنون التوكيد الثقيلة ثم قال: ﴿وَلَكِنْ كُنَّا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ بتخفيف النون: قالوا وذلك «أن امرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من أن يكون صاغراً» (٢) فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، وخفف حيث اقتضى تخفيفه.

٥- وكما يخفف التوكيد قد يزيد فيه إذا اقتضى الكلام ذاك. جاء في (الإنقان): «وتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه كقوله تعالى حكاية عن رسل

(١) انظر معاني النعم ١/٣٧٥ وما بعدها.

(٢) حاشية الصبان ٣/٢١٢ وانظر التصريح ٢/٣٠٢.

عيسى إذ كُذِّبوا في المرة الأولى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ فأكدوا بياً وإسمية الجملة. وفي المرة الثانية: ﴿رَبَّنَا بَعَلِّمْنَا إِنَّا لِلْعِلْمِ لَرَّسَلُونَ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا: ﴿مَا أُنْشِرُ إِلَّا بِشَرِّ مِثْلِنَا وَمَا أُنْزِلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْشُرَ إِلَّا تَكْذِيبُونَ﴾^(١).

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْقُرْآنَ إِذْ جَاءَهُمَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(٢) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ^(٣) قالوا مَا أُنْشِرُ إِلَّا بِشَرِّ مِثْلِنَا وَمَا أُنْزِلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْشُرَ إِلَّا تَكْذِيبُونَ^(٤) قالوا رَبَّنَا بَعَلِّمْنَا إِنَّا لِلْعِلْمِ لَرَّسَلُونَ^(٥) وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينُ^(٦) [يس].

فأنت ترى أن التكذيب والإنكار في المرة الثانية كان أشد من المرة الأولى إذ قالوا: ﴿مَا أُنْشِرُ إِلَّا بِشَرِّ مِثْلِنَا وَمَا أُنْزِلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْشُرَ إِلَّا تَكْذِيبُونَ﴾^(٧) وهددوهم بالرجم إن لم يتنهدوا عن دعوتهم: ولذا كان الرد في المرة الثانية أقوى، ففي المرة الأولى قالوا: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ وفي المرة الثانية قالوا: ﴿رَبَّنَا بَعَلِّمْنَا إِنَّا لِلْعِلْمِ لَرَّسَلُونَ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٨) [هود]. بدون تأكيد.

وقوله:

﴿وَلَنْ لَّرَّقِيفٍ لَّنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٩) [الأعراف] بتوكيد الجواب.

وقوله:

﴿لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٠) [الأعراف]

بتوكيد الجواب وباللام الموطنة قبل الشرط.

فالثالثة أكد من الثانية، والثانية، أكد من الأولى وذلك حسبما يقتضيه السياق.

(١) الإتيان ٦٤/٢-٦٥ وانظر الإيضاح ١٨/١.

قال تعالى في سياق الآية الثالثة: ﴿وَلَا تُقِطُوا آيِدِيَهُمْ وَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

وهذا في بني إسرائيل بعدما عبدوا عجل الذهب واتخذوه إلهاً لهم، وهو كفر صريح وضلال مبين، ولذلك عند توبتهم أكدوا قولهم باللام الموطنة زيادة على تأكيد الجواب: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وأما الآية الثانية التي هي: ﴿وَلَنْ لَوْ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف] فهي على لسان آدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها.

وهذه المعصية أقل من معصية بني إسرائيل، فإن معصية قوم موسى كفر لأنه عبادة لغير الله، ولم يفعل ذلك آدم بل هو مقر بربوبية الله ومقر بعبوديته لربه، وإنما هي لحظة ضعف أدركته كما تدرك الكثير من الناس من غير أن تخرجهم عن دينهم ثم يتوبون عنها. ألم تر كيف وصف بني إسرائيل بالضللال فقال: ﴿وَرَأَوْا أَنْفُسَهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ ولم يصف آدم بذلك. فلما كانت المعصية أقل حذف اللام الموطنة التي تفيد التوكيد.

فالأول أكد لأن المعصية أكبر. فالتوبة وطلب المغفرة يكونان على قدر المعصية.

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود]. فهي على لسان نوح عليه السلام، وذلك أنه سأل ربه أن ينجي ابنه من الفرق، لأن الله وعده أن ينجي معه أهله فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنبِئُكَ أَنَّكَ لَا تَغْفِرُ لِي ذُنُوبِي وَلَا تَرْحَمُنِي وَأَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود]. فقال الله له: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود].

فطلب نوح من ربه المغفرة والنفو لسؤاله هذا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود] فهذا ليس بمعصية كمعصية آدم، وإنما فهم نوح أن ابنه يدخل مع أهله الناجين، فيبين الله أنه ليس من أهله لأنه كافر، فطلب من ربه المغفرة لما سأل، ولذلك لم

يأت الكلام مؤكداً. فأنت ترى أن التوكيد يتناسب وقدر المعصية. فلما لم يكن سؤال نوح معصية لم يؤكد كلامه. ولما كان فعل آدم معصية لربه أكدته بالنون. ولما كان فعل بني إسرائيل كفراً وضلالاً أكدته بالنون وباللام الموطئة، فالخسران إنما يكون على قدر المعصية ولا شك.

ثم ألا ترى كيف قدم الرحمة على المغفرة مع بني إسرائيل: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَرَحْمْنَا رَبُّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا﴾ بخلاف الآيتين الآخرين، فإنه قدم المغفرة على الرحمة، وذلك لأن الرحمة أعم وأوسع من المغفرة فإن الرحمة لعموم الخلق حتى البهائم. ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر فكلهم يعيشون في رحمة الله. فالبهائم تعيش برحمة الله، والبهائم تتراحم فيما بينها، ولا يصح وصفها بالمغفرة فإذا طرد أحد من رحمة الله فلا مطمع له في شيء بعد. فالمغفرة تأتي بعد الرحمة وهي رحمة خاصة بالمؤمن فالرحمة تأتي أولاً ثم المغفرة، فمن لم يرحمه ربه لا يغفر له. ومن غفر له كان مرحوماً، وليس كل مرحوم مغفوراً له، فالخلق كلهم في رحمته. ولذا قدم هؤلاء الذين كفروا وضلوا الرحمة على المغفرة، فهم كانوا أحقاء بأن يطردهم من رحمة الله إذا ما بقوا على ذلك، ولذا طلب هؤلاء الرحمة أولاً ليكونوا كعموم الخلق الداخلين في رحمته ثم المغفرة فيما بعد. وهذا يتناسب مع كبر معصيتهم، فإنهم حذروا أن يؤسهم ربهم من رحمته، فأرادوا أن يشملهم ربهم برحمته ليكون ذلك مرقاة إلى المغفرة، بخلاف الآيتين السابقتين فليس الأمر فيهما كذلك^(١).

فانظر إلى فخامة هذا الكلام وعظمته .

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِي نَزَّلَ إِلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَكَ اللَّهُ لَهَوُ الْغَفَى الْحَسِيدُ ﴿١٧﴾ الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ

(١) انظر (معاني النحو) ٥٦٠/٤ وما بعدها.

سَمَرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَجْزِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُحْيِي السَّمَكَةَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ [الحج].

وقوله:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان].

وقوله:

﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت].

فقد قال في آية الحج: ﴿وَالِلَّهِ اللَّهُ لَهُمُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج] وقال في لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان]. فأكد الغنى في الحج أكثر مما في لقمان، إذ زاد اللام فيها فأدخلها على (هو). وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه والطافه بهم ما لم يذكره في لقمان، وفصل في الغنى في سورة الحج ما لم يفصله في لقمان فقد قال: ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ [الحج] بتكرار الاسم الموصول، وأجمل ذلك في لقمان فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [لقمان]. فلم يكرر (ما). فلما فصل في الحج وزاد على ما ذكره في لقمان، زاد اللام في الحج فقال: ﴿لَهُمُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج].

وأما السياق في العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان وذلك أنها في سياق الفتن والابتلاء قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِنَّمَا أَنتَ مُنْكَرٌ وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت] فاختلف التوكيد والخاتمة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغني وزيادة اللام في الحج. وجاء بضمير الفصل وتعريف الغني من دون اللام في لقمان.

ولم يأت بضمير الفصل ولم يعرف الغني في العنكبوت.

وذلك أنه في الحج ولقمان ذكر لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق.

وأما في العنكبوت فلذكر غناه عن خلقه . وثمة فرق بين الغنيين فالأول: غنى ملك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين . وأنت ترى فرقاً بين أن تقول: إنَّ فلاناً يملك كذا وكذا ويعطي وينفق ويتفضل، وقولك: هو مستغن عن الناس: فإن معنى القول الثاني أنه مكثف وإن لم يكن غنياً، ألا ترى إلى قول الخليل:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير أني لست ذا مال
فهناك فرق بين المستغني عن الناس والغني المالك المتفضل .

فلما فرق بين الحاليين فرق بين التعبيرين .

ثم أنظر إلى خاتمة الآي في كل منها فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه والطفاه على خلقه قال: (الغني الحميد) أي : الذي يُحمد على نعمه، وكذلك السياق في لقمان . وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذكر الفتن التي نسال الله العافية منها لم يقل: (الغني الحميد) بل قال: (غني عن العالمين) أي: غني عن جهادهم . فسبحان الله رب العالمين .

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف].

فأكد سرعة العقاب بـ (إن) واللام في الأعراف فقال: (لسريع العقاب)، أما في الأنعام فأكده بـ (إن) فقط، وذلك أن الآية في سورة الأعراف ذكرت في سياق العقوبات العاجلة في الدنيا، وأن الآية في الأنعام ذكرت في سياق العقوبات الآجلة في الآخرة . فقد قال تعالى في (الأعراف): ﴿فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَبْجَسْنَا لَهُمْ يَتَهُونَ عَنِ الشُّعُورِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا هَوَّأَ عَنْ مَا هُوُوا عَنْهُ فَلَمَّا كُنُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَّبُّكَ بِسَمْعَانِ عَلَيْهِمَا يَوْمَ الْيَقِينِ مَنْ يَشُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف].

وقال في سورة الأنعام: ﴿لَا تَزِدْوا رِزْقَهُ وَلا تَزِدْوا آخِرَهُ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ تَرْجِعُهُمْ فَيَنْتَفِكِرُ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام].

فلما عجل لهم العقوبة في الدنيا في سورة الأعراف أكد سرعة العقاب بأن واللام، ولما أمهلهم إلى يوم القيامة في سورة الأنعام قلل توكيد سرعة العقاب لأنه لم يسرع في عقوبتهم بل أمهلهم. جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين أن «الفرق بين هذه الآية وآية الأنعام حيث أتى هنا باللام فقال: (للسريع العقاب) دون هناك، أن اللام تفيد التوكيد فأفادت هنا توكيد سرعة العقاب لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل وهو عقاب بني إسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ في سياق قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكَ لِبَعْثِنَا عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ مِنْهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ...﴾ [الأعراف]. فتأكيد السرعة أفاد بيان التعجيل وهو مناسب، بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام فإنه أجل بدليل قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ تَرْجِعُهُمْ فَيَنْتَفِكِرُ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام] فاكتفى فيه بتأكيد (إن).

ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد لفظاً بيان واللام^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر].

وقوله:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخْرِجُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه].

فأكد إتيان الساعة بيانً واللام في غافر وبياناً وحدها في سورة طه وذلك لأسباب عدة منها:

إن الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون الساعة فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءِ آيَاتِنَا أَنْتَهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مِّمَّا هُمْ

(١) البرهان ٦٦-٦٥/٤ وانظر ملاك التأويل ٣٦١-٣٦٠/١.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّامُ السَّاعَةِ الْغَيْبُ ﴿١٠١﴾ [غافر] ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر].

أي: لا يؤمنون بالساعة.

أما في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السلام وموسى غير منكر لها. ولذا أكدها مع الكافرين الذين ينكرونها أكثر مما أكدها مع موسى عليه السلام.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى فقد قال تعقياً على إتيان الساعة في سورة غافر: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها، بخلاف سورة طه فقد قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه].

فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع وأن يحذف ما حذف.

ومن ناحية أخرى إن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيامة بل إن جو السورة هو في الكلام على الساعة. قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَكَ فِي النَّارِ قِيَمَةَ الصُّعُفَةِ الَّتِي أَتَمَّكَ بِهَا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعَمَّا فَهَلَ أَشَرُّ مُقْتُونٍ عَنَّا فَرِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر].

وانظر الآيات من ٧٠-٧٦ فاقترضى المقام زيادة التوكيد في هذه السورة.

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «إن العرب تحرص على التوكيد في موضعه وتركه في غير موضعه... والخطاب لقوم كفار ينكرونها. والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام وهي ضمن كلام الله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه].»

وقال: ﴿... وَأَقْرِ السَّلَوَةَ لِلْخَيْرِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا...﴾ [طه] ولم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجاحدين له. على أنه تحميل له ليعلم قومه وهو: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَذُنَّ﴾ [طه]. - فإذا كان الأمر على ما بينا وضع الفرق بين الموضعين بالذي ذكرناه^(١).

(١) درة التنزيل ٤١١-٤١٢، وانظر ملاك التأويل ٦٧٥/٢ وما بعدها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

وقوله:

﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان].

فأكد ما في الشورى بـ (إِنَّ) واللام وأكد ما في لقمان بـ (إِنْ) فقط.
والسياق يوضح سبب ذلك.

قال تعالى في الشورى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

وقال في لقمان: ﴿يَتَّبِعْ أَفْرِ الْفِكْلَ وَاتُزَكِّهِ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان].

فقد أوصانا ربنا في الشورى بشيئين: الصبر والمغفرة لمن أساء إلينا فقال:
﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾. وأوصى لقمان ابنه بالصبر فقال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾،
والأول أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال: ﴿إِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

جاء في (البرهان) للكرمانى: إن سبب ذلك «لأن الصبر على وجهين: صبر
على مكروه ينال الإنسان ظمناً كمن قتل بعض أعزته. وصبر على مكروه ينال
الإنسان ليس بظلم كمن مات بعض أعزته. فالصبر على الأول أشد والعزم عليه
أؤكد. وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول لقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾
فأكد الخبر باللام.

وفي لقمان من الجنس الثاني فلم يؤكد باللام،^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ بِمَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة].

(١) البرهان ٤٢٧ وانظر درة التنزيل ٤٢٧-٤٢٨.

وقوله :

﴿وَتَمَارَوْا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقَوْنَ وَلَا تَمَارَوْا عَلَى الْإِثْرِ وَالْمَدُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [المائدة].

وقوله :

﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَارَبَ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [الأنفال].

فكلها قال فيها: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بـ (إن) وحدها، في حين قال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [الرعد]. فأكد بـ (إن) واللام.

وقد زاد اللام في الرعد لما مرَّ قبلها من ذكر العقوبات وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ ولما ذكر من عقوبات الكافرين: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْيُنِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ [الرعد].

وليس السياق كذلك في الآيات الأخرى ولا شيء فيه. فلما كان السياق في الرعد سياق العقوبات اقتضى زيادة توكيدها.

وشبهه بذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَاوٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [البقرة].

وقوله :

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسَى جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [البقرة].

وقوله :

﴿فَإِنْ تَنَزَّلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنْ أَنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [البقرة].

وقوله :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [آل عمران].

وقوله :

﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَهْلِ مِثْرَاقٍ مَبْرُكَةٍ لَا يَنْفَعُ عَنْهُمْ إِذْ قَالُوا اللَّهُ عَفْوَ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة].

وقوله :

﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَهْلِ مِثْرَاقٍ وَلَا عَاقِبَةَ لَكُمْ عَنْهُ رَبِّكُمْ عَفْوَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام].

فكلها أكدها بـ (إن) وحدها وهو قوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوَ رَبِّهِمْ﴾ أو (ربك) في

حين قال :

﴿وَلَنْ تَسُدُّوا يَمَّةَ اللَّهِ لَتُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفْوَ رَبِّهِمْ﴾ [النحل].

فأكدها بـ (إن) واللام.

وسبب ذلك أن سياق آيات النحل هو في تعداد نعم الله على الإنسان ورحمته به ولطفه بخلقه، فقد ذكر خلق الأنعام وما فيها من منافع للإنسان من دفاء وركوب وحمل للأثقال وغيرها. وذكر منافع الزروع، وذكر نعمته عليه في البر والبحر وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من النعم، فناسب ذلك تأكيد المغفرة.

وليس السياق في الآيات الأخرى كذلك ولا شيء منه فيه.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في آية الرعد في ذكر العقوبات أكد العقوبة، ولما كان السياق هنا في ذكر النعم والألطف الإلهية أكد المغفرة فوضع كل في موطنه الذي هو أليق به. ومن ذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد].

وقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفْوٌَ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

فأكد قوته وعزته بـ (إن) واللام في الحج دون آية الحديد وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في سورة الحج : ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ نَصْرِهِمْ لَقَبِيرٌ﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

بَعْضُهُمْ يَتَّبِعُ لَهْوَ مَتَّ صَوْبُحٍ وَبَيْحٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسْجِدٍ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠١﴾ [الحج].

فأنت ترى أن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين بالجهاد وقاتل الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلماً، وقد ذكر أن الله قادرٌ على نصرهم وقد وعدهم بالنصر فقال مؤكداً ذاك: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ ولا شك أن النصر يحتاج إلى قوة فأكد قوته وعزته به (إن) واللام، وقد ناسب تأكيد النصر تأكيد القوة.

وليس السياق كذلك في الحديد. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

فأنت ترى أنها ليست في سياق الجهاد والقتال ولا في سياق نصر الله للمؤمنين، بل في سياق نصر المؤمنين لدعوة الله ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾. فالأولى في نصره هو لجنوده المستضعفين فأكد قوته، والثانية في نصر المؤمنين لدعوته.

فزاد في المقام الذي يقتضي زيادة التأكيد.

فسبحان الله رب العالمين. ما أجل هذا الكلام وأعظمه وأفخمه ! لقد جل هذا الكلام عن أن يكون له نظير، كما جل قائله عن النظير، فإنه ليس كمثل كلامه كلام، كما أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

التشابه والاختلاف

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة. أو في نحو ذلك. وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزيئاته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز. وكلما تأملت في ذلك ازدادت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم.

فمن ذلك استعمال لفظ (مكة) و (بكة) لأم القرى.

جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران].

فاستعمل اللفظ (بكة) بالباء في حين قال:

﴿وَمَوْ أَلَدِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الفتح].

فاستعمل لفظ (مكة) بالميم وهو الاسم المشهور لأم القرى.

وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه في الحج يبك الناس بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها^(١).

وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها أعني: (مكة) بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم.

(١) انظر مفردات الراغب ٥٧.

ولا مانع أن يكون ذلك لكلا السبين .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُنْفِقُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١١٩ ﴾ [النساء] .

وقوله :

﴿ إِن تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمًا ۝١٢٠ ﴾ [الأحزاب] .

فقد قال في آية النساء : ﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا ﴾ وفي الأحزاب : ﴿ إِن تَبْدُوا شَيْئًا ﴾ ، وذلك أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ... ﴾ فذكر أن الله لا يحب الجهر بالسوء ، ولذا قال بعدها : ﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا ﴾ أي : إن تظهروا خيراً ، وهو عكس الجهر بالسوء . فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير .

وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال قبلها : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ... ﴾ [الأحزاب] . وقال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝١٢٠ ﴾ [الأحزاب] وختم الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمًا ۝١٢١ ﴾ [الأحزاب] ومعنى الآية إنه يستوي عنده السر والجهر ، فناسب أن يقول : ﴿ إِن تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ لا أن يقول : ﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا ﴾ هذه علاوة على مناسبة كلمة (شيء) الواقعة قبلها وبعدها ، فوضع كل لفظة في مكانها المناسب لها .
هذا من ناحية .

(١) انظر (معجزة القرآن الكريم) ٦٧ ، ١٧٧ .

ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري لكل سورة في هاتين السورتين يقتضي وضع كل لفظة من هاتين اللفظتين في موضعها. ذلك أن كلمة (خير) ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة^(١) ولم ترد في سورة الأحزاب إلا مرتين^(٢).

وأن كلمة (شيء) ترددت في سورة النساء إثني عشرة مرة^(٣) وترددت في سورة الأحزاب ست مرات^(٤)، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللفظتين لكل آية فمن الواضح أن تختار كلمة (خير) لآية النساء وكلمة (شيء) لآية الأحزاب.

فاقتضى التعبير اختيار كل لفظة من جهتين: جهة المعنى والسياق. وجهة اللفظ.

فانظر أي تعبير هذا؟

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَبَتْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْإِنْفَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالِي فِيهِ قُلْ وَقَاتَلُ فِيهِ كَيْفُ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَلِأَخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْإِنْفَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ﴾ [البقرة]
فقد قال في الآية الأولى: (أشد) وفي الآية الثانية: (أكبر) وذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كبريات الأمور فقد مر فيها قوله: ﴿قُلْ وَقَاتَلُ فِيهِ كَيْفُ﴾ وقوله: ﴿وَلِأَخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فناسب ذكر (أكبر) فيها.

وليس السياق كذلك في الآية الأولى، وإنما هي في سياق الشدة على الكافرين فقد قال فيها: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَبَتْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْإِنْفَةُ أَشَدُّ مِنْ

(١) انظر الآيات: ١٩، ٢٥، ٤٦، ٥٩، ٦٦، ٧٧، ١١٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٩، ١٧٠، ١٧١.

(٢) انظر الآيتين: ١٩، ٢٥.

(٣) انظر الآيات: ٤، ١٩، ٢٠، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٥٩، ٨٥، ٨٦، ١١٣، ١٢٦، ١٧٦.

(٤) انظر الآيات: ٢٧، ٤٠، ٥٢، ٥٤ (مرتين)، ٥٥.

الْقَتْلَ ﴿٢٣٤﴾ [البقرة]. وهذه شدة ظاهرة فناسب ذكر (أشد) فيها بخلاف الآية الثانية.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة هود:

﴿وَنَنْقُزُكَ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ [هود].

ووردت في غير هذا الموضع كلمة (أجر) يدل كلمة (مال). فقد جاء في سورة يونس على لسان نوح عليه السلام:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ [يونس].

وجاء على لسانه أيضاً في سورة الشعراء:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء].

وكذا وردت كلمة (أجر) بدل كلمة (مال) على لسان غيره من الأنبياء - انظر: سورة هود ٥١ وسورة الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وسورة سبأ ٤٧).

وسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة (مال) وقعت بعدها كلمة (خزائن) ولفظ المال بالخزائن اليتى^(١). فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في هذا الموضع قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ...﴾ [هود] فناسب ذكر المال مهمنا بخلاف المواضع الأخرى.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ لَكُمُ فِي الْأَنْتَمِ لَعِبَةٌ شَتِيقُكُمْ يَمَّا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْنِ وَدَرِ بَنَاتٍ خَالِصَاتٍ سَاهِيًا لِّلشَّيْرِينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿وَلَئِنْ لَكُمُ فِي الْأَنْتَمِ لَعِبَةٌ شَتِيقُكُمْ يَمَّا فِي بَطُونِنَا وَلَكُمُ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون].

(١) انظر البرهان للكرمانى ٢٣٤-٢٣٥.

فقد قال في آية النحل: ﴿شُعَيْبٌ رَّيًّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقال في آية المؤمنون: ﴿شُعَيْبٌ رَّيًّا فِي بُطُونِهَا﴾.

وسبب ذلك أن الكلام في آية النحل على إسقاء اللبن من بطون الأنعام. واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من قسم من الإناث. وأما في آية (المؤمنون) فالكلام على منافع الأنعام من لبن وغيره، فقد قال بعد قوله: ﴿شُعَيْبٌ رَّيًّا فِي بُطُونِهَا﴾: ﴿وَلَكَّرَ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً وَرَبَّهَا فَأَكُونَ﴾ [المؤمنون].

وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها صغارها وكبارها. فجاء بضمير القلة وهو ضمير الذكور للأنعام التي يستخلص منها اللبن، وهي أقل من عموم الأنعام، وجاء بضمير الكثرة وهو ضمير الإناث لعموم الأنعام. فلما كانت الأنعام في الآية الثانية أكثر جاء بالضمير الدال على الكثرة. وهذا جارٍ على وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أن المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف المذكر، وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَسُوَّةٌ﴾ بتذكير الفعل (قال)، وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآئِمًا﴾ بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلة بخلاف التأنيث، وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل في شرحها وبيانها. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «أن الأنعام في سورة النحل وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها، ألا ترى أن الذر لا يكون لجميعها وأن اللبن لبعض إناثها فكانه قال: ﴿وَلَا لَكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَةٌ شُعَيْبٌ رَّيًّا فِي بُطُونِهِ﴾. ولهذا ذهب من ذهب إلى أنه رد إلى النعم لأنه يؤدي ما تؤديه الأنعام من المعنى. والمراد والله أعلم ما ذكرنا بالدلالة التي بينا.

وليس كذلك ذكرها في سورة المؤمنين لأنه قال: ﴿شُعَيْبٌ رَّيًّا فِي بُطُونِهَا وَلَكَّرَ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً وَرَبَّهَا فَأَكُونَ﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٦٨﴾ فأخبر عن النعم التي في أصناف النعم إناثها وذكرها فلم يحتمل أن يراد بها البعض كما كان في الأول ذلك^(١).

(١) درة التنزيل ٢٦٨.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَوْ جُئْتُمُ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا ۝١﴾ [الفتح].

وقوله:

﴿وَلَوْ جُئْتُمُ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٦﴾ [الفتح].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. قيل: وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين إيماناً فقد قال قبلها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلَوْ جُئْتُمُ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ... ۝١﴾ [الفتح] فهذا موضع علم وحكمة فقال: ﴿عَلَيْكُمْ حَكِيمًا﴾.

وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات فقد جاءت بعد قوله: ﴿وَمُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنَّ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَآخِرَةُ السُّوءِ وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١﴾ وَلَوْ جُئْتُمُ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ... ۝٦﴾ [الفتح] فهذا موضع عزة وغلبة وحكم فقال: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وشبه بهذا قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١١﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٢﴾ [الفتح].

فهذا في مقام النصر وأخذ الأموال والغنائم فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكم فقال: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٢٠﴾ [الروم].

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٢١﴾ [الزمر].

(١) انظر البرهان للكرمانى ٤٣٩.

فقد قال في آية الروم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وفي آية الزمر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ وذلك أن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر مما في الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات^(١) وفي الزمر ست مرات^(٢). ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة^(٣) وفي الروم عشر مرات^(٤). فاستحقت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.

ثم انظر إلى طريقة أخرى في التعبير فقد جاء بفاقدي البصر في سورة الروم فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ...﴾ [الروم] وجاء بفاقدي العلم في آية الزمر فقال: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ مَا مَرَوْا بِأَعْيُنِنَا جَهَنَّمَ لَنُحِيطَ بِهَا بِلَاغٍ﴾ [الزمر].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَّخِيرٍ﴾ [النمل].

وقوله:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوَّقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر].

فقد قال في النمل: ﴿فَفَزِعَ﴾ وفي الزمر: ﴿فَصَوَّقَ﴾، وإنما قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله: ﴿إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ فإن ذلك في مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَّخِيرٍ﴾، وهو المناسب للفرع إذ معنى داخرين: صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه.

ثم انظر كيف قال بعد آية النمل: ﴿مَنْ جَاءَهُ يَأْكُشْكُ فَلَهُ أَجْرٌ حَسْبُ وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ مُّامِنُونَ﴾ [النمل] فأمنهم من الفرع الذي يصيب الخلائق يوم القيامة.

(١) انظر الآيات: ٩، ٢٤، ٣٧، ٤٢، ٤٨، ٥٠، ٥١.

(٢) انظر الآيات: ٢١، ٣٨، ٥٨، ٦٠، ٦٨، ٧٥.

(٣) انظر الآيات: ٩، ٧، ٢٦، ٢٩، ٣٩، ٤٦، ٤٩ (مرتين)، ٥٢، ٧٠.

(٤) انظر الآيات: ٦، ٧، ٢٢، ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٥٤، ٥٦ (مرتين)، ٥٩.

أن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة) ثم تهتز وتربو وتنبث من كل زوج بهيج .

وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت . ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك ، لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود^(١) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ ﴾ [آل عمران] .

وقوله :

﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة] .

فقد عبر في آية آل عمران بالإيمان وفي آية التوبة بالإسلام ، وذلك لاختلاف حال من عني بهما «وقد ذكر المفسرون أن آية آل عمران نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري ، وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكفار ثم ندم ، فأرسل إلى قومه ليسألوا رسول الله ﷺ هل له من توبة؟ فسألوا فتزلت الآية فكتبوا بها إليه فأسلم وحسن إسلامه . فكانت حاله حال إيمان ولم يكن في إسلامه أولاً ممن عرف بنفاق ، ولا أنه أبطن خلاف ما ظهر منه من إسلامه ، فكانت حاله حال إيمان وتصديق ولم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان . فناسب وصفه بالإيمان وهو التصديق بالقلب .

أما آية التوبة فتزلت في الجُلَّاس حين قال في غزوة تبوك : لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمر . فُنمي ذلك إلى رسول الله ﷺ فاستدعاه فحلف ما قال . وكان منافقاً معروفاً بنفاق يتظاهر بالإسلام ويبطن خلافه . فأنزل الله في قضيته : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة] فقيل هنا : (بعد إسلامهم) مناسبة للحال^(٢) .

(١) التصوير الفني ٩٩ .

(٢) ملك التأويل ١٦٦/١ - ١٦٧ .

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَجْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر].

وقوله:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾﴾ [الزخرف].

فقال في آية الحجر: (من رسول) وقال في آية الزخرف: (من نبي) وذلك أنه: لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك من يوحى إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل. فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام.

أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب التكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه عليه السلام وتسليته، فخصت بالتعيين باسم الرسالة تسلية له عن قولهم: (إنك لمجنون) وبما جرى للرسول قبله عليه السلام من مثل ذلك. ومن البين أن موقع (رسول) هنا أمكن في تسليته عليه السلام. فجاء كل على ما يجب من المناسبة ^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ وَهُمْ مُسْتَعْفِفُونَ يُحْمَدُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿١﴾ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٢﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ... ﴿٣﴾﴾ [غافر].

وقوله:

﴿وَاللَّاتِيكَةُ يُسْتَغْفَرُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَتَاهُ اللَّهُ هُوَ الْمَقْرُورُ الرَّجِيمُ ﴿١﴾﴾ [الشورى].

فقال في (غافر) ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال في الشورى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. وذلك لأسباب عدة منها:

(١) ملاك التأويل ٥٨٤/٢.

١- أن آية غافر ذكرت جماعة مخصوصة من الملائكة وهم حملة العرش ومن حوله، وآية الشورى ذكرت عموم الملائكة. فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.

٢- ثم لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال (ويؤمنون به) ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.

٣- ثم إن قوله: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ يفيد التخصيص ولا يفيد العموم، فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

٤- ثم إنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين، ناسب ذلك ذكر المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن تسأل الجنة لكافر.

وأما آية الشورى فلم يرد فيها مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تُقَيِّدُ هذا العموم.

ثم إنه لما ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّا اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ناسب ذكر هاتين الصفتين وقصرهما وتعريفهما وتأكيدهما ذكر العموم. فانظر فخامة هذا التعبير وجلاله.

ومنه قوله تعالى :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ [آل عمران].

وقوله :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ...﴾ [الجمعة].

فقليل في الأولى: (من أنفسهم) وفي الثانية: (منهم) وذلك أن قولك: (فلان من أنفس القوم) أوقع في القرب والخصوص من قولك (فلان منهم). فإن هذا قد يراد للنوعية فلا يختص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقرينة. أما (من)

أنفسهم) فأخص فلا يفتقر إلى قرينه. ولذلك حيث ورد قصد التعريف بعظم النعمة به ﷺ وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورافته ورحمته بهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ [التوبة] وقال تعالى فيمن كان على النذ من حال المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل]. فتأمل موقع قوله هنا: (منهم) لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة للنجاة لقليل هنا: (منهم)...

ولما كان لفظ الأميين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب قيل: (منهم) فناسبت هذه الآية بما فيها من الشيع الذي مهدناه عموم الأميين من العرب ممن أسلم وممن لم يسلم. ولما قال في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فخص من أسلم ناسب ذلك قوله: (من أنفسهم) بخصوصه كما تقدم. ولم يكن العكس ليناسب^(١).

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿يُخْرِقُونَ الْكِتَابَ عَنْ مَّوَاضِيَةٍ...﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿يُخْرِقُونَ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِيَةٍ...﴾ [المائدة].

فقد قال في الآية الأولى: (عن مواضعه) وفي الثانية: (من بعد مواضعه) وذلك أن الكلام في الآية على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ والذين حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً^(٢). فقد قال في الآية الأولى: ﴿... وَفِيمَا تَقْضِيهِمْ يَشْتَلِقُهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُخَرِّقُونَ الْكِتَابَ عَنْ مَّوَاضِيَةٍ...﴾ [المائدة].

(١) ملاك التأويل ١٧٨/١-١٧٩.

(٢) انظر البرهان للكرمانى ١٣٨، ملاك التأويل ٢٤٢/١ وما بعدها.

وقال في الآية الثانية: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّوتًا لِلْكَذِبِ سَكَّوتًا﴾^(١) ﴿الْمَائِدَة﴾ فجاء في الآية الثانية بكلمة (بعد) لأنها «قد تكون لما تأخر عن زمانه بأزمة كثيرة وبزمن واحد و (عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه»^(٢).

وجاء في الأولى بـ (عن) لأن الزمن ملاصق، فوضع كل لفظ في المكان الذي هو أليق به. ومن بديع ذلك وطريفه قوله تعالى:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) ﴿الأنعام﴾.

وقوله:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٤) ﴿الشعراء﴾.

فقد ذكر (سوف) في آية الأنعام فقال: (سوف يأتيهم أنباء...) وذكر السين في آية الشعراء فقال: (فسَيأتيهم).

وذكر (الحق) في آية الأنعام فقال: (فقد كذبوا بالحق)، ولم يذكره في آية الشعراء. ولكل من ذلك سبب يدعو إليه.

أما ذكر (الحق) في آية الأنعام فإنه تردّد في هذه السورة اثنتي عشرة مرة^(٥) ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء فتناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.

وأما ذكر (سوف) في الأنعام فيفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن (سوف) أبعد في الاستقبال من السين. ولوضع كل من سوف والسين موضعها عدة أسباب منها:

١ - أن المعنيين في سورة الشعراء هم قوم الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة بذلك على ذلك قوله تعالى: ﴿لَكَ لَبِيقٌ فَسَبِّحْهُ لَا يَكُونُ لَكَ مُؤْمِنِينَ﴾^(٦) ﴿إِنْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَظُلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَسَفُوا﴾^(٧) ﴿الشعراء﴾.

(١) درة التنزيل ٩١.

(٢) انظر الآيات: ٣٠، ٥٧، ٦٢، ٦٦، ٧٣ (مرتين)، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١.

وأما ما ورد في سورة الأنعام فلمعموم الكافرين ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُوكَ﴾ فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا الرسول وكذبوه قبل الأبعاد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد.

علاوة على ما في السورة من تسليية للرسول فقد قال له: لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فَهَوِّنْ عَلَيْكَ الْأَمْرَ، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.

٢ - ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.

٣ - ثم إن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء:

أ - فقد أمر الرسول في الأنعام أن يقول أنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾.

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُتِحَ الْأُمُّرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾. فناسب عدم الاستعجال ذكر (سوف) ههنا.

ب - ورد في الأنعام قوله: ﴿قُلْ يَتَّقُوا أَفْعَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَذَابُ الْأَلَدِ﴾ فذكر (سوف) ولم يذكر السين وهو الملازم للجو العام للسورة.

ج - ثم انظر كيف قال في موطن آخر من سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِي الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فقد ذكر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي تعجيل العقوبة، ثم قال: (ليجمعنكم إلى يوم القيامة). وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيامة.

فناسب ذلك كله وضع (سوف) دون السين في الأنعام.

د - قال في ختام سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكَ لَفَنُورٌ زَجِجٌ﴾ ﴿١٥١﴾ فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكدهما بإن واللام، وأكد سرعة العقاب بإن وحدها، كما أنه لم يؤكد كما أكدها في سورة الأعراف مثلاً فقد قال هناك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكَ لَفَنُورٌ زَجِجٌ﴾ ﴿١٥٢﴾ [الأعراف] فأكد سرعة العقاب بإن واللام، وذلك لما كان الموطن في الأعراف تعجيل العقوبات في الدنيا أكد سرعة العقاب ولما لم يكن الأمر كذلك في الأنعام لم يؤكد سرعته وهذا ينافي تعجيل العقوبة.

هـ - ثم انظر كيف قال تعالى في مكان آخر من سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام] فقد جاء بـ (ثم) الدالة على التراخي والبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٥٤﴾ [النمل] فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب.

ووضع (ثم) في آية الأنعام هذه علاوة على أنه من المناسب للجو العام للسورة يقتضيها السياق أيضاً من عدة نواح، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء. فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ وختمت آية النمل بقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٥٤﴾، والمكذب قد تعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم فإن المجرم ينبغي أن يؤخذ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء مع (المكذِبِينَ) بـ (ثم) ومع المجرمين بالفاء. فاقضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التكذيب والسخرية في النمل أكبر مما في الأنعام فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَنَبَاتًا أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ مَبْهُوتِينَ ﴿١٥٥﴾ لَقَدْ وَعدنا هذا نحن وءآبؤنا من قبل إن كنا منكم هالكين ﴿١٥٦﴾﴾ [النمل].

ثم جاء بالآية: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾.

ثم صبر الرسول بعدها بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ [النمل] فاقضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

ثم انظر من جهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل] بخلاف قوله تعالى في الأنعام: (ماعندي ماتستعجلون به). فناسب كل ذلك ذكر (ثم) في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل. لقد تبين من كل ذلك أن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر (سوف) فيها بخلاف آية الشعراء.

فانظر هداك الله أي تعبير هذا؟

ومن هذا الباب الاختلاف في التعريف والتنكير وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَبْغِي الْحَقَّ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿... وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران].

فعرّف (الحق) في الأولى ونكره في الثانية، وذلك أن كلمة (الحق) المعرفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حق يدعو إلى قتل ولا غيره. أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم. فكلمة (حق) ههنا نكرة عامة، وكلمة (الحق) معرفة معلومة. والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره^(١). فمقام التبشيع والذم ههنا أكبر منه ثم وكلاهما شنيع وذميم.

فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم وإليك سياق كل من الآيتين:

فقال تعالى: ﴿... وَشَرِيتَ عَلَيْهِمُ الرِّذْلَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءَهُمْ يَنْتَسِرُونَ إِلَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكَفِّرُونَ بَأْسَ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَبْغِي الْحَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة]. فعرّف (الحق) فيها.

(١) انظر ملاك التأويل ١/ ٧١-٧٣.

وقال: ﴿صُرِّتَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَنْ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَقِصَ مِنْ اللَّهِ وَصُرِّتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران] فنكر (الحق).

ومن الواضح أن موطن الهم والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها:

أنه في سورة البقرة جمع (الدلة) و (المسكنة) وأما في آية آل عمران فقد أكد وكرر وعمم فقال: ﴿صُرِّتَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَنْ مَا تَقِفُوا﴾ فجعلها عامة بقوله: (أيضا ثقفوا) ثم قال: ﴿وَصُرِّتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قولك: (أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) أكد من قولك (أنهاك عن الكبر والرياء).

ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال: (ويقتلون النبيين) وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال: (ويقتلون الأنبياء) أي: يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حق.

فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتذكير في آية آل عمران أليق^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّعْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَزْوَاجَهُمْ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ [البقرة] فعرف (المعروف).

وقال في آية أخرى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ...﴾ [البقرة]. فنكره.

(١) انظر معاني النحو - باب المعرفة والتكرة - المعروف بال.

وذكر أن المقصود بـ (المعروف) ههنا الزواج خاصة، وأما غير المعرف فيراد به ما لم يستنكر فعله من خروج أو تزويج ونحوه. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول: ما الفائدة التي أوجبت اختصاص المكان الأول بالتعريف والباء فقال: (بالمعروف) والمكان الثاني بالتذكير ولفظه (من).

والجواب عن ذلك أن يقال: إن الأول تعلق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ [البقرة: ٢٣٥]. أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده.

والثاني: المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود. فالمعروف، ههنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه. ولهذا المعنى خص بلفظ (من) ونكر، فجاء (المعروف) في الأول معرف اللفظ لما أشرت إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه، فعرف إذ كان معرفة مقصوداً نحوه وكذلك خص بالباء وهي للإلصاق.

والثاني كان وجهاً من الوجوه التي لهن أن يأتينه فأخرج مخرج النكرة لذلك^(١).

(١) درة التنزيل ٥٢-٥٣.

ومما يدل على ذلك أيضاً أمور منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: ﴿يَرْبِضْنَ بِأُنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فقوله: (يربضن) معناه: يصبرن أنفسهن هذه العدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالبلاء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِيَكُنَّ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَكُنَّ لَهُنَّ﴾ [البقرة].

وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص ولا للعدة التي يحق لهن الزواج بعدها.

ومن ناحية أخرى أنه عرف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونكر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين. بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك.

ومثل هذا استعماله للفظي (الكذب) و (كذب) بالتعريف والتكثير، فاستعمل (الكذب) بالتعريف لما هو خاص بأمر معين. و (كذباً) بالتكثير لما هو عام.

قال تعالى:

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّهِنَّ إِذْ هُنَّ لَمَّ يَتَذَكَّرْنَ أُمَّ مَا هَلَّ مِنْكُمْ شَيْءٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُنَّ لَا يَعْلَمْنَ شَيْئًا بِمَا حَكَمَ اللَّهُ قُلِ الْغَايِبَةُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ٣٥]

فجاء بالكذب ههنا معرّفًا لأنه مخصص بهذه المسألة أي: مسألة الطعام.
ومثله قوله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْفَرِيدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ عِنْدَكُمْ مِنْ شَائِعِينَ هَذَا أَوْفُقُونَ عَلَى اللَّهِ مَّا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُعْبُدْكُمُ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

فَعَرَفَ الْكَذْبَ لِأَنَّهُ مُخَصَّصٌ بِمَسْأَلَةٍ مَعِينَةٍ وَهِيَ زَعْمُهُمْ اتِّخَاذُ اللَّهِ وَلَدًا سُبْحَانَهُ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرٍ وَلَا سَابِئَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَأَكْتَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المائدة].

فاستعمل الكذب معروفاً لأنه مخصص بمسألة الأنعام .

في حين قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [١٦٦] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [١٦٧] [الأنعام] .

فالكذب ههنا عام ولم يخصص بمسألة معينة .

ونحوه قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ حِكْمٌ وَلَا آذَنْتُمْ بِهِمْ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [١٦٨] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِمَا يُؤْتِيهِ الْكُتُبُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [١٦٩] [يونس] .

وقوله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ... ﴾ [١٧٠] [الشورى] .

وقوله :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَيْبٌ لِّمَنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٧١] [المؤمنون] .

فأنت ترى أنه استعمل المعرف لأمر مخصص، في حين استعمل المنكر لما هو عام .

ومن هذا الباب قوله تعالى :

﴿ ... فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الْفَٰلِظِينَ ﴾ [١٧٢] [المؤمنون] .

بتعريف (القوم) .

وقوله :

﴿ ... فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٧٣] [المؤمنون] .

بتنكير (قوم) .

وذلك لأن الأولى في قوم معينين وهم قوم صالح فترفعهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾... ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرُونًا ۚ أَتَىٰ خَلْقًا ۖ﴾ [المؤمنون] وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ۚ كُلًّا مَآجَةً ۖ إِنَّهُمْ رَسُولُنَا كَذَّبُوا ۖ فَاتَّبَعْنَا بِهِمْ حَتَّىٰ حَسِبُوا أَنَّ هَالِكِينَ إِلَيْنَا قَالُوا ۖ﴾ [المؤمنون] فخصهم بالنكرة (١).

ومنہ قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغْنَاكَ مِنَ النِّجْنِ نَزَعْنَا مَا تَمَوْذُ بِأَقْوَامٍ سَمِعُوا عَلِيمٌ﴾ [الأعراف].
 وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغْنَاكَ مِنَ النِّجْنِ نَزَعْنَا مَا تَمَوْذُ بِأَقْوَامٍ سَمِعُوا عَلِيمٌ﴾ [فصلت].

فقد وردت الصفتان في الأعراف منكرتين (سميع عليم) ووردتا في (فصلت) معرفتين وزيد قبلهما ضمير الفصل.

[illegible]

فوصف الله نفسه بالسمع والعلم في مقابل آلهتهم التي لا تسمع ولا تني.
وأما آية فصلت فقد تقدم قبلها قوله: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمْلِكُ كَثِيرًا وَمَتَّعَكُمْ﴾ [فصلت].

(١) انظر البرهان للكرمانى ٣٣٨، حرة التنزيل ٣١٦-٣١٧.

فَأَتَبَتُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَلِيلَ الْعِلْمِ وَنَفَوْا عَنْهُ كَثِيرَهُ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَبِينَ لَهُمْ أَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَصَرُ بِالْعِلْمِ الْكَامِلِ وَالسَّمْعِ الْكَامِلِ، فَجَاءَ بِالصَّفَتَيْنِ مَعْرِفَتَيْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْكَمَالِ فِي الْوَصْفِ، وَجَاءَ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قَصْرِ هَاتَيْنِ الصَّفَتَيْنِ عَلَيْهِ. سُبْحَانَهُ وَيَبِينُ أَنَّ مَا عَدَاهُ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَسْمَعُ إِذَا مَا قِيسَ بِعِلْمِهِ وَسَمْعِهِ. وَلَوْ جَاءَ بِهِمَا نَكْرَتَيْنِ لَمْ يَفِيدَا هَذَا الْمَعْنَى، إِذْ كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ سَمْعٌ وَعِلْمٌ يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. جَاءَ فِي (مَلَكَ التَّأْوِيلِ): «إِنْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ تَقْدُمُ فِيهَا قَبْلَ الْآيَةِ وَصَفَ آلِهَتُهُمُ الْمُنْحَوْتَةُ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالخَشَبِ الَّتِي وَيَخُوعُوا بِعِبَادَتِهَا فِي فِي قَوْلِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿أَتَقْبِذُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾» [الصفات] فَوَصَفَ هُنَا بِأَنَّهُ لَا تَخْلُقُ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً ﴿وَلَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدِينِ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾» [الأعراف] فَنفى عَنْهُمْ الْقُدْرَةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَآلَةَ الْبَطْشِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَهُمْ أَزْجَلُ يَمْسُحُونَ بِهَا أَرْهَامَ أَتَدْرِي يَبْطِشُونَ بِهَا﴾» [الأعراف].

وَلَمْ يَتَقَدَّمْ هُنَا مَا يَوْهَمُ أَدْنَى شَيْءٍ يُلْحِقُهَا بِشِبْهِ الْأَحْيَاءِ فَضْلاً عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ، فَوُرِدَتِ الصَّفَتَانِ بِقَوْلِهِ: (سَمِيعٌ عَلِيمٌ) مُورِداً لَمْ يَتَقَدَّمْهُ مَا يَوْهَمُ صِلَاحِيَّةَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ تَعَالَى مِمَّا عِبَدُوهُ مِنْ دُونِهِ مِمَّا قَصِدَ هُنَا، وَلَا ذَكَرَ دَعْوَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَدْعٍ، فَيَسْتَدْعِي ذَلِكَ التَّوْهَمَ مَفْهُوماً بِنَفْيِهِ فَجَاءَ عَلَى مَا يَجِبُ.

أَمَّا آيَةُ السُّجْدَةِ^(١) فَتَقَدَّمُ قَبْلَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمَلِكُ كَثِيراً وَمَا تَعْلَمُونَ﴾» [فصلت] وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَفَّيْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾» [فصلت] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا الَّذِينَ أَهْلَاكُنَا مِنْ أَلْجُنِّ وَالْإِنْسِ﴾» [فصلت] فَحَصَلَ مِنْ هَذَا أَنَّ مُضِلَّهُمْ إِنَّمَا كَانَ مِنْ عَالَمِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَكِلَا الصَّنِفَيْنِ مُوصُوفٍ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ مِمَّنْ يَنْسَبُ إِلَيْهِ عِلْمٌ، بِخِلَافِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ فِي الْأَعْرَافِ.

فَلَمَّا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ السُّجْدَةِ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ الْغَنَاءُ وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْمَعَ وَيُبْصِرَ وَيَعْلَمُ، نَاسِبُهُ التَّعْرِيفُ فِي الصِّفَةِ لِيُعْطِيَ بِالْمَفْهُومِ نَفْيَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ الْمَوْصُوفِ

(١) المقصود فصلت.

بهما تعالى. ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي التخصيص ليقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بـ (دليل الخطاب)، فصار الكلام في قوة أن لو قيل: الله السميع العليم لا غيره^(١).

ومنه الاختلاف في التعريف، فقد يعرف اللفظة مرة بآل ومرة بالإضافة وذلك نحو قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَسْتَهْزِئْ بِكُمْ فِي يَوْمٍ كَانَ وَعْدُهُمُ لِلْعَالَمِينَ أَن يُجِيبَهُمْ رَبُّهُمْ سَاعًا﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَلَا تَحْزَنْهُمْ يَمْدُودُهُمْ فِي الْغَيْ ثَمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

فقد عرف (الطغيان) بالإضافة وعرف (الغِي) بآل، وذلك أنه أسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال: (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) فالله إنما يمددهم في طغيانهم هم، ولا يمددهم في طغيان جديد لم يفعلوه.

في حين أسند المد في آية الأعراف إلى الشياطين فذكر أنهم يمدونهم في غي جديد لا في غيهم وحده، فهم يضيفون غياً إلى غيهم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: أي نكتة في إضافته إليهم؟

قلت: فيها أن الطغيان والتماذي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحتة أيديهم وأن الله بريء منه...»

ومصدق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْهُمْ يَمْدُودُهُمْ فِي الْغَيْ﴾^(٢).

ومن ذلك الاختلاف في استعمال حروف العطف.

فهو يستعمل حروف العطف في غاية الدقة والجمال، فمن المعلوم أن الواو تأتي لمطلق الجمع، وأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، و (ثم) تفيد الترتيب والتراخي.

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) الكشاف ١/ ١٤٥-١٤٦.

ومعنى الترتيب أن المذكور أولاً، هو الذي حدث أولاً والمذكور بعده هو الذي حدث بعده. ومعنى التعقيب أنه حصل بعده بلا مهلة، فإذا قلت: (جاء محمد فخالد) كان معناه أن محمداً حضر قبل خالد وأن خالداً حضر بعده بلا مهلة.

ومعنى التراخي أن بينهما مهلة فقولك: (حضر محمد ثم خالد) يفيد أن حضور محمد قبل حضور خالد وأن بينهما مهلة وليس كالفاء. ومهلة كل شيء بحسبه فإذا قلت: (تزوج أحمد فولد له) كان معناه أنه لم يكن بين الزواج والولادة إلا مدة الحمل^(١) أما إذا قلت: (تزوج أحمد ثم ولد له) كان معنى ذلك أن الحمل تراخى عن الزواج.

وأما الواو فكما ذكرنا لمطلق الجمع، أي: ليست للترتيب وإنما هي لمجرد الاشتراك في الحدث، فإذا قلت: (حضر أحمد وخالد) كان من الممكن أن يكون حضر أحمد قبل خالد أو خالد قبل أحمد أو حضرا معاً. وقد يكون بينهما مهلة أو لا يكون بينهما مهلة. وليس معنى ذلك أنها لاتأتي للترتيب البتة، بل قد تأتي للترتيب وغيره، فهي ليست نصاً في الترتيب ولا في غيره.

وقد استعمل القرآن ذلك ألطف استعمال وأدقه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُ فَأَقْبِرْهُ ثُمَّ إِشْرَاقُ الشَّرْقِ﴾ [حسب] فجاء في (أقبره) بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة وجاء بعده بـ (ثم) لأن النشور يتأخر عن الدفن^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمَنًا فَلَمَّا جَاءَكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ﴾ [البقرة].

فجاء بالإحياء الأول بالفاء، وما بعده بـ (ثم) لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت^(٣).

(١) انظر التصريح على التوضيح ١٣٨/٢.

(٢) انظر التصريح على التوضيح ١٣٨/٢، ١٤٠.

(٣) الكشف ٢٠٨/١.

وشبهه بذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهوَ يُحْيِيهِ﴾ ﴿١﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُهُ وَنَسْفِينِ ﴿٢﴾
وَلَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٣﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ شَرًّا يُصِيبُهُ ﴿٤﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئِي
يَوْمَ الْقِيَامِ ﴿٥﴾ [الشعراء].

« فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهداية للخلق... وكان
العطف في الآية الرابعة بـ (ثم) لتراخي الإحياء عن الإماتة »^(١).

وأما الفاء في قوله: (فهو يشفين) فهي الرابطة للجواب وليست عاطفة.
ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَابَىٰ إِلَهُهُ أَنَّ خَلْقَهُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتَرُ بِشَرٍّ
نَتَقَرُّوهُ﴾ ﴿٦﴾ [الروم].

وقوله: ﴿وَمَنْ ءَابَىٰ إِلَهُهُ أَنْ يَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا
أَنتَ تَخْرُجُونَ﴾ ﴿٧﴾ [الروم].

« قال ههنا: ﴿إِذَا أَنتَ تَخْرُجُونَ﴾ وقال في خلق الإنسان أولاً: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتَرُ
بَشَرٍّ تَتَقَرُّوهُ﴾ فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدرج وتراخ حتى يصير
التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون
تدرج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا: ثم »^(٢).

ويعد هذه المقدمة في معاني حروف العطف، نعود إلى التشابه والاختلاف
فيها. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
النُّعْنَ ﴿٨﴾ [طه].

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ ﴿٩﴾ [السجدة].

(١) التعبير الفني في القرآن ١٨٧ وانظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ١٤٢.

(٢) التفسير الكبير ١١٦/٢٥.

فقال في آية (طه): (أفلم) بالفاء، وقال في آية السجدة: (أولم) بالواو لأنه ذكر في سورة طه العقوبات في الدنيا علاوة على عقوبة الآخرة فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأُنْفَى﴾ [طه] فذكر المعيشة الضنك في الدنيا ثم قال: (ونحشره يوم القيامة أعمى). وقال: (وكذلك نجزي من أسرف...) والمقصود به في الدنيا، ثم قال بعده: (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) بخلاف ما في سورة السجدة فإنه آخر الأمر إلى يوم القيامة، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة]. فجاء بالفاء في (طه) لأنها تفيد التعقيب وجاء بالواو في السجدة.

ومن الاختلاف في هاتين الآيتين في غير العطف قوله تعالى في السجدة: (من قبلهم من القرون) وفي طه: (قبلهم من القرون) بدون (من) وذلك أنه ذكر في سورة السجدة هلاك و وفاة من هم في زمانه فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ لَوْ أَنَّا لَخَلْقُ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة]. ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ لَكُمْ رَبُّكُمْ ثُمَّ تَحْمَوْنَ﴾ [السجدة].

فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في (طه) فإنه ذكر قوم موسى وأحوالهم، وهم قبل الرسول بمدة طويلة وليسوا من قبله.

ثم انظر كيف ختم آية السجدة بقوله: (أفلا يسمعون) وذلك لأنهم يسمعون بما حصل للأقرب إليهم، فإن خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السماع بخلاف الأقدمين... وهذه إشارة تهديك إلى خاتمة آية (طه) لتنظر جلالة هذا الكلام وارتفاعه.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ أَنْبَاءُ جِبَّتَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ [هود].

وقوله:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ أَنْبَاءُ جِبَّتَيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ [هود].

فجاء في هاتين القصتين بالواو في حين قال:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا حَبْلًا مِّنَ الذُّبُرِ ۖ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمُوا صِبْيَانَكُمْ ۚ وَفَضَّلْنَا هُودًا عَلَىٰ سُلَيْمَانَ ۖ وَتَبَارَكُ اللَّهُ الَّذِي فِي يَدَيْهِ الْغَيْبُ ۚ لَا يُفْصِحُ السُّحُورَ ۚ ﴾ [هود].

وقال في قصة لوط:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَاقًا ۖ ﴾ [هود].

بالفاء وسبب ذلك أن « العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد. فإن في قصة هود: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ ۚ الْيُكُوفُ وَتَسْلُفُ رَقِي قَوْمًا غَيْرُكُمْ ۖ ﴾ [هود].

وفي قصة شعيب: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود] والتخويف قارنه التسويف فجاء بالوارو المهملة.

وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد، فإن في قصة صالح: ﴿ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ﴾ [هود] وفي قصة لوط: ﴿ أَلَيْسَ الشُّعْبُ بِغَيْرِهِ ۖ ﴾ [هود] فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلِئِنْ مَّا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَلْفَاكًا ۖ ﴾ [الكهف].

وقوله:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقَرِفُونَ ۖ ﴾ [السجدة].

قال في آية (الكهف): ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وقال في آية السجدة: ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وذلك أن وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع منه في آية السجدة، إذ هو واقع في عقب التذكير، يدل على ذلك قوله تعالى في آية الكهف: ﴿ وَلِئِنْ مَّا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ ﴾ وهذا الوصف

(١) البرهان للكرمانى ٢٣٦-٢٣٧، درة التزئيل ٢٣٤-٢٣٥.

ما يسرع في إعراضهم ثم قال فيما بعد: ﴿وَلَيْكَ مَدْعُهُمْ إِلَى الْهَدْيِ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فذكر صممهم ويعدمهم عن الهدى.

وليس الأمر كذلك في آية السجدة، فناسب ذلك ذكر الغاء في آية الكهف لدلالاتها على الترتيب والتعقيب و (ثم) في آية السجدة لدلالاتها على التراخي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الغاء قد تدل على السبب فجاء بالغاء للدلالة على أن التذكير كأنه كان سبباً لإعراضهم وزيادة رجسهم كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا الْوَيْتَ فِي قُلُوبِهِمْ قُرْشٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِنَّ رِجْسَهُمْ﴾ [التوبة].

فأنت ترى أن آية الكهف تقتضي الغاء من أكثر من جهة بخلاف آية السجدة. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [النمل].

وهاتان الآيتان في قوم لوط، فقد جاء في آية الأعراف بالواو فقال: (وما كان جواب قومه)، وجاء في آية النمل بالغاء فقال: (فما كان جواب قومه) مما يدل على أن الجواب كان أسرع منه في آية الأعراف.

وسياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكر.

فقد قال في الأعراف: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَتْحَةَ مَا مَسَّبَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَكِينَ﴾ [١١٠] إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿١١١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُونَ ﴿١١٢﴾ [الأعراف].

وقال في سورة النمل: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَتْحَةَ وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ﴾ [١١٠] إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُبْعِرُونَ ﴿١١١﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا مَا لَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُونَ ﴿١١٢﴾ [النمل].

فأنت ترى أن مقام الإنكار والتفريع في سورة النمل أشد منه في سورة الأعراف، يدل على ذلك أمور منها:

١- قوله تعالى في الأعراف: ﴿إِن كُنتُمْ تَأْتُونَنَا لَ الْكِبَالِ﴾ وفي النمل: (إنكم) بإدخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوبيخ.

٢- قوله في الأعراف: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾ وفي النمل: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجَاهِلُونَ﴾ والوصف بالجهل فيه زيادة تفريع، لأن نسبة الإنسان إلى الإسراف أهون من نسبته إلى الجهل، فإذن إذا قلت لشخص: (أنت مسرف في هذا الأمر) كان أهون عليه من قولك: (أنت جاهل).

ولذلك بادروا بالرد عليه بسرعة ولم يترثوا لأنه أغاظهم في الكلام أكثر مما في الأعراف فجاء بالفاء.

ومما يدل على شدة غيظهم ذكر اسمه صراحة في النمل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ بخلاف ما في الأعراف فقد جازوا بالضمير: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾.

وقد تقول: وهل هناك تناقض بين القولين والقصة واحدة؟

والجواب: لا، وذلك لأن الواو لا تناقض الفاء، فإن الواو لمطلق الجمع كما ذكرنا، فقد يكون ما بعدها واقعاً في عقب ما قبلها وقد يكون متأخراً عنه وقد يكون متقدماً عليه. وأما الفاء فتفيد الترتيب فهي تفيد أحد معاني الواو. فذكر معنى الترتيب والتعقيب في النمل لأن الموطن يقتضيه، وأطلق ذلك في الأعراف لأن الموطن لا يقتضي التعقيب. وهذا من أعجب الكلام وأدقه.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن النصيحة تكررت من لوط في أزمنة مختلفة وبأساليب مختلفة، فيمكن أنه قال بعضها بصيغة أشد من الأخرى، وذلك أنه كلما تكررت الدعوة وتكررت النصيحة كان ذلك مدعاة إلى المبالغة في القول والنصيحة. وكل ذلك جائز والله أعلم.

ومن ذلك التشابه والاختلاف في حروف النفي وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمُنُّونَ أَبَدًا وَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَنَّهُ عِلْمٌ بِالْغُلِيِّينَ﴾ [الجمعة].

وقوله :

﴿وَلَنْ يَسْتَمْتُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

فنفى التمني في الآية الأولى بـ (لا) فقال: ﴿وَلَا يَسْتَمْتُوهُ﴾ ونفاه في الثانية بـ (لن) فقال: ﴿وَلَنْ يَسْتَمْتُوهُ﴾ وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَرْسِلَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا التَّوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة] وَلَا يَسْتَمْتُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [البقرة].

وقال في البقرة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا التَّوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة] وَلَنْ يَسْتَمْتُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [البقرة] وأنت ترى الفرق واضحاً بين السياقين، فإن الكلام في الآية الثانية على الآخرة ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ...﴾ والدار الآخرة استقبال فنفي بـ (لن) إذ هو حرف خاص بالاستقبال.

وأما الكلام في الآية الأولى فهو عام لا يختص بزمان دون زمن: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَرْسِلَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ فهذا أمر مطلق فنفي بـ (لا) وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم.

ومن ناحية أخرى أنه لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً غير مقيد بزمان نفاه بـ (لا) التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ (لن) التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة، وهو تناظر فني جميل.

وقد مر في باب التوكيد في التشابه والاختلاف في أحرف النفي نحو قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ إِلَّا حَيَاتِنَا أَتَيْنَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية] وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِبَارِعِينَ﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف] وقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء] وغيره ما بغني عن إعادة ذكره.

ومن ذلك استعمال حروف الجر فقد استعملها استعمالاً لطيفاً بديعاً. فقد يعدل من حرف إلى آخر، أو يستعمل حرفاً مرة ثم يستعمل حرفاً آخر في موضع يبدو شبيهاً بالأول، وغير ذلك من الفنون التعبيرية لسبب يدعو إلى وضع كل حرف الموضع الذي وضعه.

فمن ذلك قوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿مَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنْ رَبِّهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوِيٍّ مُبِينٍ وَيُخَوِّعُهُمْ أَوْ لَوْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يَجْعَلُ لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة] فعذى (أذلة) جمع ذليل بـ (على) والأصل ان يعدى باللام لأنه يقال: (هو ذليل له) ولا يقال: (ذليل عليه) وقد عدل عن التعدية باللام إلى التعدية بـ (على) لأن المعنى يقتضي ذاك، إذ لو عده باللام لكان ذمّاً لا مدحاً. فقولك: (وهو ذليل له) يفيد الذم، وهو ههنا في مقام المدح، فجاء بـ (على) للإشعار بالذلة المستعيلة وللدلالة على خفض الجناح كما قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر] أي: هم يوطنون أكنافهم ويتواضعون مع علو جانبهم وارتفاع مكانتهم، فجاء بـ (على) للإشعار بالعلو (بخلاف ما لو قال (أذلة للمؤمنين) جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنتهم»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا أَوْ يَتَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبا] فاستعمل مع الهداية حرف الاستعلاء (على) ومع الضلال (في) وذلك لأن من كان على الهدى، كان

(١) الكشاف ٤٦٧/١.

مستعمل على الحق متمكن منه مثبت مما هو فيه، بخلاف من كان في الضلالة إذ هو كأنه ساقط فيها. والساقط في الشيء غير متمكن من نفسه، ألا ترى أن الرافق على الطريق ليس كالساقط في اللجة ؟ فالأول متمكن من نفسه بخلاف الآخر، ولذا جاء مع الهدى بحرف الاستعلاء ومع الضلال بفي قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۚ﴾ [البقرة] وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٧﴾ [النمل] فاستعمل للهدى (على) في حين قال: ﴿فَذَرْنَهُ فِي عَمَزَانِهِ ۚ إِنَّ جَنِّ ۝٧٨﴾ [المؤمنون] وقال: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ مِنَّمَا دُوِّنَ لَهُمُ﴾ [التوبة] وقال: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٩﴾ [الأعراف] وقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَسُدَّهُ الرَّحْمَنُ نَارًا ۝٨٠﴾ [مريم] أي: ساقطاً فيها.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَوْ يَبَاكُم لَعْنَىٰ هُدًى أَوْيَ صَلَكَ شَيْبَ﴾: «فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه»^(١).

وجاء في التفسير القيم في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۚ﴾ [البقرة]: «قيل: في أداة (على) سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٧﴾ [النمل] والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) تنامله فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضاً؟ وكيف يكون المؤمن مستعياً على الحق وعلى الهدى؟

(١) الكشاف ١/ ٥٦٢.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه فكان الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدال على انغماس صاحبه وانقماصه وتدسه فيه كقوله تعالى: ﴿فَهَمَزٌ فِي رَتْبِهِمْ يَرْجَدُونَ﴾ [التوبة] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ بِطَئِنِهِمْ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿فَذَرْنِي فِي عَمَزِنِهِمْ﴾ [المؤمنون] وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا لَمَّا كُنْتُمْ خَيْرَ لَوْمَةٍ مِنْهُمْ﴾ [هود].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا أَوْفَاكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ خَيْرَ لَوْمَةٍ مِنْهُمْ﴾ [سبا] فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاربة بسالكها في أسفل سافلين^(١).

ومن طريف استعمال حرف الجر قوله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [الزينة] إذا انحالوا على الناس يستوفون^(٢) وإذا كآؤهم أو زؤومهم يحسرون^(٣) [المطففين].

قيل: إن (على) هنا بمعنى (من). وقيل: بل هو متضمن معنى التسلط على الناس والتحكم، أي: تسلطوا عليهم بالاكتيال^(٤).

والظاهر أنه هو الصواب لأن هناك فرقاً بين قولك: (اكتال منه) و (اكتال عليه). فـ (اكتال منه) لا يفيد أنه ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف (اكتال عليه)، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء وهذا في المطففين. والمطففون كما بينهم القرآن إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه إذن معنى التحكم والجور والظلم، وهو أبلغ من (من) وليست بمعنى (من) ولا تنفيد (من) هذا المعنى.

ثم انظر إلى التعبير اللطيف الآخر بعده وهو قوله: ﴿وَلَا كَالْوَهْمِ أَوْ زَوْنِهِمْ﴾ [المطففين] ولم يقل: (كالوا لهم) أو (وزنوا لهم) وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لا يؤديه ذكره، قالوا: وذلك أن اللام تنفيد

(١) التفسير القيم ١٥-١٦.

(٢) شرح الدماميني على المعني ٢٨٩/١.

الاستحقاق ولم يعطوهم حقهم، فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنهم منعوهم حقوقهم^(١).

ومن لطيف حذف حرف الجر قوله تعالى:

﴿وَرَعِبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء].

فمن المعلوم أنه لا يجوز حذف حرف الجر إلا إذا أمن اللبس وتعين المقصود، فلا يقال: (رغبت زيدا) لأنه لا يدري المقصود أهو (رغبت في زيد) أم (رغبت عنه) أم (رغبت إليه) ولكنه هنا حذف حرف الجر مع أنه لم يتعين أهو (في) أم (عن) وذلك لأنه يراد معنى الحرفين معاً. فالحكم واحد في الرغبة فيهن أو عنهن. وهذا في يتامى النساء إذ يحتمل أن يرغب فيهن لجمالهن أو يرغب عنهن لدمامتهن، والحكم واحد في الحاليتين فلو قال: (في) لظن أنه يراد في حالة الرغبة هذه فقط دون الأخرى. ولو قيل: (عن) لظن أنه يراد في حالة العزوف فقط، فلما حذف عرف أن المقصود جميع أنواع الرغبة عنهن أو فيهن فأطلق لإطلاق الرغبة، وهذا تعبير عظيم جليل جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «يَحْتَمِلُ فِي ﴿أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ لَجَمَالِهِنَّ وَعَنْ ﴿أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ لِدَمَامَتِهِنَّ»^(٢).

ومما جاء في التشابه والاختلاف في حروف الجر قوله تعالى:

﴿قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِنْزِيلًا وَلَا نُمَيِّلُ لِمَنْ عَنَّا وَتَعُوبٌ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ إِنْزِيلًا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

(١) انظر (معاني النحو) - حروف الجر.

(٢) الكشاف ٤٢٧/١.

فقال في آية البقرة: (وما أنزل إلينا) وقال في آل عمران: (وما أنزل علينا) جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل عن موضعين من هاتين الآيتين: أحدهما قوله: (أنزل إلينا) في الأولى و (علينا) في الثانية.

والموضع الثاني: تكرر (أوتي) في الأولى وتركها في الثانية...

وشرح ذلك أن (على) موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو.

و (إلى) المنتهى... فقلوه تعالى: ﴿قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار له (إلى)... فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم. فلما كان (قولوا) خطاباً لغير الأنبياء وكان لأمرهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على).

ولما كانت سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي ﷺ وهو قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ كانت (على) أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه...

وأما الموضع الثاني الذي أعيد فيه لفظه (أوتي) من سورة البقرة ولم يعد فيها بإزائها من سورة آل عمران، فالجواب عنه أن يقال: إنما اختص هناك لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ مِنْ صُفْحِ وَحْيِكُمْ﴾ [آل عمران] فقدم ذكر إيتاء الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد^(١).

ونقول تعليقاً على تعليقه تكرر لفظ (أوتي) في البقرة دون آل عمران:

إن تكرر لفظ (أوتي) في البقرة يقتضيه التعبير لأكثر من سبب.

من ذلك: أن الآية في سورة البقرة جاءت في سياق ذكر عدد من الأنبياء وأخبارهم مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنه وغيرهم من الأنبياء، فلما جرى

(١) درة التنزيل ٣٤-٤٦.

ذكر الأنبياء السابقين ناسب ذلك تكرار الإتياء لهم. بخلاف آل عمران فإنها ليست في مثل هذا السياق.

ومنها: إن هذه الآية وردت في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿وَالْوَاكُوفُونَ هُمُ الَّذِينَ أَزْهَمُوا كَيْدَ الْمُشْرِكِينَ وَكَهَنُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٢] فلما جرى ذكر هاتين الملتين ناسب ذلك تخصيص نبيهما بالإتياء، فافرد ذكر إتياء موسى وعيسى عن إتياء الأنبياء الآخرين، ثم جاء بعدهما ذكر الإتياء للأنبياء الآخرين.

ومن ناحية أخرى إن الآية في آل عمران وردت بعد ذكر أخذ الميثاق من النبيين على الإيمان بسيدنا محمد ونصره إن هم أدركوه قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكَ بِهِ﴾

[illegible]

وقال بعدها: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران] فناسب ذلك عدم تكرار الإتياء للأنبياء فيها، وذلك لأن السياق فيما أوتي سيدنا محمد لا فيما أوتي الأنبياء الآخرون.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في البقرة في ذكر الأنبياء ذكر الإتياء لهم، ولما كان السياق في آل عمران في الإيمان بمحمد ودينه وأخذ الميثاق من الأنبياء على الإيمان به ناسب عدم تكرار الإتياء للأنبياء.

هذا ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري للبقرة يقتضي تكرار الإتياء فيها دون آل عمران، وذلك أن مشتقات الإتياء من نحو آتي وآتينا وأوتني وغيرها وردت في سورة البقرة أكثر مما في آل عمران، فقد وردت في البقرة في أربعة وثلاثين موضعاً، ووردت في آل عمران في تسعة عشر موضعاً، فاقضى الجو التعبيري في البقرة تكرار لفظ الإتياء فيها علاوة على ما ذكرنا بخلاف آل عمران. وقد

رأينا في مواضع عدة كيف يراعي القرآن الكريم الجو التعبيري لذكر لفظة في موضع دون آخر .

وأظنك في غنى عن بيان جلالة هذا التعبير وقدره .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ﴾ [الرعد، الزمر ٥] .

وقوله :

﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان] .

فقد جاء في آية الرعد باللام (لأجل) وجاء في آية لقمان بـ (إلى) (إلى أجل مسمى)، والفرق بينهما أن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى : كل يجري لبلوغ الأجل أي كل يجري لهذه الغاية كما تقول : كلهم يجري لوصول الهدف وبلوغه . وأما ما جاء بـ (إلى) فهو يفيد الانتهاء . جاء في (درة التنزيل) : «للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله : ﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وما سواه إنما هو ﴿ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

والجواب أن يقال : إن معنى قوله : ﴿ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى . وقوله : ﴿ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معناه : لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له .

وإنما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى ، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة . فقبلها : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٍ وَجِدْ ۖ ﴾ [لقمان] وبعدها : ﴿ يَأْتِيَنَّ النَّاسُ أَثْقَالًا وَرَبُّكُمْ لَخَشَوًا يَوْمًا لَا يَجْزَىٰ وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانِبُ عَنْ وَالِدِهِ ۖ ﴾ [لقمان] فكان المعنى : كل يجري إلى ذلك الوقت ، وهو الوقت الذي تكرر فيه الشمس وتتكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى .

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قوله :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقَّ يَكُونُ أَيْدٍ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ اللَّيْلُ وَسَحَرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ خَلَقَكُمْ ثُمَّ وَجَدَكُمْ جَمَلًا فِيهَا وَفَجَعَلَهَا ﴿١٧٠﴾ [الزمر].

فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبوغي الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٧١﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَزَاكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٧٢﴾ [فاطر] فاختص ما عند ذكر النهاية بحرورها - واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها،^(١).

ومن لطيف ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٢٠١﴾ عَنَّا يَشْرَبُونَ بِهَا بِهَذَا اللَّهُ يَفْخَرُ بِهَا نَفِيرًا ﴿٢٠٢﴾ [الإنسان].

فقال أولاً: ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ بـ (من) وقال بعدها: ﴿عَنَّا يَشْرَبُونَ بِهَا﴾ بالباء. وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن الباء ههنا تفيد التبعية بمعنى (من)^(٢) أي: يشرب منها. وقيل: بل ضمن شرب معنى (روي)^(٣) أي: يرتوي بها وهو أولى.

وفيه معنى آخر: وذلك أن قوله: ﴿يَشْرَبُونَ بِهَا﴾ يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها من قولك: (نزلت بالمكان) فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب بخلاف الأول. جاء في (البرهان) أن «العين ههنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء نفسه، نحو: (نزلت بعين) فصار كقوله: مكاناً يشرب به»^(٤).

(١) درة التنزيل ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) المغني ١/١٠٥، الهمع ٢/٢١.

(٣) المغني ١/١٠٥.

(٤) البرهان ٣/٣٣٨-٣٣٩.

قالوا: وذلك أنه ذكر صنفين من السعداء:

الصنف الأول وهم الأبرار.

والصنف الآخر هم الذين سماهم ﴿عباد الله﴾ وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم وذلك أن القرآن يستعمل كلمة (عبد) على معنيين:

المعنى الأول: العبودية القسرية وهي التي يشترك فيها كل الخلق كافرهم ومؤمنهم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [قَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا] ﴿١﴾ [مريم] وهذه العبودية ليس فيها فضل لأحد على أحد.

والمعنى الثاني: العبودية الاختيارية وهي أن يجعل الشخص نفسه عبداً خالصاً لله موطناً نفسه على عبادته متحرراً مرضاته ساعياً في طاعته واضعاً نفسه ووقته في خدمة مولاه شأن المولى مع سيده في أقل تقدير. ويتفاضل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلما كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده. وتطلق هذه الصفة أعني صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَنَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا﴾ [الجن] وقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَمَرَ بِمَبْدُوحِهِ لَيْلَا تَرَى السَّجِدَ الْكَرِيمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء] وقال: ﴿ذَرِيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا مَكْرُورًا﴾ [الإسراء].

من هذا يتبين أن مرتبة الذين سماهم ﴿عباد الله﴾ أعلى من الأبرار. وقد فرق بين النعمين كما فرق بين الصنفين. فقد قال في الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ مِرْاجُهَا كَافُورًا﴾ وقال في الآخرين: ﴿حِينَ يَتْرَكُهَا يَبَا يَبَا اللَّهُ يُعْجِرُونَهَا تَنْجِيرًا﴾. وأنت ترى الفرق واضحاً بين النعمين. فقد قال في الأبرار:

١- إنهم يشربون من كأس.

٢- وذكر أن هذه الكأس ليست خالصة بل ممتزجة ﴿كَانَتْ مِرْاجُهَا كَافُورًا﴾.

وأما الصنف الآخر فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها بل يشربون خالصة من العيين وهي مرتبة أعلى. ثم قال ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ولم يقل (يشرب)

منها) أي: يرتوون بها، هذا علاوة على التمتع بلذة النظر وهم نازلون بالعين.

وهذا التعبير نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْإِبرَارِ لَفِي نَجِيٍّ ۖ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلَيْكَ ۖ كِتَابٌ مُرُومٌ ۖ يَتَّبِعُهُ الْمُفْرُوقُ ۖ إِنَّ الْإِبرَارَ لَفِي نَجِيمٍ ۖ عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ ۖ تَرَوْهُ فِي نُجُومِهِمْ ۖ نَعْرَةَ النَّجِيمِ ۖ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْثُومٍ ۖ خِشْمُهُمْ سَكَ ۖ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۖ وَمَرَأَهُمْ مِنْ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْثُومٍ وَمَرَأَهُمْ مِنْ تَسْلِيمٍ ۖ هَيْكًا يَتَرَبَّحُ بِهَا الْمُفْرُوقُ ۖ﴾ [المطففين].

فذكر الصنفين من السعداء: صنف الأبرار وصف السابقين المقربين وهم أعلى الخلق. فانظر كيف قال في نعيم الأبرار: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْثُومٍ ۖ﴾ ... وَمَرَأَهُمْ مِنْ تَسْلِيمٍ ۖ﴾ أي: إنهم يسقون من رحيق معزج بالتسليم، والتسليم أعلى شراب في الجنة وهو يعزج لهم بحسب اعمالهم. في حين قال: ﴿هَيْكًا يَتَرَبَّحُ بِهَا الْمُفْرُوقُ ۖ﴾ أي: إن المقربين يشربون من عين التسليم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزاء من جنس العمل. وهم لا يشربون منها بل يشربون بها. فهذا - كما ترى نظير ما مر في سورة الإنسان.

ويجرنا هذا التعبير إلى التشابه والاختلاف في التعبير عن الجزاء، إذ هو مرتبط بما نحن فيه ارتباطاً وثيقاً. فهو يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً عجباً في التعبير عن كل صنف، فمن ذلك ما جاء في سورة الرحمن في وصف نوعين من الجنان. قال:

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا لَا تَزُولُ ثَرَابٌ ۖ وَلَا أَلَةٌ فِيهَا تَالٍ ۖ فِيهَا يَبْقَاؤُا صِلَاتُهُمْ ۖ فِيهَا نُفُوسٌ مُسْكِنَةٌ ۖ وَفِيهَا سُرُورٌ مُبِينٌ ۖ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ عَهْدٍ بِمَا وَعَدَ ۖ فَسَوْفَ يَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾ [الرحمن].

ثم قال:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١٦﴾ قُلْ أَيْ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾ مِثْلَهُمَا تَانِ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيْ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾ فِيهَا عِصْيَانٌ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَيْ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ فِيهَا خَيْرٌ ﴿٢٢﴾ قُلْ أَيْ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ لَوْ بَدِئْتُ بِإِشْقِ قَوْمٍ لَوْ جَاءَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أَيْ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَيْ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن].

فأنت ترى أنه ذكر نوعين من الجنات بعضهما أعلى من بعض، فذكر الجنان العليا أولاً ثم قال: (ومن دونهما جتان) أي: أقل منزلة منهما. وإليك طرفاً من التفريق بين الصنفين:

١- قال في وصف الجنتين العليين: إنهما ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ في حين قال في الآخرين: ﴿مِثْلَهُمَا تَانِ﴾ أي: مائلتان للسواد من شدة الخضرة. والوصف الأول أعلى فإن الأفنان تطلق على ضروب عدة من النعم لا يفيدها قوله ﴿مِثْلَهُمَا تَانِ﴾.

٢- وقال في العليين: ﴿فِيهَا عِصْيَانٌ يُعْرَبُونَ﴾ وقال في الآخرين: ﴿فِيهَا عِصْيَانٌ نَضَّخَتَانِ﴾. وماء الجري أكثر من ماء النضخ. وقيل في الجري معان أخرى من صفات النعم لا يفيدها قوله نضاختان^(١).

٣- وقال في العليين: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَكْثَرُ مِنْ هَٰذَا﴾ وقال في الآخرين: ﴿فِيهَا ثَمَرٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. فانظر أين فاكهة الثنيتين من الأوليين؟ فقد ذكر أن في العليين. من كل فاكهة زوجين على سبيل الاستغراق والعموم، ولم يجعل الوصف كذلك في الآخرين.

٤- وقال في العليين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ﴾. وقال في الآخرين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ﴾.

(١) انظر الكشف ١٩١/٣.

فقد ذكر بطائن الأولى فقال: إنها من إستبرق ولم يذكر ظواهرها لعلوها وللإشارة إلى أن الوصف لا يرقى إليها. قال في (الكشاف): «وإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظواهر؟»^(١).

في حين ذكر الأخرى فقال: هي رفرف خضر وعبقري حسان. وانظر أين هذا من ذاك؟

٥- وقال في العليين: (فيهن قاصرات الطرف) في حين قال في الآخرين: (حور مقصورات في الخيام).

فانظر هداك الله وصف (القاصرات) بصيغة اسم الفاعل ووصف (المقصورات) بصيغة اسم المفعول ووازن بين الوصفين يتبين الفضل بين الصنفين.

٦- وقال في وصف قاصرات الطرف: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ولم يقل مثل ذلك في المقصورات، وهذا الوصف مدعاة إلى التشويق لإحسان العمل و ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾؟

وانظر إلى دقيقة أخرى عجبية في وصف هاتين الجنة ذكرها السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهي أن قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُنَّ الْآبَاءُ وَنَحْوَهُنَّ كَفَّيًّا﴾ تكرر في كل جنة ثعاني مرات بعدد أبواب الجنة. وتكرر في جهنم بعد قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ ثَغَالِيٍّ﴾ سبع مرات بعدد أبواب النار فإن أبواب الجنة ثعاني كما أخبر به الصادق المصدوق، وإن أبواب النار سبعة كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ فِيْهَا فِيْهِمْ جَزَاءٌ مَّقْصُورٌ﴾ [الحجر].

فانظر هداك الله مقام هذا الكلام ورفعته وعزته. ونظير هذا التفريق في الجزء ما جاء في سورة الواقعة في التفريق بين نعيم السابقين المقربين وهم أعلى الخلق ونعيم أصحاب اليمين.

قال تعالى في السابقين:

(١) الكشاف ٣/ ١٩١.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٦﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٧﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٩﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿٢٠﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿٢١﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ﴿٢٢﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٢٣﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ ﴿٢٤﴾ وَفَكَهْفُهُمْ ذَا وَجَعٍ مِّنَ الْيَبْرِ ﴿٢٥﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مُتَتَابِعَةٌ ﴿٢٦﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٧﴾ كَأَمْثَلِ الثُّلُوفِ الَّتِي كُنْتُ أَجْزَاهُ يَمَازُوا بِمَلَكُوتٍ ﴿٢٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٩﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٣٠﴾ [الواقعة].

وقال في أصحاب اليمين:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿١٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿١٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿١٩﴾ وَظِلِّ مَتْدُودٍ ﴿٢٠﴾ وَمَا وَكُوبٌ ﴿٢١﴾ وَفَكَهْفُهُمْ ذَا وَجَعٍ ﴿٢٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٢٣﴾ وَفُؤُوسٍ مَّرْجُوعَةٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنسَاءً ﴿٢٥﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ أَزْوَاجًا ﴿٢٦﴾ غُرًّا أَزْوَاجًا ﴿٢٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ [الواقعة].

فانظر كيف فرق بين النعيمين:

١- ذكر أن السابقين على سُرُرٍ موضونة وهي المشبكة بالذهب، متكئين عليها متقابلين، ولم يذكر مثل ذلك في أصحاب اليمين بل قال: ﴿وَفُؤُوسٍ مَّرْجُوعَةٍ﴾ وأنت ترى الفرق واضحاً بين الحاليتين. وقيل: إن المراد بالفروش ههنا النساء.

٢- وذكر أن السابقين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين. ولم يذكر نحو ذلك في أصحاب اليمين. بل قال: ﴿وَمَا وَكُوبٌ﴾ والفرق ظاهر.

٣- وذكر نعيم السابقين فقال: ﴿وَفَكَهْفُهُمْ ذَا وَجَعٍ مِّنَ الْيَبْرِ﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مُتَتَابِعَةٌ ﴿٢٥﴾ وفي حين قال في أصحاب اليمين: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿١٨﴾ إلى أن قال: ﴿وَفَكَهْفُهُمْ ذَا وَجَعٍ﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٢٣﴾. فأين السدر المخضود والطلح المنضود من قوله: ﴿وَفَكَهْفُهُمْ ذَا وَجَعٍ مِّنَ الْيَبْرِ﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مُتَتَابِعَةٌ ﴿٢٥﴾؟

٤- وذكر أزواج السابقين من الحور العين فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾... كَأَمْثَلِ الثُّلُوفِ الَّتِي كُنْتُ أَجْزَاهُ يَمَازُوا بِمَلَكُوتٍ ﴿٢٨﴾ وَلَمْ يَصْرَحْ بِمِثْلِ ذَلِكَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ بل قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنسَاءً﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ أَزْوَاجًا ﴿٢٦﴾ غُرًّا أَزْوَاجًا ﴿٢٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾. وهذا نظير وصفهن في آيات الرحمن: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

ويقال ههنا ما قيل ثم .

ونكتفي بهذا القدر لبيان التشابه والاختلاف وإن كان يحتمل المزيد من الكلام والأمثلة .

لقد تبين مما مر أن القرآن يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً، ويضعها وضعاً فنياً عجبياً. وأن التشابه والاختلاف في قسم من التعبيرات إنما يقتضيه المعنى والمقام. وأنه لم يترك وجهاً من وجوه الاقتضاء إلا راعاه، ليس في سياق الآية وحدها ولا في جو السورة وحدها، بل في عموم القرآن. ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

فواصل الآي

من المعلوم أن الآيات القرآنية الكريمة تنتهي بفواصل منسجمة موسيقياً بعضها مع بعض مثل: (تعلمون، تؤمنون، تتقون) ومثل (خيراً، كبيراً، عليمأ، حكيمأ).

ومن الملاحظ أن القرآن يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس. فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات، فمثلاً يقول مرة: ﴿قَالُوا إِنَّا بِرَبِّكَ الْكَافِرِينَ﴾ (الشعراء) بتقديم موسى على هرون، فيجعل كلمة (هرون) نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة. ومرة يقول: ﴿قَالُوا إِنَّا بِرَبِّكَ الْكَافِرِينَ﴾ (طه) بتقديم هارون وجعل (موسى) نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طه.

وقد ترى أنه يحذف شيئاً من الكلم لتتسجم مع فواصل الآي، إذ لو أبقى المحذوف لم يتسجم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَنْذَرُ﴾ (أو يَنْفَعُونَكَ) (الشعراء) إذ الأصل: (أو يضرونكم) مقابل: (ينفعونكم) ولكنه حذف المفعول به من (يضرونكم)، إذ لو إبقاه لم تتسجم فاصلة الآية مع بقية الآيات.

وقد يزيد شيئاً في الكلمة للغرض نفسه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَلْفَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَةً فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب) فقد مد فتحة (السبيل) لتتسجم الفاصلة مع فواصل الآي المتقدمة والمتأخرة.

وقد نرى أنه يبدل كلمة بكلمة أخرى مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآي في كل من الموطنتين مختلفة، فيجعل في نهاية كل آية ما يتسجم موسيقياً مع أخواتها وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَوْا نِعْمَةَ اللَّهِ وَلَا تَشْكُرُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم) وقوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَوْا نِعْمَةَ اللَّهِ وَلَا تَشْكُرُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل) فأنت ترى أن الآيتين متشابهتان إلا في خواتم الآي، فإن فاصلة آية إبراهيم وهو قوله: (كفار) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها (الأنهار، النهار، كفار، الأصنام).

وفاصلة آية النحل: (رحيم) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها: (تشكرون، تهتدون، تذكرون).

وقد ترى أنه يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبيهاً بالموضع الأول تجنباً للتكرار، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء] وقوله في مكان آخر من السورة نفسها: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء]. فأنت قد ترى أنه غاير بين الفاصلتين تجنباً للتكرار. ونحو ذلك مما يبدو فيه مراعاة الانسجام الموسيقي واضحاً.

غير أن الذي نريد أن نوكدّه هنا أن القرآن الكريم راعى في كل ذلك أيضاً ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده، فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعى في ذلك لانتضاء الكلام من جهة أخرى. فهو لم يختم آية الشعراء بكلمة (هرون) وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الموسيقي وحده، بل انتضاء الكلام من جهة أخرى. فهو قد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام، فلم يَجُزْ موطن على آخر وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام.

وقد تظن أن في كلامنا هذا غلوّاً ومبالغة دفعنا إليهما إحساس ديني وتقديس نكته للقرآن الكريم وليس نابعاً من روح علمية ولا من نفس بريئة من العصبية والهوى. ولا نريد أن ندفع عن أنفسنا هذه التهمة أو نقرها وإنما ندع ذلك للبحث يدفعه أو يقره. غير أننا نود أن نذكر هنا أن كثيراً من علماء السلف ذكروا ذلك، فقد قال الآلوسي رحمه الله راداً على القاضي البيضاوي قوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكْسِبُ لِرَبِّهِ وَفٍ تَجِيبٌ﴾ [البقرة]: «ولعله قدم (الرؤف) وهو أبلغ محافظة على الفواصل»^(١). «وقول القاضي بيض الله تعالى غرة أحواله: لعل تقديم (الرؤف) مع أنه أبلغ محافظة على الفواصل ليس بشيء»، أن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع، فالمراعاة حاصلة على كل حال، ولأن [الرأفة]^(٢) حيث وردت في القرآن قدمت ولو في غير

(١) أنوار التنزيل ٣٠.

(٢) في الأصل: (ولأن الرحمة) والصواب ما أثبتناه كما هو ظاهر.

الفواصل، كما في قوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد] في وسط الآية^(١).

صحيح أن قسماً من الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآني لم يوفقوا في اكتناه أسرار التأليف، بحيث تدرك أن تعليلاتهم متكلفة وتأويلاتهم بعيدة، وربما أدركت أيضاً أنه لو كان الكلام على غير هذه الصورة لأولوه وعللوه تعليلاً آخر. ولكن هناك قسم آخر تمكن من أن يضع يده على أنفس الجواهر في التأليف وأن يستكنه أدق أسرار التعبير من غير تكلف ولا غموض.

وأحسب أنه من الأولى أن نضرب أمثلة نوضح بها هذا الادعاء وأن لا نطيل في الكلام وتقرير الأحكام.

فمن ذلك ما ذكرناه آنفاً وهو قوله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٣٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ ضُرُّونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء].

فقد ذكر مفعول النفع ولم يذكر مفعول الضر. وقد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآي، ولا شك أنه لو ذكر المفعول به لم تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي، ولكن الحذف اقتضاه المعنى أيضاً فقد ذكر مفعول النفع فقال: (ينفعونكم) لأنهم يريدون النفع لأنفسهم. وأطلق الضر لسببين:

الأول: أن الإنسان لا يريد الضر لنفسه وإنما يريده لعدوه.

والآخر: أن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر.

فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص والضرر موضع إطلاق، فخص النفع وأطلق الضرر. والمعنى أن هذه الآلة لا تتمكن من الإضرار بعدوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به فقال: (أو يضررونكم) لما أفاد هذين المعنيين. فانظر كيف أن الإطلاق في الضرر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة؟

(١) روح المعاني ٧/٢.

ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَسْلَفَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه].

ولم يقل: (وما هداهم) وذلك أنه أخرج الفعل مخرج العموم، أي: إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية البتة. ولو قال: (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيداً بقومه إذ يحتمل أنه هدى غيرهم لكنه قال: (وما هدى) أي: ما هدى أحداً^(١).

فهو قد أضل قومه ولم يهد أحداً لا من قومه ولا غيرهم.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

وقوله:

﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل].

فقد تظن أنه ختم آية إبراهيم بقوله: (كفار) مراعاة لفواصل الآي في هذه السورة، وختم آية النحل بـ (رحيم) مراعاة لفواصل الآي فيها.

ولاشك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم موسيقياً مع الآيات فيهما، ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته فختم الآية بصفة الإنسان، وأن الآية في سورة النحل في سياق صفات الله تعالى فذكر صفاته. فقد قال في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أندَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ قُلْ لِمَ بَادَى الَّذِينَ آمَنُوا يُعِيمُوا الْعَصَاةَ وَيُؤْفِقُوا سَمًا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلَىٰ﴾ [إبراهيم].

فاقتضى ذلك ختم الآية بصفة الإنسان.

(١) انظر كتابنا (معاني النحو)، حذف المفعول به.

وقال في سورة النحل:

﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ وَنَسِيتُمْ فِيهَا زِينَتَكُمْ فَأَنتُمْ بِهَا جَاهِلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
مِمَّا تَرْيَحُونَ وَجِبِينَ قُنَاصٍ ﴿٦﴾ وَتَحِيلُ أَتَقَالِكُمْ إِنْ يَكْلُوا لَمْ يَكُونُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا يَشُقُّ
الْأَفْئِدَةُ... هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
ثَمِيمٌ ﴿٧﴾ يُثْمِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ... ﴿٩﴾
وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴿١٠﴾ وَهُوَ
الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَافِلِهِمْ لَعَلَّاهُمْ طَرِيقًا وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمْ جِلْمَةً تَلْبَسُونَ بِهَا وَتَرَى
الْفُلُكَ مَوَاصِرَ فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ فِي شَجَرِ الْكَافُرِ ﴿١١﴾ وَالْقَلْبَ فِي الْأَرْضِ
رُؤُوسٌ أَنْ يُغَيِّدَ بِكُمْ وَأَنْهَزَا وَمُبَلَّاتٌ لَكُمْ تَعْتَدُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل].

فانت ترى أن الكلام على صفات الله ونعمه على الإنسان فخته بصفته.
جاء في (معترك الأقران) أنه «إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه
وسورة النحل بوصف المنعم، لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان
وفي سورة النحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته»^(١).

وقال في (البرهان): «ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم
وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه؟

والجواب: أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبلَ
عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه.

وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق
صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه»^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَأَتَيْنَا آلَ شُعْرَةَ مُجَادًا قَالُوا أَمَا بَرَأَ رَبُّنَا مِنْكُمْ وَهُمْ عَلَىٰ﴾ [طه].

(١) معترك الأقران ٤٤/١ وانظر ملاك التأويل ٥٨٠-٥٨١.

(٢) البرهان ٨٦-٨٧.

وقوله :

﴿ قَالَتِ السَّحَرَةُ لَسَيِّدِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْمَلَائِكَةِ ﴿٢٠﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشعراء].

قدم في (طه) ذكر هرون وفي (الشعراء) ذكر موسى . وقد تظن أن ذلك ما يقتضيه أواخر الآي . ونقول : صحيح أن أواخر الآي في سورة (طه) تقتضي أن يكون (موسى) في آخر الآية ، وفي (الشعراء) تقتضي أن تكون كلمة (هرون) هي الفاصلة ، ولكن هناك ملحظ آخر يقتضي تقديم ما قدم وتأخير ما أخر ، ولو لم تكن أواخر الآي كذلك . وانظر إلى الفرق بين القصتين في السورتين :

١ - إن ذكر (هرون) تكرر في سورة (طه) كثيراً وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ رسالته ، في حين لم يرد في سورة الشعراء إلا قليلاً . من ذلك قوله في سورة طه :

أ - ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي ﴿١٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٢١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه].

ب - ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿١٣﴾ ﴾ [طه]. فقد أمر كلا من موسى وهرون بالذهاب بآياته ولم يخص موسى بذلك .

ج - وكرر ذلك فقال : ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكُمُ إِلَهُ إِلَّا أَنَا ﴿١٨﴾ ﴾ [طه].

د - وكان الجواب صادراً منهما معاً : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْانَ يَطْلُبَ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه].

هـ - وقد طمأنهما ربهما معاً فقال : ﴿ قَالَ لَا تَخَفَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَنذَرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه].

و - وأمرهما معاً فقال : ﴿ فَأَنبِئَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جُنَحْنَا وَبَيْنَا مِنْ رَبِّكَ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه].

ز - وكان خطاب فرعون لهما معاً : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَهُوسُفُ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]. ولم يقل له : فمن ربك ؟

ح - ونسبهما كليهما إلى السحر فقال : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكَ الْمَشْأَلَيْنِ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه].

ط - وقد ورد تخليف موسى لهرون في قومه فنصح لهم في غيبته . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ۖ ﴾ [طه].

ي - ولقد عاتب موسى أخاه هرون بشدة : ﴿ قَالَ يَهْتَرُونَ بِمَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلا تَتَّبِعُهُمْ ۖ ﴾ [طه].

في حين لم يرد هرون سورة الشعراء إلا قليلاً وهو قوله :

أ - ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۖ ﴾ [الشعراء].

ب - ﴿ فَأَذْهَبَ بِأَبْنَيْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِضُونَ ۖ ﴾ [الشعراء].

وفيما كان الخطاب في آيات طه موجهاً إلى موسى وهرون معاً، كان موجهاً إلى موسى وحده في الشعراء : ﴿ قَالَ لِيْنِ أَخَذْتُ إِلَهَآ غَيْرِي لِأَجْمَلْتَنِيكَ مِنَ السَّجُونِيكَ ۖ ﴾ [الشعراء].

وقد نسب موسى وحده إلى السحر ولم ينسب معه هرون كما جاء في طه فقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۖ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۖ ﴾ [الشعراء].

ولم يرد ذكر لهرون بعد هذا .

فأنت ترى أن القصة في طه مبنية على التثنية وأنها في الشعراء مبنية على الأفراد .

٢- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه ذكر في آيات طه خوف موسى ﴿ فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّؤْمِنٌ ۖ ﴾ [طه] ولم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراء .

فأنت ترى أنه ذكرت جوانب الكمال والقوة في موسى في الشعراء، ولم تذكر حالة الضعف البشري الذي اعتراه . فافتضى كل ذلك المغايرة في التعبير بين القصتين، وأظنك في غنى عن أن أقول لك : لوقيل لك : قدم وأخر بين الإسمين حسبما يقتضيه السياق لقدّمت هرون على موسى في طه، وموسى على هرون في الشعراء .

وعلاوة على ذلك هناك طريفة أخرى، وهي أن سورة (طه) تبدأ بالحرفين: الطاء والهاء. وسورة الشعراء تبدأ بـ (طسم). فكلتا السورتين تبدأ بالطاء غير أن الحرف الأخير من (طه) هو الهاء، وهو أول حروف هرون وليس فيها حرف من حروف موسى. والحرف الأخير من (طسم) هو الميم وهو أول حرف من حروف (موسى) وليس فيها حرف من حروف هرون. أفلا يزيد حسناً على حسن تقديم هرون على موسى في طه وتقديم موسى على هرون في الشعراء؟

وقد ترى ذلك إغراقاً في التعليل، وربما كان ذلك، إلا أن العجيب أن كل سورة تبدأ بالطاء ترد فيه قصة موسى في أوائلها مفصلة قبل سائر القصص، مثل: (طه)، وطس، وطسم في القصص، وطسم في الشعراء) وليس في المواطن الأخرى مما يبدأ بالحروف المقطعة مثل ذلك. فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحروف (ط) قصة موسى مفصلة في أوائل السورة. والملاحظة الأخرى أن ما يبدأ بـ (طسم) تكون قصة موسى فيها أطول مما يبدأ بـ (طس) فكان زيادة الميم إشعار بزيادة القصة. فانظر يا رعاك الله أي سر من أسرار التعبير هذا؟

ومن بديع الفاصلة قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُجِئَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر].

وقوله:

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر].

فقد ختم الآية الأولى بقوله: (المبطلون) وختم الآية الثانية بقوله: (الكافرون) وذلك لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه. فالأولى وردت في سياق الحق، ونقيض الحق الباطل. والثانية في سياق الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر. قال تعالى في الآية الأولى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُجِئَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر]. وقال في الآية الثانية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ كَمَفْرَقَةٍ يَمَّا كُنَّا بِهِمْ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر]. فلو أنك تفهمهم إيمانهم لما رأوا بأساً سئل الله ألقى قد خلعت في عباده. وخسر هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ [غافر].

جاء في (البرهان) للكرماني في اختيار هاتين الفاصلتين أن: «الاول متصل بقوله: ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ نقض الحق الباطل. والثاني متصل بإيمان غير مجد، ونقيض الإيمان الكفر»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الشُّرُوءِ يَتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٦١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [السجدة].

«فانظر إلى قوله في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ولم يقل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾. وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع أو إخبار القرون وهو مما يسمع.

وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وقال بعدها: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن سوق الماء إلى الأرض الجرز مرئي»^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَتَكَلَّفُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص].

فانظر كيف ختم آية الليل بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأن الليل يصلح فيه السمع وختم آية النهار بقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنه صالح للإبصار؟

في (البرهان) في هاتين الآيتين: «فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع ولا يصلح للإبصار.

(١) البرهان ٤٢١.

(٢) البرهان ٨٠/١ وانظر الإقناع ١٠١/٢.

وكذلك قال في الآية التي تليها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَبْعِينَ أَلْفًا سَوْرَةً أَلَيْسَ عِندَ اللَّهِ بِأَعْيُنِكُمْ قِيلٌ وَكُنْتُمْ فِيهَا أَفْلَا تُبْعِثُونَ﴾ [القصص]... فاقترضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تُبْعِثُونَ﴾ إذ الظرف مضى صالح للإبصار. وهذا من دقيق المناسبة المعنوية^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا بَنُو عِثْرَكَ مِنَ الشَّايِكِينَ نَبِّئْهُمْ فَلَا تَسْمَعُ لِمِنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَبْغُضُونَكَ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله أيضاً:

﴿وَأَمَّا بَنُو عِثْرَكَ مِنَ الشَّايِكِينَ نَبِّئْهُمْ فَلَا تَسْمَعُ لِمِنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَبْغُضُونَكَ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت].

في حين قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ فِي سُبُطِهِمْ وَلَا يَكْبُرُونَ تَأْتِيهِمْ فَاسْتَوْذُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْبَصِيرُونَ﴾ [غافر].

فانظر كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلمه ولا نراه بقوله: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْبَصِيرُونَ﴾ وجاء فيمن يرى ويبصر من شياطين الإنس بقوله: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْبَصِيرُونَ﴾ فانظر دقة هذا التعبير وجماله. جاء في (التفسير القيم): «وتأمل حكمة القرآن كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: ﴿السَّامِعُونَ الْبَصِيرُونَ﴾ في الأعراف وحس السجدة. وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسونه ويرون بالإبصار بلفظ: ﴿السَّامِعُونَ الْبَصِيرُونَ﴾ في سورة حم المؤمن... لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها. وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرَى بالبصر ويُذَرَكُ بالرؤية والله أعلم^(٢).

(١) البرهان ٨٢/١ وانظر ملاك التأويل ٧٦٢/٢.

(٢) التفسير القيم ٥٨٦.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَكُلًّا ذَلِكُمْ بِبَيْتِكَ رُبُّكَ وَيُؤْمِنُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنَحْمُكَ مَا لِي يَعْقُوبُ
كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٣١﴾ [يوسف].

وقوله:

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا عَذَابٌ مُصَوَّرَةٌ وَمَعَهُمْ خَالِصَةٌ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ وَرَبِّكُمْ عَلَى أَنْزِلَةٍ وَإِنْ
يَكُنْ مَوْسَى فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٣٢﴾ [الأنعام].

فقدم العلم على الحكمة في سورة (يوسف)، وقدم الحكمة على العلم في (الأنعام)، وذلك لأنه في سورة يوسف تقدم قوله: ﴿وَيُؤْمِنُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وهذا موطن علم فقدم العلم لذلك، وفي الأنعام موطن تشريع فقدم الحكم لذلك. جاء في (البرهان): «وأما تقديم الحكيم على العليم في سورة الأنعام فلأنه مقام تشريع الأحكام. وأما في أول سورة يوسف فقدم العليم على الحكيم لقوله في آخرها: وعلمتني من تأويل الأحاديث»^(١).

ومن الطريف أن نذكر هنا أنه حيث اجتمع الاسمان: (العليم والحكيم) في سورة الأنعام قدم الحكيم على العليم^(٢) وحيث اجتمعا في سورة يوسف قدم العليم على الحكيم^(٣) وذلك لأن موطن يوسف كلها موطن علم أولاً فقدم (العليم) وموطن الأنعام موطن حكمة أو حكم فقدم (الحكيم)، مما يدل على أن كل كلمة إنما وضعت مقصودة قصداً.

فانظر أي تنسيق وأي دقة في هذا الكلام العزيز؟

ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ اسْتَبْرَحْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَامَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ١٣٣﴾ [الرعد].

(١) البرهان ٣/ ٢٦٢.

(٢) انظر الآيات ٨٣، ١٢٨، ١٣٩.

(٣) انظر الآيات ٦، ٨٣، ١٠٠.

وقوله:

﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٧﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٨﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [الحج].

فقال في آية الرعد: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وقال في آية الحج: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وذلك أنه ذكر في آية الرعد المستهزئين وذكر في آية الحج المكذبين. والمستهزون أعظم جرماً من المكذبين، لأنهم يجمعون السخرية إلى التكذيب فكان الوعيد لهم أشد. إذ رب نكير لا يصحبه عقاب، فجعل كل وعيد بإزاء جرمة الذي يناسبه.

جاء في (ملاك التأويل): «للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ والثانية بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مع تساوي الآيتين في مقصود الوعيد بمكذبي الرسل عليهم السلام.

والجواب والله أعلم، أن العقاب أشد موقفاً من النكير، لأن الإنكار قد يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل. أما مسمى العقاب فإنما يراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقوب جريمته. وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأُوا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ والاستهزاء أمرٌ مرتكب زائد على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة فناسبها الإفصاح بالعقاب.

أما آية الحج فإن الوعيد فيها للمذكورين بالتكذيب، ولم يذكر منهم استهزاء قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب... فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من تقدم فيها، ولم يكن عكس الوارد ليناسب^(١).

(١) ملاك التأويل ٥٦٨/٢-٥٦٩.

ومنه قوله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح عندما خرق السفينة :

﴿أَخْرَجْنَا الْبَثْرَىٰ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف].

وقوله له عندما قتل الغلام :

﴿أَقْبَلْتَ نَفْسًا رَّكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف].

فوصف خرق السفينة بأنه شيء إمر، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نكر. وذلك أن خرق السفينة دون قتل الغلام شناعة فإنه إنما خرق السفينة لتبقى لمالكيتها. وهذا لا يبلغ مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر. والإمر دون النكر، فوضع التعبير في كل موضع بما يناسب كل فعل. وعن قتادة: النكر أشد من الإمر. فجاء كل على ما يلزم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في موضع الآخر^(١).

ومنه قوله تعالى :

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة].

وقوله :

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة].

فقد قال في الأولى : ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي الثانية : ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

« ووجه ذلك - والله أعلم - أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ في التضييق والإخراج... فأمر تعالى بقتالهم ووعد بتعذيبهم وخزيهم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن... قال تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة].

ثم قال : ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾... أي : من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهاده في الأذية والصد عن سبيل الله ثم قال : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي : بما في

(١) انظر ملاك التأويل ٦٥٢/٢.

القتال أو طي ما جرى من ذلك كله بتقديره السابق أولاً... وما في ذلك من الحكمة...

وأما الآية الثانية فسيبها والله أعلم ما جرى يوم حنين من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ولم يثبت مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم أحد، إذ لم يبرح عليه السلام من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل... فختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَأَلَّهَ هَقُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم، وأن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله، فجاء كل من هذا الباب على ما يناسب ويلائمه ولا يلائم خلافه^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ﴾ [هود].

وقوله:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل].

وسر هذا الاختلاف أن آية هود فيمن صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم وضوعف لهم العذاب، وآية النحل فيمن صد هو ولم يصد غيره، فكان الأولون أخسر من الآخرين فجاء لهم باسم التفضيل. قال تعالى في (هود): ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [١٠١] أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَغِيثُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ [١٠٢] أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [١٠٣] لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ [١٠٤].

وقال في (النحل): ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٠٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [١٠٦] لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ [١٠٧] جاء

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٥٦-٤٥٧.

في (البرهان) للكرماني أن قوله في هود: ﴿هُمُ الْآخِسُونَ﴾ «لأن هؤلاء صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فَضَلُّوا وأضلوا فهم الآخسرون يُضَاعَفُ لهم العذاب، وفي النحل صدوا فهم الخاسرون»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة].

فقد أعاد الضمير في الآية الأولى على الصلاة وختم الآية بالكلام عليها. وختم الكلام في الآية الثانية على الصبر، وذلك أن الكلام في الآية الأولى على الصلاة فقد تقدم ذكر الصلاة والمطالبة بها. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ [البقرة] بخلاف قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة] فقد ختم الآية بالكلام على الصبر وذلك لأن الكلام عليه والسياق يقتضيه، فقد قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَعْيَا وَلَكِنَّ لَاشْعُرُونَ﴾ [البقرة] ولتبلوكم بشئ ويزن لقلوبكم والجمع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين [البقرة] الذين إذا أصابتهم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة].

فلما كان السياق في الموطن الأول عن الصلاة، أعاد الضمير عليها وختم الآية بها. ولما كان السياق في الموطن الثاني عن الصبر، ختم الآية بالكلام على الصابرين^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

(١) البرهان ٢٣٢ وانظر درة التنزيل ٢١٩-٢٢٠.

(٢) معاني النحر ٦٨/١-٦٩.

وقوله مرة أخرى في السورة نفسها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١٧ ﴾ [النساء].

فقد ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ فَقَدْ أَفْرَقْنَا إِنَّمَا عَظِيمًا ﴾ وختم الآية الثانية بقوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾. وسبب هذا الاختلاف أن الآية الأولى في سياق الكلام على افتراءات اليهود وكذبهم، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ يَنْ أَلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ١٦ ﴾ [النساء] وقال بعدها: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ وَكَانَ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ١٧ ﴾ [النساء] فناسب ذلك قوله: ﴿ فَقَدْ أَفْرَقْنَا إِنَّمَا عَظِيمًا ﴾.

وأما الآية الأخرى فهي في المشركين من غير أهل الكتاب، وهم لم يفتروا على الله لأنهم ليسوا أصحاب كتاب أصلاً وإنما هم ضالون، فناسب ذلك قوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ثم انظر كيف قال بعدها على لسان الشيطان: ﴿ وَلَا تُضِلَّهُمْ وَلَا تَهْتِكْهُمْ ١٨ ﴾ [النساء].

فالكلام في سياق الضلال والإضلال فناسب ذلك هذه الخاتمة. جاء في كتاب (من بلاغة القرآن) في سر هذا الاختلاف بين الآيتين: « ونستطيع أن نلمس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، مما ناسب أن تختتم الآية بالافتراء الذي اعتاده اليهود وهم أهل الكتاب.

أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً »^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلَّذِينَ وَالَافَرِيقَ
بِالْمَرْثَةِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٥١ ﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ١٥٢ ﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُودٌ
رَحِيمٌ ١٥٣ ﴾ [البقرة].

(١) من بلاغة القرآن ٨٥.

ختم الآية الأولى بالسمع والعلم لما قال قبل: ﴿فَمَنْ يَدْلِكُمْ بَعْدَ مَا سَمِعْتُمْ﴾ وختم الآية الثانية بالمغفرة والرحمة لما قال قبلها: ﴿فَلَا إِثْرَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا نظير قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالَّذِمَّ وَالْخِنْزِيرَ وَمَا أُوتِيَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة].

فقد ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما قال: قبلها ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ﴾. جاء في (البرهان) للكرمانى: «قوله في آية الوصية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ عَالِمِينَ﴾، خصّ السمع والعلم بالذكر لما في الآية من قوله: ﴿بَعْدَ مَا سَمِعْتُمْ﴾ ليكون مطابقاً. وقال في الآية الأخرى بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لقوله قبله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ﴾ فهو مطابق معنى»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود].

فقد ختم آية الأنعام بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ وختم آية هود بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ذلك لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ. قال تعالى:

﴿يَنْتَشِرُ الْيَمِينَ وَالْإِمْنِينَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزَكِّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِمَيُوتُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أن الله لم يهلك أقواماً غافلين لم يندروا ولم يكلفوا، فإن من لم يندر فهو غافل. قال تعالى:

(١) البرهان ١٠٤.

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَيْنَا بِكُم مِّمَّ هُمْ فَهُمْ يَخْشَوْنَ﴾ ﴿٦﴾ [يَس] وما كان الله ليهلك مثل هؤلاء الأقوام، ولذا ختمها بقوله ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْبَأْنَاهُمْ وَأَتَّعِ الْأَرْضَ ظَلَمُوا مَّا أَتَرَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [هود].

فناسب ختام كل آية السياق الذي فيه. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: لم قال في الأولى: ﴿غَافِلُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿مُصْلِحُونَ﴾؟»

والجواب: إن ذلك إشارة إلى ما تقدم من العقاب في قوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثَوْنُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وبعده: ﴿يَمَسَّشَرُ الْيَمِينَ وَالْأَيْسَىٰ أَذَىٰ بِأَرْسِلَ رُسُلًا يَنْصَحُونَ عَلَيْكُمْ أَيْنِئِ وَيُذِرُونَهُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ﴿١٢﴾ [الأنعام] يعني: العقاب في يوم القيامة، لأنه لم يكن ريك ليفعله من قبل أن يحتج عليهم برسل يهدونهم وينذرونهم ما وراءهم من محذورهم، ولا يتركونهم في غفلة من أمورهم. فاقضى هذا المكان أن يقال لهم: لم يؤخذوا وهم غافلون بل كانوا منبهين بالأعذار والإنذار على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وأما الموضع الثاني الذي ذكر فيه ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فللبناء على ما تقدم وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْبَأْنَاهُمْ وَأَتَّعِ الْأَرْضَ ظَلَمُوا مَّا أَتَرَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١﴾ [هود] فدل على أن القوم كانوا مفسدين حتى نهاهم أولو بقية ينهون عن الفساد في أرض. وكان نقيض الفساد في الأرض الصلاح فقال: لم يكن الله ليهلكهم وهم مصلحون. فاقضى ما تقدم في كل آية ما اتبعت من الغافلين والمصلحين^(١).

(١) درة التنزيل ١٣١-١٣٢.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسْأَلُوهَا يَسُورًا فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلِيمٍ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿وَلَا تَسْأَلُوهَا يَسُورًا فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود].

وقوله:

﴿وَلَا تَسْأَلُوهَا يَسُورًا فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء].

ففي آية الأعراف وصف العذاب بالإيلام، وفي هود بالقرب، وفي الشعراء وصف اليوم بالمعظمة، وذلك أنه في الأعراف ذكر قوم صالح وكثرة تحديدهم واستهزائهم وعتوهم ولم يذكر مثل ذلك في السور الأخرى. قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَعْيُنُنَا بِمَا قَدَّمْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ] [الأعراف].

فقد ذكر عنهم أنهم:

١- أعلنوا كفرهم (إنا بالذي آمنتم به كافرون).

٢- وأنهم عتوا عن أمر ربهم.

٣- وأنهم تحدوه وقالوا: إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.

وليس الأمر كذلك في المكانين الآخرين. فقد قال في هود: ﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود].

فليس فيه مثل ذلك التحدي ولم يذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم حتى أنهم لم يصرحوا بكفرهم، بل ذكروا أنهم في شك ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾. فانت ترى أن السياق في كل من الموطنين يختلف عن الآخر.

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء فإنه لم يذكر تحديدهم ولا عتوهم واستكبارهم، فاستحقوا أن يذكر لهم العذاب الأليم في سورة الأعراف.

وأما في سورة هود فقد وصف العذاب بالقرب لما ذكر قبله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود].

وأما في الشعراء فقد وصف اليوم لما ذكر قبلها: ﴿لَمَّا يَنْزِلُ الْكَافِرُ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء] جاء في (البرهان) للكرمانلي في سر اختلاف هذه الآيات أنه في سورة الأعراف «بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد فقال: عذاب أليم».

وفي هود لما اتصل بقوله: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) وصفه بالقرب فقال: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

وزاد في الشعراء ذكر اليوم لأن قبله: ﴿لَمَّا يَنْزِلُ الْكَافِرُ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ والتقدير: لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، فختم الآية بذكر اليوم فقال: عذاب يوم عظيم^(١).

لقد تبين مما مر أن القرآن الكريم لا يعنى بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مراعى فيها المعنى والسياق والجرس ومراعى فيها خواتم الآي وجو السورة ومراعى فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعى فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله، بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه. وجمع بين كل ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنك تحس أنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفن والصياغة والجمال. فما أجله من كلام وما أعظمه من تعبير.

(١) البرهان ١٨٣ وانظر درة التنزيل ١٥٦.

السمة التعبيرية للسياق

قد تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة، فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة.

وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتطبع ألفاظها بتلك السمة. وهذا واضح وكثير في القرآن الكريم، إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد. وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ [الجاثية].

في حين قال:

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر].

وقال:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر].

فاختار لفظ (العمل) في النحل والجاثية ولفظ (الكسب) في الزمر. قيل: وسبب اختيار لفظ (العمل) في النحل والجاثية هو وقوع الآيتين بين ألفاظ العمل، وسبب اختيار لفظ (الكسب) في الزمر هو وقوع الآيتين بين ألفاظ الكسب.

فقد جاء في النحل قوله تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿ وَتَوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ [النحل].

وجاء في الجاثية قوله ﴿ الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْنَحُهُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَوْمَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.

في حين وقع لفظ (الكسب) في الزمر بين ألفاظ الكسب، وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر] وقوله ﴿سَيُعَذِّبُهُمْ مَسَاجِدُ مَا كَسَبُوا﴾^(١) فخصت كل سورة بما اقتضاه سياقها^(١).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ (الكسب) من بين هذه السور الثلاث، فقد ترددت فيها هذه اللفظة خمس مرات^(٢) في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة، وأما في سورة الجاثية فقد وردت ثلاث مرات^(٣). فوضع كل لفظ في الموطن الذي يقتضيها. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَنْمُوتُ﴾^(٤) [طه].

وقوله:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِيَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٥) [النمل].

فقال في (طه): (أتاها) وفي (النمل): (جاءها). قيل: وسبب ذلك أنه كثر لفظ الإتيان في طه نحو: فأتياء [٤٧]، فلنأتينك [٥٨]، ثم أتى [٦٠]، ثم أتتوا [٦٤]، حيث أتى [٦٩].

ولفظ (جاء) في النمل أكثر نحو: فلما جاءتهم [١٣]، وجئتكم [٢٢]، فلما جاء سليمان [٣٦]،^(٤).

ولإيضاح ذلك نذكر أن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر منها في النمل، وإن ألفاظ المعجىء في النمل أكثر منها في طه، فقد وردت ألفاظ الإتيان في طه

(١) انظر البرهان للكرمانى ٢٧٣-٢٧٤، ٤١٦، درة التنزيل ٤٠٨-٤٠٩، ملاك التأويل ٦٠١/٢-٦٠٢.

(٢) انظر الآيات ٢٤، ٤٨، ٥٠، ٥١ (مرتين).

(٣) انظر الآيات ١٠، ١٤، ٢٢.

(٤) البرهان للكرمانى ٣١٢-٣١٣.

خمس عشرة مرة وفي النمل ثلاث عشرة مرة. ووردت ألفاظ المجهيء في طه أربع مرات وفي النمل ثمانين مرات. فاختر لفظ المجهيء في النمل والإتيان في طه، ووضع كل لفظ في الموضع الذي يقتضيه.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام].

فاختار في سورة البقرة لفظ (الله) وفي الأنعام لفظ (الرب). ومن أسباب هذا الاختيار والله أعلم أن لفظ (الله) تردد في البقرة أكثر مما في الأنعام، وأن لفظ (الرب) تردد في الأنعام أكثر مما في البقرة. فقد ورد لفظ (الله) في البقرة (٢٨٢) مائتين واثنين وثمانين مرة، وفي الأنعام (٨٧) سبعاً وثمانين مرة. ووردت كلمة (رب) في البقرة (٤٧) سبعاً وأربعين مرة، وفي الأنعام (٥٣) ثلاثاً وخمسين مرة. فناسب أن يضع كلمة (الله) في البقرة وكلمة (رب) في الأنعام.

وعلاوة على هذا يقتضي السياق وضع كل لفظة في المكان الذي وضعت فيه، فإن آية البقرة في سياق العبادة، ولفظ (الله) أولى أن يوضع في هذا السياق لأنه من الألوهية، والألوهية هي العبادة قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة] ويدل على ذلك أنه لما قال في سورة النحل: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل] قال بعدها: ﴿فَلَا تَكُفِّرْ بَعْدَهُ﴾ [النحل].

وأما سياق آية الأنعام ففي الأطعمة ولفظ (الرب) ألصق بهذا السياق، لأن الرب من التربية والتنشئة^(١).

(١) انظر البرهان للكرمانى ١٠٣، درة التنزيل ٤٢-٤٣.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر].

وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس].

فاظهر الناس في آية المؤمن وأضرهم في آية يونس، وذلك أن السياق الذي وردت فيه آية المؤمن تكرر فيه لفظ الناس، بخلاف السياق في سورة يونس إذ بُني على الإضمار. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: كيف أظهر الناس في موضع الإضمار في سورة المؤمن، وقد أضرهم في موضع الإظهار في سورة يونس؟ وهل كان جائزاً وقوع هذا موقع ذاك؟...»

فأما قوله في سورة المؤمن: ﴿وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾... فإنه محمول على الآيات التي قبله وهي قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر].

وقال بعده: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [غافر]. ثم جاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر].

فاظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشكلة والملاءمة وليس كذلك الأمر في سورة يونس عليه السلام، لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة. ألا ترى أنه قال تعالى مخبراً عمن يدخل من الظالمين النار: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلْغُلَةِ هَلْ يَجْعَزُونَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس]. فانقضى هذا الكلام واستؤنف خبر عن القوم الذين يُبعث رسول الله ﷺ إليهم وقال: ﴿وَيَسْتَفِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس]. فأضر ذكره في قوله: ﴿وَيَسْتَفِئُونَكَ أَحَقُّ﴾.

ثم قال بعده: ﴿إِلَّا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَئِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس]. فأضر ما أضاف إليه (أكثر). ثم انتهى إلى

قوله بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس] فاقترض ما بني عليه الكلام في هذه الآية أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضممار كما كان ما تقدمه^(١).

وقد تكون كثرة اللفظ وغلبته مطلقة في السورة كلها لا في السياق الذي تقع فيه الآية وحده. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه].

وقوله:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزخرف].

فقد ذكر (جعل) في الزخرف و (سلك) في طه، ولعل من بين أسباب هذا الاختيار أن فعل الجعل ورد في الزخرف أكثر مما في طه، فقد ورد في الزخرف اثنتي عشرة مرة وورد في طه ثلاث مرات^(٢). فاختار الجعل في الزخرف والسلوك في طه، والله أعلم.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّهِ لَا يَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف].

وقوله:

﴿وَلَكِنْ رُجِعَتْ إِلَىٰ رَبِّهِ إِنْ إِلَىٰ عِنْدَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [فصلت].

فقد قال في (الكهف): (رودت) وقال في (فصلت): (رجعت)، ولو رجعنا إلى استعمال هذين اللفظين ومشتقاتهما في كل من السورتين لوجدنا أن لفظ (الرد) ورد في الكهف ثلاث مرات^(٣) ولم يرد في فصلت إلا مرة واحدة^(٤)، وأما الرجوع

(١) درة التنزيل ٤١٢-٤١٣.

(٢) انظر الآيات ٢٩، ٥٣، ٥٨.

(٣) انظر الآيات ٣٦، ٦٤، ٨٧.

(٤) انظر الآية ٤٧.

فلم يَرِدْ في الكهف وقد ورد في فصلت مرتين^(١). فوضع كل فعل في مكانه الذي هو أليق به.

ومن بديع ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشَّهِيدٌ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة].

فقد قال في آية الحج، (الله) وقال في آية السجدة، (ربك) ولو نظرنا في استعمال هاتين اللفظتين في كل من هاتين السورتين لرأينا أنه وضع كل لفظة بحسب كثرة ورودها في كل سورة. هذا علاوة على اختيار كل لفظة بحسب ما يقتضيه المقام من ناحية المعنى أيضاً. فقد وردت لفظة (الله) في سورة الحج خمساً وسبعين مرة في حين لم ترد هذه اللفظة في السجدة إلا مرة واحدة^(٢).

وقد وردت كلمة (رب) في السجدة عشر مرات، ووردت في سورة الحج ثماني مرات، فوضع كل لفظة في السورة التي كثر استعمالها فيها.

هذا علاوة على ما في الآيتين من أمور فنية أخرى. فإنه لما ذكر الاختلاف في آية السجدة (فيما كانوا فيه يختلفون) أكد الفصل بـ (هو) لأن الأصل في الفصل أن يكون عند الاختلاف. ولما لم يذكر الاختلاف في سورة الحج لم يؤكد.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ].

وقوله:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَمْ﴾ [سبأ].

(١) انظر الآيتين ٢١، ٥٠.

(٢) انظر الآية ٤.

في حين قال :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ ﴾ [العنكبوت].

فاختار كلمة (ربي) في سورة سبأ، وكلمة (الله) في العنكبوت، وذلك أن لفظ (الرب) ورد في سبأ أكثر مما في العنكبوت، ولفظ (الله) ورد في العنكبوت أكثر مما في سبأ. فقد ورد لفظ (الرب) في سبأ أربع عشرة مرة، وورد في العنكبوت خمس مرات. وورد لفظ (الله) في العنكبوت إثنين وأربعين مرة، في حين لم يرد في سبأ إلا ثماني مرات، فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الكلمات.

ونحو ذلك قوله تعالى :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ ﴾ [النساء].

وقوله :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ ﴾ [الأعراف]..

وقوله :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ ﴾ [الزمر].

في حين قال :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه قال في الأنعام وحدها : ﴿ أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في سائر سور القرآن، في حين قال : (خلقكم) في المواطن الأخرى، ذلك أن الفعل (أنشأ) ورد في الأنعام في أربعة مواطن^(١) ولم يرد في السور الثلاث الأخرى أصلاً، فاستعمله للتناسب اللفظي في هذه السورة دون غيرها.

ومن لطيف هذا النوع وبديعه قوله تعالى :

﴿ فَكَيْدُونِي جَعَلْتُمْ لَا تُنْظَرُونَ ۖ ﴾ [هود].

(١) انظر الآيات ٦، ٩٨، ١٣٣، ١٤٦.

وقوله:

﴿ثُمَّ يَكِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [الأعراف].

فقد قدم الفاء وآخر (ثم) في آية هود، وقدم (ثم) وأخر الفاء في آية الأعراف. ومن الطريف أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في سورة الأعراف، قدمت (ثم) على الفاء وفي هود بالعكس. وهذا أغرب شيء وأعجبه. قال تعالى في الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾

وقال:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ... فَاخَذْنَاهُمْ بِعُنَى...﴾ [الأعراف].

وقال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف].

وقال:

﴿ثُمَّ يَكِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقد يكون مفتتح السورة دالاً على تردد قسم من الألفاظ في السورة، وذلك يبدو جلياً فيما يبدأ بالأحرف المقطعة نحو: ألم وحم وطس ونحوها، فكثيراً ما تتردد الألفاظ التي تلي هذه الأحرف على نمط معين في السورة أو يكثر استعمالها فيها. فمن ذلك تردد لفظ (الكتاب) و (القرآن) وغيرهما من الألفاظ. فنرى أن لفظي الكتاب والقرآن مثلاً يترددان في السورة على نحو معين، وذلك أن كل سورة يلي الأحرف المقطعة فيها ذكر (الكتاب) وحده ولم يذكر معه (القرآن) تتردد فيها هذه اللفظة أكثر من لفظ (القرآن) وربما لم ترد فيها لفظة (القرآن). وكل سورة يلي فيها الأحرف المقطعة ذكر (القرآن) وحده تتردد فيها لفظة (القرآن) أكثر من لفظ (الكتاب) وربما لم ترد فيها لفظة (الكتاب) ولا مشتقات الكتابة. وكل سورة اجتمع فيها ذكرهما تردد ذكرهما بصورة متقاربة، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر بأكثر من لفظ واحد.

واليك إيضاح ذلك :

ففي سورة البقرة مثلاً قال تعالى :

﴿الْم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ .

فقد ذكر الكتاب وحده بعد (الم) فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتاب ومشتقات الكتابة في هذه السورة سبعاً وأربعين مرة، في حين لم يرد لفظ القرآن أو أي مشتق من مشتقات القراءة إلا مرة واحدة، وهو قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ۝﴾ [البقرة] .

وفي سورة آل عمران قال تعالى :

﴿الآ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ ۝ زَكَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالْحَقُّ مُمْسِكًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۝﴾ .

فقد ذكر (الكتاب) وحده، فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتابة ومشتقاتها في هذه السورة ثلاثاً وثلاثين مرة ولم يرد فيها لفظ القرآن .

وهذا النهج لم يختلف في أية سورة من السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة . يظهر ذلك في الأعراف ويونس وهود والرعد وإبراهيم والشعراء والقصص ولقمان والسجدة وغيرها .

وقد يلي الأحرف المقطعة ذكر القرآن وحده، فيتردد هذا اللفظ أكثر من الكتاب، بل ربما لم يرد فيها لفظ الكتاب ولا أي لفظ من مشتقات الكتابة، ذلك نحو قوله تعالى :

﴿طه ۝ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝﴾ [طه] فقد ورد ذكر القرآن ولم يرد لفظ الكتاب بعد هذين الحرفين، فنلاحظ أنه تردد لفظ القرآن في هذه السورة ثلاث مرات وورد لفظ الكتاب فيها مرة واحدة .

ونحوها قوله تعالى : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾ [ق] فقد ورد فيها ذكر القرآن مرتين وورد فيها لفظ الكتاب مرة واحدة . ولم يحصل مرة أن زاد لفظ

القرآن على لفظ لكتابة أو العكس في هذا النوع إلا سورة (ص) فإن ذكر القرآن والكتاب تساويا فيها فقد ورد كل منهما مرة واحدة.

وقد يجتمع لفظا الكتاب والقرآن معاً فيترددان بمقدار متقارب وذلك نحو قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿الرَّيْلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنُ ثَمِينٍ﴾ ١١ فقد اجتماعاً في الافتتاح، وقد ذكر الكتاب في السورة مرتين والقرآن ثلاث مرات.

وقوله في سورة النمل: ﴿طَسَّيْلَكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ ثَمِينٍ﴾ ١٢ فقد ذكر القرآن في السورة أربع مرات والكتاب خمس مرات.

وهذا من عجائب التعبير ودقيقه.

ولا يقتصر الأمر في مفتاح السور هذه على ذكر الكتاب والقرآن وترددهما على نحو معين، بل هو أوسع من ذلك وأعجب، فقد تتردد الألفاظ التي ترد في الافتتاح كثيراً في أثناء السورة، وقد بُنِيَ عليها السورة كلها أحياناً.

والبك مثلاً يوضح ذلك:

خذ مثلاً مفتاح سورة البقرة وهو قوله تعالى:

﴿الرَّ ١١ ذَلِكُ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ١٢﴾.

ومفتاح سورة لقمان وهو قوله:

﴿الرَّ ١١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ١٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ١٣﴾.

١- فقد أشار في آية البقرة إلى الكتاب ثم نفى عنه الريب.

وأشار في لقمان إلى آيات الكتاب وليس إلى الكتاب.

وانظر بعد ذلك كيف قال في البقرة: ﴿وَلَنَكُونَنَّ فِي رُؤْبٍ مِمَّا زَلَّلْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا قُلُوبًا ١٣ يَوْمَ نَزَّلْنَا فِي سُلُوبِهِمُ ١٤﴾.

فأراد أن يجتث الريب من الكتاب إن كان موجوداً.

وكيف قال في لقمان: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَاتُنَا وَلَكُنَّا مُسْتَعِيرُونَ ١٥﴾.

فذكر آيات الكتاب وليس الكتاب وانظر إلى ارتباط كل آية بالمفتاح.

وقد تقول: ألم يذكر الكتاب في هذه السورة والآيات في سورة البقرة؟ فنقول: بلى ذكر الكتاب والآيات في كلتا السورتين، ولكن ذكرت الآيات في لقمان أكثر من الكتاب، وذكر الكتاب في البقرة أكثر من الآيات. فإن لفظ (الكتاب) لم يرد في لقمان إلا مرتين، وورد لفظ الآيات خمس مرات. وأن لفظ (الكتاب) ومشتقات الكتابة ورد في البقرة سبعاً وأربعين مرة، وأن الآية ومشتقاتها وردت فيها إحدى وعشرين مرة.

٢- قال في لقمان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فزاد الرحمة على الهدى بخلاف البقرة، وانظر بعد ذلك مظاهر الرحمة التي عددها ربنا في السورة من مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ نَكَاةً أَنْ يَمَيِّدَ بِكُمْ﴾ [لقمان] وقوله: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَنَافِيَ السَّمَوَاتِ وَمَنَافِيَ الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان] فانظر كيف جمع الهدى والرحمة في هذه الآية؟

إلى غير ذلك من الآيات في السورة.

٣- وصف الكتاب في لقمان بـ (الحكيم)، وهذا الوصف قد يكون بمعنى اسم الفاعل أي: المحكم بكسر الكاف، وقد يكون بمعنى اسم المفعول أي: المحكم بفتح الكاف.. وهو ههنا بمعنى اسم المفعول أي: (المحكم) كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُوحِيَتْ بِإِذْنِهِ﴾. وتأتي هذه اللفظة وصفاً لله بمعنى المحكم، فلما كان الكتاب حكيماً بمعنى محكم كان الله حكيماً بمعنى محكم، فانظر أنه لما قال في وصف الكتاب: ﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾ قال في وصف الله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان، ٣١].

ثم انظر كيف ذكر الحكمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان].

٤- قال في البقرة: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. فانظر كيف قال فيما بعد: ﴿يَتَّبِعُوا النَّاسَ أَعْتِدْ وَأَرْبَابُكُمْ إِلَى خَلْقِكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا﴾ [البقرة]. وقد تكرر لفظ التقوى ومشتقاتها ستاً وثلاثين مرة في هذه السورة.

وقال في سورة لقمان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فانظر كيف قال فيما بعد:
﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان] فذكر الإحسان .

٥- قال في مفتاح البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة] وختمها بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ .

فانظر كيف ذكر الإيمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله في بدء السورة، وختمها بذلك فقال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وذكر الإيمان بالرسول قبله فقال: ﴿لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ .

وقال في أول السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وختمها بقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ .

وقال في بدء لقمان: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فاكد الإيقان بالآخرة .

فأنت ترى أنه قال في البقرة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة] وقال في لقمان: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فاكد الضمير الأول (هم) بالضمير الثاني . فلما أكد الإيمان باليوم الآخر في البدء قال في خاتمتها: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَاةٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدَةٍ﴾ [لقمان] فحذرهم اليوم الآخر .

ولا نريد أن نطيل فهذا فيه كلام كثير .

وقد تطبع السورة كلها بطابع الافتتاح وليس السياق الذي تقع فيه الآية فحسب، ومن هذا النوع من السور سورة مريم . فهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿كَهَيَّعَ ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ [مريم] .

فأنت ترى أنها تبدأ بالرحمة، ولا تقتصر الرحمة على السياق الذي وقعت فيه الآية، بل إن السورة كلها تفيض بالرحمة، والفاظ الرحمة تشيع فيها من

أولها إلى آخرها. فقد قالت مريم لرسول ربها الذي تمثل لها بشراً سوياً: ﴿إِنِّي
 أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَذِيرًا﴾ [مريم] فقد استعازت بالرحمن ليرحمها ويقيها
 السوء ولم تقل: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ كما فعل موسى حين قال لقومه: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ
 أَكُونَ مِنَ الْمُهْزَلِينَ﴾ [البقرة] وذلك أن السياق في البقرة سياق عقوبة ومسح
 وتنكيل ولا تناسب الرحمة ذاك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي
 السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قُرْءَةً خَاسِيَةً ﴿٦٦﴾ فجعلناها كلالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْجِئَةً
 لِلْمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة].

هذا علاوة على أن لفظ (الرحمن) تكرر في مريم ست عشرة مرة، ولفظ
 (الله) تكرر في البقرة مائتين وأثنتين وثمانين مرة، ولم يرد لفظ (الرحمن) في
 البقرة إلا مرة واحدة وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ
 الرَّحِيمُ﴾ [البقرة] فوضع كل كلمة في مكانها اللائق بها.

ونعود إلى جو الرحمة في سورة مريم.

فقد قال الله في عيسى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ [مريم].

وقالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم].

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم].

ثم قال له في عبارة كلها رحمة: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَكِّتَكَ عَذَابٌ مِنَ
 الرَّحْمَنِ﴾ [مريم]. ولم يقل: (عذاب من الله). ثم انظر كيف لما ذكر
 الممناسب ذلك ذكر الرحمة، بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
 أَنُكَلِّمُكَ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةٍ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُفْلِكَ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الأنعام]. وأنت
 ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين والمقامين، فلا يحسن وضع (الرحمن) في
 آية الأنعام كما هو بين. وهذا نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾
 و ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾.

وذكر رحمته لإسحاق ويعقوب فقال: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ
 صِدْقٍ عَلَيْنَا﴾ [مريم].

ورحمته لموسى فقال: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُمْ رَحْمَةً لَخَاءُ هُتُونَ وَيَا﴾ [مريم].

وقال في وصف من أنعم عليهم من خلقه: ﴿إِنَّا نُنْزِلُ الْغَيْمَ بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا
وَبُكِيًا﴾ [مريم].

وذكر جنته التي وعدا عباده المتقين فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ
بِالنَّبِيِّ﴾ [مريم].

ثم ذكر أنه ليحضرن العناية حول جهنم فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَاقًا
أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ [مريم].

وهدد من كان في الضلالة وتوعده قاتلاً: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ
مَتَاعًا﴾ [مريم].

وذكر الذي كفر وزعم أنه سيؤتى مالا وولداً فقال فيه: ﴿أَطْلَعَ النَّبِيُّ إِذَا أَخَذَ
عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم].

وذكر المتقين فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم].

وذكر من يُظَنّ فيهم أنهم يملكون الشفاعة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ
أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم].

ثم ذكر من زعم أن الله اتخذه ولداً فقال: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ
وَلَدًا﴾ [مريم].

ورد عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْشَقْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ
الْأَرْضُ وَنَحْنُ لِلْإِنسَانِ هَمَلٌ ۝ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَاهُ الرَّحْمَنُ عَمَّاكَ﴾ [مريم].

ثم قال في خاتمة السورة: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ مَتَّعُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ سَمِجَعٌ لِّمَنْ
الرَّحْمَنُ وَكَأَنَّ﴾ [مريم].

وهكذا ابتدأ السورة بالرحمة وتنتهي بالرحمة، ويشيع جوها كله بالرحمة،
وتستأنر باسم الرحمن، فلا تدانيها في ذلك سورة من السور.

فانظر كيف طبعت السورة بالطابع الذي ورد في الافتتاح .
ونكتفي بهذا القدر وإلاّ فالكلام طويل طويل .
وانظر بعد ذلك إلى سمو هذا الكلام ورفعه ودقته في اختيار ألفاظه ، ثم
احكم أيمكن أن يكون هذا من كلام البشر؟ .

الحشد الفني

لقد مر بنا تبين الناحية الفنية في موضع واحد من الآية غالباً، كأن يختار لفظاً على لفظ أو يقدم لفظاً على أخرى، أو يزيد في مكان ويحذف من مكان آخر ونحو ذلك. وربما اقتضانا الحديث أن نعرض لأكثر من موضع في الآية الواحدة أو السياق الواحد، مما يدل دلالة واضحة على أن كل كلمة بل كل حرف وضع وضماً فنياً مقصوداً في غاية الدقة والجمال.

وليست هذه الآيات أو السياقات التي سنختارها وحدها موضع الحشد، بل إن القرآن كله حشد فني عظيم متكامل، غير أنه لا بد لبيان ذلك أن نختار أمثلة منه تعيننا على إيضاح ما ندّعيه.

ونود قبل أن نشرع في ضرب الأمثلة أن نبين أنه قد يراعى في اختيار التعبير أمور عديدة وجوانب كثيرة، فقد يراعى السياق الذي ورد فيه التعبير، والسورة التي ورد فيها السياق، والسياقات الأخرى التي يرد فيها تعبير مقارب لهذا التعبير، والسور الأخرى التي فيها مواطن تعبيرية متشابهة أو مختلفة. فهو قد يراعى في تعبير السورة الواحدة وبنائها تعبير جميع السور الأخرى من القرآن الكريم وبناءها.

ولنوضح ذلك بأمثلة من سورة واحدة ولتكن سورة الأنعام، ولا نريد أن نبين الجوانب البلاغية والفنية فيما نذكر، بل نقصر الكلام على بيان قسم من العلاقات الفنية التي يراعيها القرآن في السورة نفسها أو السور الأخرى.

لقد افتتحت السورة بقوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

وقال في خاتمة السورة: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الرِّبَا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام] فناسب بين البدء والختام، فقد ذكر أن الذين كفروا بربهم يعدلون، أما هو فلا يعدل بربه شيئاً. فانظر هذه المناسبة والملاءمة في التعبير حتى كأن التعبيرين في البدء والختام آية واحدة.

ثم انظر إلى التناظر بين التعبيرين فإنه قدّم في التعبير الأول متعلق (يعدلون) وهو قوله: (بربهم)، وقدم في التعبير الآخر مفعول (أبني) وهو قوله: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ﴾.

ثم انظر كيف قال في الختام: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال في البدء: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أليس الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور رب كل شيء؟

فانظر علو هذا الكلام ورفعته.

ولاتحسبن أن هذه السورة هي السورة الوحيدة التي نوسب بين مفتحتها وخاتمتها. فإن التناسب بين مفتاح السور وخواتيمها أمر معلوم ومشهور. ومن ذلك على سبيل المثال سورة النساء.

فقد بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ خَلْقَ بَيْنَهُمَا بَرْكًا وَغَبًّا لَا تَسْأَلُونَ اللَّهَ الْقِيَامَ وَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا فِي هَبْطِهَا بِأَسْفَلِهَا ذَاقُوا كَلَّامَهُم بِإِذْنِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ۝﴾ [النساء].

وختمت بقوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ اللَّهِ يُقَيِّدُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ اللَّهُ الْعِلْمَ لَكُمْ وَلَهُ الْأُخْتِ فَلَهَا يَصِفُ مَا تَرَىٰ وَهُوَ يَرَىٰهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ...﴾ [النساء].

فقد بدأت بخلق الإنسان وبت ذريته في الأرض: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْكًا وَغَبًّا ۝﴾ [النساء] وانتهت بهلاكه من دون عقب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ اللَّهُ الْعِلْمَ لَكُمْ وَلَهُ الْأُخْتِ﴾ وهي صورة فنية عظيمة لبدء الحياة ونهايتها.

كما ابتدأت بإيتاء الأموال للنشء الجديد من اليتامى من أنصبتهم من الموارث وهم يستقبلون الحياة، واختتمت بتقسيم تركات من ودّع الحياة.

وهذا من أعجب التناسب وأبدعه.

ومن ذلك سورة الأعراف فقد بدأت بقوله تعالى:

﴿يَكْتُبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَزَنٌ ۝﴾ [الأعراف].

وختمت بقوله :

﴿وَإِذَا قُرِئَتْ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف].

وهل الكتاب المنزل إليه غير القرآن؟

فانظر كيف بدأت السورة بذكر الكتاب وختمت به أيضاً.

ومن ذلك سورة (هود) فقد ابتدأت بقوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا

اللَّهُ﴾ [هود] وختمت بقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود].

فانظر كيف ابتدأت السورة بالنهي عن عبادة غير الله وختمت بالأمر بعبادته.

ومن ذلك سورة (المؤمنون) فقد جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فشان ما بين الفاتحة والخاتمة^(١).

ومن ذلك سورة (يونس) فقد قال في أولها:

﴿أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أُنْصِتُوا إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّكُمْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ

مِيَدِي وَعِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ [يونس].

وقال في خواتيمها:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس].

فبدأ بالإنذار والتبشير وختم بهما أيضاً، فبينت الآية الأخيرة كيفية تنفيذ ما

طلب منه في الآية الأولى. فقد قال له في الآية الأولى: (أنذر وبشر) ثم علمه

في آيات الختام كيف يفعل ذاك فقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ...﴾ فكانهما جزء من

آية واحدة.

ومن ذلك في سورة ﴿ص﴾ فقد بدأت بقوله:

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الْإِكْر ۖ﴾ [ص].

(١) الكشف ٣٧١/٢.

وقال في خواتيمها:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص].

فأقسم في بدء السورة بالقرآن ذي الذكر، وختمها بالكلام على القرآن أيضاً وقال: إنه ذكر للعالمين. فبين ما أجمله في الافتتاح.

ومن ذلك سورة (ق) فقد بدأت بقوله تعالى:

﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [ق].

وختمت بقوله:

﴿قَدْ كَرَّمْنَا الْقُرْآنَ مِنْ خِثَافٍ وَعِثَافٍ﴾ [ق].

والتناسب ههنا أظهر من أن يشار إليه.

وغير ذلك كثير. ولازيد أن نطيل في ذلك، فإن فيما مر كفاية فيما أحسب. فاتضح أن التناسب بين مفتاح السور وخواتمها ليس شيئاً عارضاً ولا موافقة عابرة، وإنما هو سمة بارزة من سمات هذا الكتاب الكريم وأمر مقصود في هذا الكلام الرفيع.

ونعود إلى سورة الأنعام.

فقد قال في هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام] وقال في البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فوضع كل لفظة منهما في سياقها الذي يقتضيها أولاً. ثم راعى في الأنعام ما ورد في البقرة - وفي البقرة ما ورد في الأنعام من تردد لفظي (الرب) و (الله) كما سبق بيانه.

وقال في الأنعام: ﴿أَنْتَ أَكْثَرُ مَنْ تَفْقَهُ وَتَدْنُو﴾ وقال في النساء والأعراف والزممر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وقد راعى في هذا الاختيار السياق الذي وردت فيه الآية كما راعى تردد لفظ (الإنشاء) في الأنعام والنساء والأعراف والزممر فراعى عدة سور في آن واحد.

وقال في الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّجْمِ﴾ وقال في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّجْمِ﴾ فزاد اللام في (سريع)،

وذلك أن سياق الأعراف يقتضي هذه الزيادة، إذ هو في مقام تعجيل العقوبات بخلاف الأنعام.

وقال في الأنعام: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمُ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وقال في الشعراء: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَاسَيَلْنَاهُمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. فقد زاد كلمة (الحق) في آية الأنعام وأغلاها منها في الشعراء، وقد راعى في ذلك الجانب اللفظي لبناء السورتين علاوة على الجانب المعنوي، فقد ترددت كلمة (الحق) في الأنعام اثنتي عشرة مرة، ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء، فوضع كل لفظة في المكان الذي هي أليق به.

ثم انظر كيف ذكر (سوف) في الأنعام والسين في الشعراء، فإنه علاوة على السياق الخاص الذي وردت فيه كل آية من الآيتين، والذي يقتضي كل منهما ذكر ما ورد في سورة الأنعام على تأخير العقوبات بخلاف سورة الشعراء. وهذا واضح في بناء كل من السورتين. وانظر علاقة ذلك بما ذكرناه في (سريع العقاب) و (لسريع العقاب)، وقد سبق أن بينا ذلك بصورة مفصلة.

وقال في الأنعام: ﴿تَحْنُ نَزْدُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وقال في الإسراء: ﴿تَحْنُ نَزْدُهُمْ وَإِيَّاكَ﴾. ففرق بين التعبيرين بحسب سياق كل من الآيتين وبنائها.

فانظر كيف راعى في سورة واحدة سوراً متعددة، راعى ألفاظها وسياقها وجوها وكل كلمة وردت فيها، فقد راعى البقرة والأعراف والشعراء والإسراء والنساء والزمر وغيرها، بل ربما راعى في الموطن الواحد جميع سور القرآن وجميع آياته من جميع العلائق والاحتمالات.

فانظر الآن أي تعبير هذا الذي بين الدفتين واحكم بنفسك: أيقدر على مثله البشر أو أي مخلوق من مخلوقات الله؟

وهذا غيض من فيض وقطرة من بحر.

ثم نشرع الآن في بيان أمثلة من الحشد الفني.

الساعة) فنفي بـ (لا) لما كان الكلام على الساعة ولم يقل: (ما تأتينا) لأن الساعة استقبال؟

وقال في آية سبأ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾، وقال في آية يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ فجاء بالضمير في سبأ لأنه تقدم ذكر الرب عالم الغيب فيها فأعاد الضمير عليه، فقد قال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ﴾. ولم يتقدم ذكر له في يونس فلذلك ذكره صريحاً.

وأما زيادة (من) في آية يونس وعدم ذكرها في آية سبأ، فلأن سياق كل آية منهما يقتضي ذلك. وذلك أن الكلام في آية يونس على إحاطة علم الله بعلم الغيب وأنه يعلم كل شيء، وبدأ الآية بقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ﴾.

وأما في آية (سبأ) فالكلام على الساعة ابتداء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ...﴾ [سبأ] فجاء بعلم الغيب تبعاً للساعة، أما في آية يونس فالكلام ابتداء على علم الغيب ومقدار علم الله وإحاطته بكل شيء بحيث لا يند عنه شيء، فناسب ذلك زيادة (من) الاستغرافية المؤكدة التي تستغرق كل مذكور.

وأما تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ (مقابل ذرة في السماوات ولا في الأرض) فلأن الكلام على الساعة وأمرها يأتي من السماء وهي تبدأ بأهل السماء كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر] وكما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَخِرُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل].

في حين قدم الأرض على السماء في آية يونس لأن الكلام على أهل الأرض وذلك أنه قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ﴾ [يونس] فناسب ذلك تقديم الأرض في آية يونس،

وناسب تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: لم قدمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا ذَرَّةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾» [سبأ؟]

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء^(٢).

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ^(٤) هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُ سُدُورَ الْأَرَاخِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٥) [آل عمران].

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿قَدْ سَبَّحُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦) يُدَبِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ^(٧) وَمَا أَنْشَرِ يُمَجِّدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٨) [العنكبوت].

فإنه لما كان الكلام على أهل الأرض فيما مر من الآيات قدم الأرض على السماء^(٩). وأفرد السماء في آية يونس وجمعها في آية سبأ، وقد يبدو ذلك مخالفاً للسياق لأن السماوات أكثر من السماء، والمناسب لاستفراق علم الله بالغيب الجمع. وبإدنى تأمل يتضح أن كل لفظة في مكانها أنسب وأليق.

فقد بينا في موضع سابق أن (السماء) في القرآن تستعمل على معنيين، فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقَنَا السَّمَاءَ الْوُثْيَا

(١) انظر بدائع الفوائد ٧٤/١.

(٢) الكشاف ٧٩/٢.

(٣) انظر البرهان للكرمانى ٢٢٧.

يَمْصَّبِحُ ﴿١٧﴾ [الملك] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤُونَ﴾ [الحجر].

وأما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره. ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من (السماوات) لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع.

وقد وردت في آية يونس بهذا المعنى الشامل العام: ﴿وَمَا يَمُرُّبُّ عَنْ رَبِّكَ مِن يَشَقَّالٍ دَرُّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهو المناسب للدلالة على سعة علم الله وإحاطته بالغيب واستغراق علمه لكل شيء. فهو أوسع من أن يكون في السماوات السبع وأعم. وناسب ذلك أيضاً ذكر (من) الاستغراقية معها في هذه الآية. وجاء بها مجموعة في آية سبأ لأنه ليس المقام مقام استغراق وإحاطة كما ذكرنا. ثم قال في آية سبأ، ﴿وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع. وقال في آية يونس: ﴿وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابَيْنِ﴾ بالنصب، فجاء في آية يونس بلا النافية للجنس الدالة على الاستغراق والتأكيد، ليناسب مقام إحاطة علم الله بالغيب واستغراقه لكل شيء، ويناسب الاستغراق الذي جاءت به (من) الاستغراقية والاستغراق الذي أفادته كلمة (السماء)، لأن (لا) النافية للجنس تفيد الاستغراق كما هو معلوم.

وجاء في آية سبأ بـ (لا) النافية التي لا تنص على الاستغراق، وهي أقل تأكيداً من (لا) النافية للجنس، لأن المقام لا يقتضيه والسياق ليس عليه، بل ذكر علم الغيب فيه تبعاً لذكر الساعة كما أوضحنا.

فترى أن كل كلمة بل كل حرف وضع في مكانه اللائق المناسب.

٢- وإليك مثلاً آخر:

قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ هَارُونَ بِآيَاتِهِمْ وَيَدْعُونَ بِأُلْحَادِهِمْ وَمِن دُونِهِمْ هُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ [النحل].

وقال:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَفْرَكُوا لَوْلَا أُفْرَكُنَا وَلَا عَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين:

الأنعام

النحل

ما أشركتنا	ما عبدنا
ولا آباؤنا (بدون نحن)	نحن ولا آباؤنا
حرمتنا من شيء	حرمتنا من دونه من شيء
كذب الذين من قبلهم	فعل الذين من قبلهم

إن سياق سورة النحل في الرد على الشرك والنهي على المعبودات الباطلة من دون الله، فالسورة تبدأ بتزويه الله عن الشرك: ﴿سُبْحَنَكَ وَقَمَلْنَا عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل] ﴿تَقَمَلْنَا عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٢﴾﴾ [النحل]. وتبين أن الذين اتخذوهم شركاء ليسوا إلا مخلوقات، مثلهم بل هي أحط منهم فهي لا تعي ولا تشعر ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٣﴾ أَمْ تَأْتُونَ عِزَّهُمْ لِمَا يَشْعُرُونَ ﴿٤﴾ إِبَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٥﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِيدٌ قَالِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ ﴿٦﴾﴾ [النحل].

وتستمر السورة في الكلام على العبادات وبيان أن كل شيء إنما هو خاضع لله عابد له. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُفْتَقِرُونَ إِلَهُهُ عَنِ الْيَسِيرِ وَالْعَسَاوِيلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٧﴾﴾ وَقَوْ يَسْجُدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل].

وقال: ﴿وَيَسْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٩﴾﴾ [النحل].

بينما سياق سورة الأنعام في الكلام على ما زعموه من محرمات الأطعمة، وما يعتقدونه من أمور باطلة في أنصبة الحرث والأنعام، وما افتروه على الله من تحليل وتحريم بغير علم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا قِيَمًا ذَرَأً مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَيْسِبًا فَقَالُوا هَذَا لِلّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام].

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهُمْ إِلَّا مَنْ أُنْشَاءَ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حَرَمَتَ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِمْ سُبْحَنَ بِهِمَا كَمَا أَثَا يَقْرَءُونَ﴾ [الأنعام] ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَنَاسِكِ اللَّهِ أَوْ ذَرَجَاتٍ وَإِن يَكُن مِّمَّنْ لَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام].

﴿ثُمَّ نَبَيَ الْأَنْعَامِ نَبِيٌّ أَتَيْنَاهُ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفَلَا تُعْقِلُونَ ۚ مَا لَكُمْ إِذَا أُذْهِقَ الْهَيْمُ وَكَانَ الْجَذْيُ أَوْ الْفَخْرُ شَرًّا فَيَمْنَعُونَهُ ۚ أَيَسْبَحُونَ بِمَا يَسْبَحُونَ فَتَحْتَمِلُهُمْ كِلَاهُمَا إِنَّهُ لَدَلِيلٌ رَبِّكُمْ فَلْيُحَدِّثْ إِلَى الْوَسْطَىٰ ۚ إِنَّهُ لَنَدِيرٌ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام] ﴿وَمَا أَصْحَابُ الْأَنْعَامِ بِأَعْيُنِنَا ۚ سَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ جُلُودَ النَّعْمِ بِأَعْيُنِنَا ۚ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام] ﴿وَمَا أَصْحَابُ الْأَنْعَامِ بِأَعْيُنِنَا ۚ سَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ جُلُودَ النَّعْمِ بِأَعْيُنِنَا ۚ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام] ﴿وَمَا أَصْحَابُ الْأَنْعَامِ بِأَعْيُنِنَا ۚ سَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ جُلُودَ النَّعْمِ بِأَعْيُنِنَا ۚ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام] ﴿وَمَا أَصْحَابُ الْأَنْعَامِ بِأَعْيُنِنَا ۚ سَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ جُلُودَ النَّعْمِ بِأَعْيُنِنَا ۚ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام].

فلما كان السياق في آيات النحل على الشرك في العبادات وعبادة غير الله ونحو ذلك مما يتعلق بالعبادة قال: (ما عبدنا من دونه).

ومما حسن ذلك أيضاً قوله تعالى بعد الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافَ﴾ [النحل].

فناسب ذلك ذكر العبادة.

ولما كان السياق في الأنعام على الشرك في التحليل والتحریم، ولا سيما في الأطمعة وليس المقصود بالشرك هنا الشرك الخاص بعبادة غير الله لم يصرح بالعبادة. ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْثَلًا تَرْبُّكُمْ أَسْأَلُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ رَبَّكُمْ أَفْسَقَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ يَكُونُ إِيَّاهُ أُخْلَا بَهُمْ لِيُجَدِّدَ لَهُمْ وَلَكُمْ لَمُشْكُونٌ﴾ [الأنعام].

فسماهم مشركين لإطاعتهم أولياء الشيطان.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لفظ (الشرك) وما تفرع عنه تردد في الأنعام أكثر مما في النحل. ولفظ العبادة تردد في النحل أكثر مما في الأنعام. فقد تردد لفظ (الشرك) ومشتقاته ثمانياً وعشرين مرة في الأنعام، وتردد في النحل تسع مرات، وترددت العبادة في النحل أربع مرات، وفي الأنعام مرتين، فوضع لفظ العبادة في النحل والشرك في الأنعام جاعلاً كل لفظ في المكان الذي هو أليق به.

ولما كان السياق في النحل في العبادة والتوحيد وهي أهم من الأطمعة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ لِمَنْ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات] زاد (نحن) توكيداً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الكلام في النحل موجه إلى المخاطبين أكثر مما في الأنعام، لذا كان من المناسب زيادة (نحن) في النحل دون الأنعام لأنه جواب منهم.

وقد تردد ذكر من هم دون الله من المعبودات في النحل أكثر مما في الأنعام، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل] لذا زاد: (من دونه) فيها.

هذا علاوة على أن ذكر (من دونه) بعد قوله: (ما عبدنا) يقتضيه المعنى، بخلاف (ما أشركنا) وذلك أنه لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) لم يكن المعنى

مستقيماً. وكذلك لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا من شيء). فانه لم ينح عليهم أصل العبادة فان العبادة مطلوبة، ولكن نعى عليهم عبادة غير الله. فلو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) لكانت العبادة مرفوضة أصلاً، ولو قال: (ما عبدنا من شيء) لكان الله سبحانه يدخل في جملة المعبودات المرفوضة، وسيكون المعنى أنه لا شيء يصلح للعبادة حتى الله سبحانه. ولذا كان لا بد من ذكر (من دونه من شيء) ليصح المعنى المراد.

وأما قوله: (لو شاء الله ما أشركنا) فإنه واضح القصد تام المعنى، فإن مفهوم الشرك واضح معلوم وهو مذموم بكل صوره وأشكاله. فقوله: (ما أشركنا) معناه: ما أشركنا مع الله أحداً. ولا يقتضي هذا التعبير زيادة شيء لتوضيحه.

جاء في (درة التنزيل) في ذكر (من دونه شيء) بعد قوله: (ما عبدنا) دون (ما أشركنا). «قوله: (ما أشركنا) مُستغنى عن ذكر المفعول به وإن كان في الأصل متعدياً لقوله: (أن تشركوا به شيئاً) وإنما لم يحتج إلى ذكر المفعول به كما احتاج إليه (عبدنا) لأن الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته. والعبادة لا تدل على إثبات معبود لا يجوز إثباته، لأنها تدل على معبود هو مثبت لا يصح نفيه.

فقوله: (ما عبدنا) غير مستنكر أن يعبدوا، وإنما المستنكر أن يعبدوا غير الله شيئاً فكان تمام المعنى بذكر قوله: (من دونه من شيء). وكذلك: (ولا حرمننا من دونه من شيء) لا بد من (حرمننا) من قوله: (من دونه من شيء). ولم يحتج إليه بعد قولنا: (ما أشركنا) لأن الإشراك دال على أن صاحبه يحرم شيئاً من دون الله، ولا يدل (عبدنا) على ذلك. فوفى اللفظان في سورة النحل حقهما من التمام»^(١).

وقال في (الأنعام): ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي النحل: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وذلك لما تردد في الأنعام اقترائهم وكذبهم على الله فقد قال عنهم أنهم: ﴿وَجَعَلُوا قِيَمًا ذَرًا مِّنَ الْحَرَابِ وَالْأَنْعَامِ نَجِيبًا

(١) درة التنزيل ١٣٣-١٣٤.

فَقَالُوا هَذَا لِلّٰهِ بِرَحْمَتِهِ وَهَذَا لِحُكْمَانَا ﴿١٣٨﴾ وقال كذب واقتراء على الله . وقال بعدها: ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿١٣٩﴾ وقال بعدها: ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَهْلَكُونَا وَغَضَبْتَ أَجْرَهُمْ لَوْلَا رَحْمَتُ رَبِّنَا إِذَا مَتَّعْتُمُوهَا وَأُنتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴾ ﴿١٤٠﴾ .

وقد ذكر من كذبهم الشيء الكثير - انظر الآية ١٣٩ .

وقد قالوا: إن الله حرم ثمانية أزواج من الأنعام فقال لهم: ﴿ قُلِ الَّذِينَ حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَالْمُنْفَرِقَاتِ وَأُمَّهَ الْمَرْثُومَاتِ مَا بَلَغْنَ أَهْلَهُنَّ الْحَبَاثَاتِ وَالْمُضْغَمَاتِ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَالْمُنْفَرِقَاتِ وَأُمَّهَ الْمَرْثُومَاتِ مَا بَلَغْنَ أَهْلَهُنَّ الْحَبَاثَاتِ وَالْمُضْغَمَاتِ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَالْمُنْفَرِقَاتِ وَأُمَّهَ الْمَرْثُومَاتِ مَا بَلَغْنَ أَهْلَهُنَّ الْحَبَاثَاتِ وَالْمُضْغَمَاتِ ﴾ ﴿١٤١﴾ .

أما السياق في النحل فيقتضي لفظ (فعل) دون (كذب) وذلك أن الآية وقعت في سياق الفعل والعمل دون سياق الافتراء والتكذيب، فقد قال قبلها: ﴿ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٤٢﴾ وقال: ﴿ كَذَلِكَ فَضَّلْنَا الْبَنِيَّ مِنَ الْبَنَاتِ وَأَمْزَجْنَا لَهُمَا مِمَّا جُمِعَ مِنْهُ بَدَنًا لَّيْسَ بِهِ مَرْثُومٌ وَلَا يُخَفَّى عَلَيْهِ مَرْثُومُهُ ﴾ ﴿١٤٣﴾ . فقد ذكر فعل الذين من قبلهم وذكر ظلمهم لأنفسهم . والظلم فعل .

وقال: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿١٤٤﴾ فذكر عملهم واستهزاءهم وهذا كله فعل ثم جاء بالآية بعدها .

فأنت ترى أن (الفعل) هو المناسب لسياق النحل، وأن التكذيب هو المناسب لسياق الأنعام .

هذا علاوة على تردد (الكذب) في الأنعام أكثر مما في النحل . فقد تردد ذكر الكذب في الأنعام إحدى وعشرين مرة، في حين تردد في النحل عشر مرات فكان ذكر (كذب) أليق في الأنعام .

وتردد (الفعل) في النحل أكثر مما في الأنعام فقد تردد فيها أربع مرات، وفي الأنعام ثلاث مرات فكان لفظ (فعل) أليق في النحل . وهكذا وضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها .

ثم إن خاتمة كل آية الیق بها من صاحبها. فقد ختم آية الكذب والافتراء والقول على الله بغير علم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فَخْرُصُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام]. فإذا لم يكن عندهم علم لم يكونوا إلا ظانين متخرصين.

وختم آية التبليغ الواقعة في سياق التبليغ بقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل] ويأتي بعدها تبليغ الرسل لأمرهم دعوة الله ﴿وَلَقَدْ بَشَّأْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٨٧﴾﴾.

٣ - وإليك مثلاً آخر وهو قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿فَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَلَا تُولَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقوله في هذه السورة أيضاً:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَلَا تُولَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

والآن انظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين:

الآية ٨٥

الآية ٥٥

أموالهم ولا أولادهم	أموالهم وأولادهم (بدون لا)
ليعذبهم	أن يعذبهم
في الحياة الدنيا	في الدنيا

وسبب ذلك والله أعلم أن السياق في الآية الأولى ذات الرقم ٥٥ يختلف عن السياق في الآية الثانية.

إن الآية الأولى في سياق إنفاق الأموال والخطاب للمنافقين. قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِلَّا كَمُؤْتٍ قَوْمًا فَيُسْأَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ

تَقْبَلُ مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَاكٌ
وَلَا يُؤْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِبُونَ ﴿١٠٠﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ... الآية .

وبعدهما: ﴿ وَفِيهِمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ
يَسْتَخْطُونَ ﴾ (١٠١) .

وبعدهما: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِمُ وَالْمَوْلُوفُ لَهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِ ﴾ (١٠٢) .

فالسباق في إنفاق الأموال والكلام على المنافقين وأموالهم، ثم وجه
الخطاب إلى الرسول قائلاً: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾
فزاد (لا) النافية تأكيداً ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ وزاد اللام في (ليعذبهم)
لزيادة الاختصاص وتوكيده

في حين أن السياق مختلف في الآية الأخرى. قال تعالى: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ
إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعْتَذَرُوا لَخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ
بِالْفُجُورِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (١٠٣) وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنَآوَاهُمْ فَنَسِيتُمْ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
بِهَا فِي الدُّنْيَا... ﴾ .

فسباق الآيات الأولى في إنفاق الأموال، فأكد ذلك بزيادة (لا) واللام.
ولما اختلف السياق في الآيات الأخرى خالف في التعبير فلم يذكر (لا) ولا
اللام، لأن المقام لا يقتضي التوكيد هنا.

ولما طال الكلام على الإنفاق والأموال في الآيات الأولى، زاد الكلام في
هذه الآية دون الأخرى فقد زاد (لا) و (اللام) و (الحياة). ولما كان المال
عصب الحياة كما يقال ومظنة الوصول إلى الرفاهية والسعادة زاد كلمة (الحياة)
ههنا، بخلاف الآية الأخرى فإنها في سياق الجهاد والقتال. والقتال والجهاد
مظنة القتل وفقد الحياة، ولذا لم يأت بالحياة في سياق الجهاد، بخلاف سياق
المال، لأن الحرب سبيل فقد الحياة بخلاف المال والله أعلم.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١٧) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَانٍ رَاجِعُونَ ﴿١٨﴾ [الأنبياء].

وقوله:

﴿ وَلَئِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٩) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٠﴾ [المؤمنون].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين:

الأنبياء المؤمنون

فاعبدون فاتقون

وتقطعوا فتقطعوا

— زبُرًا

كل إلنا راجعون كل حزب بما لديهم فرحون

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: (فاعبدون) وفي سورة المؤمنون: (فاتقون) فإن كل سياق يقتضي ذلك من أكثر من وجه.

فإن آية المؤمنين جاءت في عقب ذكر عقوبات طوائف كثيرة من الأمم ممن عصوا الرسل وإهلاكهم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ نَسَاءً بَعْدًا لِّلْقَوْرِ الْفَٰلِغِينَ ﴾ (١١) وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ بَعْدًا لِّقَوْرِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢).

ويستمر التحذير والتهديد بعد هذه الآية وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي فَنَرْفِهَ حَثَّىٰ جِئَني ﴾ (١٣) وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِنَّا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (١٤) وغير ذلك وغيره. فأنت ترى أن التحذير والتهديد اكتنف هذه الآية اكتنافاً، بل إن جو السورة مشحون بالتحذير والتهديد.

وأما آية الأنبياء فإنها جاءت بعد ما يدل على الإحسان والتفضل واللفظ التام كما في قصة أيوب وزكريا ومريم.

فناسب أن يوضع لفظ: (فاتقون) في آية (المؤمنون) لما فيه من التحذير والتخويف المناسب للعقوبات والإهلاك، ولفظ: (فأعبدون) في آية (الأنبياء) بعد ذكر الإحسان واللفظ «فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته»^(١).

ثم انظر من ناحية أخرى إلى خاتمة السورتين، فقد ختم سورة الأنبياء فيمن سبقت لهم الجسنى وختم لهم بالسعادة، وختم سورة المؤمنين فيمن كان من أصحاب الشقاء وكان من أصحاب الجحيم.

فناسب من هذا الوجه أن تختتم آية المؤمنين بالأمر بالاتقاء ليتقوا عذاب النار ويحذروا هذا المصير الويل، كما ناسب أن تختتم آية الأنبياء بالأمر بالعبادة لينالوا هذه السعادة ويحفظوا بهذا الإحسان والتفضل الكبير. وهذا كما ترى مناسب لما تقدم كلاً من الآيتين من عقوبات وتحذير في سورة (المؤمنون) ولطف وتفضل في سورة (الأنبياء).

ثم انظر من الناحية التعبيرية، فإن لفظ الاتقاء والتقوى ومشتقاتها لم ترد في سورة الأنبياء البتة لأن السياق لا يقتضيها، بخلاف سورة (المؤمنون) فإنه ورد فيها ذلك أربع مرات وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِلْمٍ إِلَّا أَنْتُمْ عِلْمٌ﴾ وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِلْمٍ إِلَّا أَنْتُمْ عِلْمٌ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢).

وأما لفظ العبادة ومشتقاتها فقد وردت في سورة الأنبياء ثمانى مرات^(٣)، ووردت في سورة (المؤمنون) مرتين فقط^(٣).

فيكون على هذا الأمر بالتقوى في آية (المؤمنون) في موطنه ومعناه، والأمر بالعبادة في آية الأنبياء كذلك.

(١) انظر البحر المحيط ٤٠٩/٦، روح المعاني ٤١/١٨، ملاك التأويل ٧٠٨/٢.

(٢) انظر الآيات ١٩، ٢٥، ٥٣، ٧٣، ٨٤، ٩٢، ٩٨، ١٠٦.

(٣) انظر الآيتين ٣٢، ٤٧.

فناسب من كل وجه الأمر بالعبادة في آية الأنبياء والأمر بالانتقاء في آية (المؤمنون).

وأما قوله في الأنبياء: (وتقطعوا) بالواو، وفي سورة (المؤمنون): (فتقطعوا) بالفاء فيقتضي كل سياق ما ورد فيه. فقد جاء في آية (المؤمنون) بالفاء للدلالة على أن التقطع والافتراق وقع في عقب الأمر بالتقوى، وذلك مبالغة في عدم قبولهم وفي نفارهم عن توحيد الله وعبادته، مما يدل على شدة كفرهم وعنادهم، جاء في (روح المعاني): «والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم»^(١).

وجاء في الأنبياء بالواو مما يحتمل تأخر تقطعهم عن الأمر بالعبادة^(٢) لأن الواو لمطلق الجمع وليست كالفاء التي تفيد التعقيب والترتيب. فنص على الأولين بأنهم افترقوا وأنكروا في عقب أمرهم بالتقوى، ولم ينص على هؤلاء بذلك. فورود الفاء في سياق آية (المؤمنون) أنسب لما فيه من عقوبات وإهلاك وتحذير، وورود الواو في سياق آية الأنبياء أنسب.

وقال في آية (المؤمنون): (زُبُرًا) تأكيداً للفرق الذي حصل، ومعنى زُبُر: فِرَق جمع فرقة^(٣). وهذا التوكيد هو المناسب لهؤلاء الأقوام المبالغين في العناد والكفر، بخلاف آية الأنبياء.

وقال في آية (المؤمنون): ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَزِمْتُمْ فَرِحُونَ﴾ وهو المناسب لقوله (زُبُرًا) والزير: هي الجماعات والأحزاب والفرق كما ذكرنا، فلما أكد التفرق ناسب ذكر الأحزاب لذلك.

وقال في ختام آية الأنبياء: ﴿كُلُّ إِتْنَارٍ حُمْرٌ﴾ وذلك لقوله بعد هذه الآية: ﴿وَحَرَمٌ عَلَى قُرْبَى أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٤) وعلاوة على ذلك تردد

(١) روح المعاني ٤١/١٨.

(٢) انظر البحر المحيط ٤٠٩/٦، ملاك التأويل ٧١٠/٢-٧١٢.

(٣) انظر روح المعاني ٤١/١٨.

الرجوع ومشتقاته في هذه السورة ست مرات، في حين لم يرد في سورة (المؤمنون) إلا ثلاث مرات.

فناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه أحسن مناسبة ولاءمه أتم ملاءمة.

٥ - ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٠١﴾ [الحج].

وقوله:

﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِكُمْ تَكْذِبُونَ ١٠٢﴾ [السجدة].

ولننظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين.

الحج السجدة

من غمٍّ —

— وقيل لهم

عذاب الحريق عذاب النار

— الذي كتم به تكذبون

أما زيادة قوله (من غمٍّ) في آية الحج فهو المناسب، وذلك أنه ذكر الجزاء مفصلاً في سياق الحج بالنسبة للمؤمنين والكافرين. وقال تعالى: ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٠١﴾ [الحج]. وقال تعالى: ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِكُمْ تَكْذِبُونَ ١٠٢﴾ [السجدة].

أما في سورة السجدة فقد وقع ذكر الجزاء موجزاً بالنسبة إلى الطرفين: قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ تَزَلُّونَ فِيهَا كَآثُرًا يَمْشُونَ فِيهَا ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ ۖ الَّذِي كُنتُمْ بِرَبِّكُم تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

فناسب قوله: (من غم) ذكر التفصيل الوارد في سورة الحج دون السجدة^(١)، ثم إنَّ العذاب المذكور في آيات الحج أشد مما ورد في السجدة، والعذاب الشديد مدعاة إلى الغم كما لا يخفى فناسب ذكر الغم لذلك.

وأما ذكر: (وقيل لهم) في آية السجدة دون آية الحج، فقد يظن ظاناً أنه كان ينبغي ذكر هذه العبارة في آية الحج دون آية السجدة، لما في آيات الحج من تفصيل، وفي آية السجدة من إيجاز، ولكن بأدنى تأمل يتضح أنها وقعت في المكان المناسب لها تماماً وأن المقام يقتضيها من أكثر من وجه. ذلك أن مشهد العذاب في آيات السجدة مشهد غائب مخبر عنه وأن التعبير فيها بني على الغيبة. والسياق في كل من المواطنين يوضح هذا الأمر أبين توضيح. قال تعالى في سورة الحج: ﴿هَٰذَا خَصَمَانِ اٰخِصِمُوٓا۟ فِي رَبِّكُمۡ ۖ فَالَّذِيۨنَ كَفَرُوٓا۟ قُتِلُوۡا۟ لَمْ يَكُنۡ لَّيۡنَ اٰلِیۡهِمْۡ اَنۡ يَّكُوۡنُوۡا۟ فِیۡ سَبۡیۡلِ رَّبِّکُمۡ ۚ فَسَقُوۡا ۚ﴾.

فقد بدأ المشهد بقوله: ﴿هَٰذَا خَصَمَانِ اٰخِصِمُوٓا۟ فِي رَبِّكُمۡ﴾ فأشار إلى هذين الخصمين باسم الإشارة الدال على المشاهدة والحضور والقرب. فناسب ذلك عدم ذكر: (وقيل لهم) الدال على الغيبة.

وأما في السجدة فالمشهد غائب كما ذكرت، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ۖ﴾.

فناسب ذلك أن يقال: (وقيل لهم) بخلاف آية الحج.

(١) انظر ملاك التأويل ٧١٧-٧١٨.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: إن القول ومشتقاته تردد في سورة السجدة أكثر مما تردد في سورة الحج، فقد ورد في سورة السجدة سبع مرات، وورد في سورة الحج ست مرات، مع أن سورة الحج أطول من سورة السجدة بكثير، فإن آيات سورة الحج تبلغ ثمانياً وسبعين آية، في حين تبلغ آيات سورة السجدة ثلاثين آية.

فناسب من هذا الوجه أيضاً أن يذكر القول في السجدة دون الحج.

وأما قوله في آية الحج: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَسِيفِ﴾. وقوله في آية السجدة: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ فإن كلا تعبير مناسب لموطنه الذي ورد فيه. فإن آية الحج قيلت في الكافرين. قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ...﴾.

وآية السجدة قيلت في الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾. والفسق قد يطلق على ما دون الكفر وقد يطلق على الكفر، فلما صرح بالكفر في سورة الحج كان ذكر العذاب أشد فقال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَسِيفِ﴾. والحريق هو النار البالغة في الإحراق^(١). فذكر أن للفاسقين النار وللکافر النار البالغة في الإحراق. وهذا يناسب من ناحية أخرى ذكر الغم في آية الحج دون السجدة.

فناسب كل صنف عذابه الذي ذكر معه.

وأما ذكره في آية السجدة التأكيد بعذاب النار وهو قوله: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ التَّكْذِيبُ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية الحج، فذلك لأن آية السجدة في الفاسقين، والفسق قد يقال لما دون الكفر، فبيّن أن هذا الصنف هم من الكفرة المكذبين بالوعيد لئلا يظن ظان أنهم من عصاة المؤمنين. وأما في سورة الحج فقد أفصح بكفرهم فلا حاجة لذلك. جاء في (ملاك التأويل): «أن آية السجدة لما قيل فيها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ والفسق: الخروج، وقد يكون إلى معصية دون الكفر، ويكون إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع

(١) روح المعاني ١٧/١٢٢.

سَيِّئًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانُمْ مَنصُورًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْفُورًا ﴿٢٣﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٤﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا ﴿٢٥﴾ وَلَا تَنسُوا فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكُمْ تَقْرَوْنَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ لِبَالًا طُولًا ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ [الإسراء].

* * *

هاتان الموعظتان متشابهتان تقريباً إلا في الإيجاز أو التفصيل. فقد بنيت آيات الأنعام على الاختصار والإيجاز، وبنيت آيات الإسراء على التوضيح والتفصيل.

إن الأمور المشتركة التي تشتمل عليها كلتا هاتين المجموعتين من الآيات هي :

- ١ - النهي عن الإشراك بالله .
- ٢ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين .
- ٣ - النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر .
- ٤ - النهي عن الاقتراب من الفاحشة .
- ٥ - النهي عن قتل النفس .
- ٦ - النهي عن التصرف بمال اليتيم .
- ٧ - الأمر بإيفاء الكيل والميزان .
- ٨ - الأمر بالإيفاء بالعهد .

إن هذه الآيات وردت في السورتين على نسق واحد مع اختلاف يسير بينهما. وإليك طرفاً من هذا الاختلاف.

- ١ - قال في الأنعام : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَاتِلُوا أَوْلَادَكُمْ هَٰذَا خَبِيرٌ﴾ وقال في الإسراء : ﴿خَبِيرٌ﴾

٢ - قدّم ضمير الآباء على الأبناء في الأنعام: ﴿عَنْ تَرْزُقِكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، وقدّم ضمير الأبناء في الإسراء: ﴿عَنْ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

٣ - نهى عن الفواحش عموماً في الأنعام فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. ونهى عن الزنى خاصة في الإسراء فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَأَنَّكُمْ فَجِشَةٌ وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

٤ - قدّم الإيفاء بالكيل والميزان على الوفاء بالعهد في الأنعام. وقدّم الوفاء بالعهد عليهما في الإسراء.

٥ - زاد الأمر بقول العدل في الأنعام فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾. ولم يذكر ذلك في الإسراء. وزاد في الإسراء إيتاء ذوي القربى والنهي عن التقدير.

٦ - قدّم الجار والمجور على فعل الإيفاء في الأنعام فقال: ﴿وَيَمْنَعُ اللَّهُ أَوْفُوا﴾. وقدّم الفعل على الجار والمجور في الإسراء فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾.

٧ - زاد عبارة ﴿إِذَا كُنْتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ في الإسراء، ولم يذكر ذلك في الأنعام.

هذه أهم الاختلافات بين الآيتين في السورتين علاوة على الاختلاف في التفصيل أو الإجمال كما ذكرنا. وسنبين أسباب هذه الاختلافات بصورة موجزة.

١ - قال في الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِمْ شَيْئًا﴾ فنهى عن الشرك.

وقال في الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتُمْ مَذْمُومًا تَحْذَرُونَ﴾ فنهى عن الشرك، ثم قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فأمر بتخصيص الله بالعبادة. ففصل في الإسراء ما لم يفصل في الأنعام، وذلك متناسب مع سياق كل منهما من حيث التفصيل أو الإيجاز.

٢ - قال في الإسراء والأنعام بعد النهي عن الشرك بالله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك لعظم منزلة الإحسان إلى الأبوين عند الله.

ولما قال في الأنعام: ﴿ قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُنتُمْ عَلَيْهِ كَافَّةً ﴾ كان المظنون أن يقول: (ولا تسيئوا إلى الوالدين) لأنه بسبيل ذكر المحرمات، والإساءة إلى الوالدين من المحرمات، إلا أنه عدل عن ذلك إلى قوله: ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لأن عدم الإساءة لا يفي بحق الوالدين. فال المطلوب هو الإحسان إليهما وليس عدم الإساءة إليهما. ولو قال: (ولا تسيئوا إليهما) لفهم من ذلك أن عدم الإساءة كافٍ بحقهما والإحسان تفضل منك عليهما. جاء في تفسير البيضاوي في قوله: ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ «أي: وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما»^(١).

وقد زاد على ذلك في سورة الإسراء فتبسط في ذكر إحسان معاملتهما وعدم الإساءة إليهما فقال: ﴿ إِنَّمَا يُلَقِّنُ بَيْنَهُمَا أَلْكَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كَلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا آتَى وَلَا تَهْزُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ١٢٦ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِى صَغِيرًا ١٢٧ ﴾.

وهو المناسب لسياق التفصيل فيها بخلاف سياق آيات الأنعام المبني على الإيجاز والاختصار.

٣ - قال في الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّهُنَّ إِمْلَاقٌ يَحْتَنُ تَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ ۖ ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ يَحْتَنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِنَّهِنَّ ۖ ﴾.

قدّم في الأنعام رزق الآباء على الأبناء فقال: ﴿ يَحْتَنُ تَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ ۖ ﴾ وقدّم في الإسراء رزق الأبناء على الآباء فقال: ﴿ يَحْتَنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِنَّهِنَّ ۖ ﴾ وذلك لأنهم في الأنعام يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم ﴿ يَحْتَنُ تَرْزُقُهُمْ ﴾ فهم محتاجون إلى الرزق العاجل للقيام بتكلفة الأبناء. وأما في الإسراء فهم يقتلون أبناءهم خشية الفقر في المستقبل لا أنهم مفتقرون في الحال، ولذلك قدّم رزق الأبناء على الآباء لإخبارهم أن رزقهم معهم وأنهم لا يشاركونهم في رزقهم. فآية الأنعام في الفقراء، وآية الإسراء في الموسرين. جاء في (البحر المحيط) أن قوله:

(١) أنوار التنزيل ١٩٦.

﴿يَتِمُّ إِلْتِقَاكُمْ﴾ ظاهره «حصول الإملاق للوالد لا تَوَقُّعه وخشيته، وإن كان واحداً للمال فبدأ أولاً بقوله: ﴿تَحْنُ نَزَقُكُمْ﴾ خطاباً للأباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرازق ثم عطف عليهم الأولاد.

وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه، فبدى فيه بقوله: ﴿تَحْنُ نَزَقُكُمْ﴾ إخباراً بتكفله تعالى برزقهم، فلستم أنتم رازقيهم، وعطف عليهم الأباء، وصارت الأيتان مفيدتين معنيين:

أحدهما: أن الأباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم.

والآخر: أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق وخشيته^(١). وقد سبق أن ذكرنا ذلك في موطن سابق.

ثم إنه وضع كل آية في سياقها المناسب فقد وضع قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ في سياق الموسرين في آيات الإسراء فقد قال قبلها: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا وَالْيَسِيرَ وَالَّذِينَ فِي الْأَسْبِلِ﴾، والمأمور بإعطاء حقوق هؤلاء هم الأغنياء الموسرون لا الفقراء. ثم قال ﴿وَلَا يُبْذَرُ بُذِيرًا﴾ والمأمور بعدم التبذير هو الموسر في الأكثر، لأن الفقير ليس عنده شيء في الغالب فيبذره.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وهذا يقال لمن كان عنده مال ولا يقال للفقير المعدم، فإن الفقير لا يتمكن من بسط يده كل البسط وإنفاق ما عنده. فناسب ذلك أن يقول مخاطباً الموسرين: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾.

فوضع كل آية في مكانها الذي هو أليق بها.

وقد تقدم آية الأنعام قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ذلك أن الداعي لقتل المفتقرين أبناءهم أقوى من داعي الموسرين فوضعها في سياقها المناسب. ثم بين أن هؤلاء خسروا ولم يربحوا كما كانوا يظنون.

(١) البحر المحيط ٢٥١/٤.

وقال في الإسراء: ﴿إِنَّ قَلِيلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأنعام، ذلك أن قتل الآباء الموسرين أولادهم خشية الافتقار أعظم جرماً من قتل الآباء المفتقرين الذين ليس عندهم ما يقوم بإعالة أولادهم. ولا شك أن كليهما مرتكب لكبير إلا أن هذا أكبر وأعظم جرماً.

٤ - قال في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. وقد مر في السورة نحو هذا فقال: ﴿وَذَرُوا ظِلَهاً الْإِنْتِمَاءَ وَبِاطِنَهُ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَةَ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَسْرَةٍ وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

فقد عمم في الأنعام فذكر الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وخص الزنى بالذكر من بين الفواحش في الإسراء. وسبب ذلك والله أعلم أن المفتقر الذي لا يجد شيئاً قد يرتكب سيئات كثيرة ليسد خلته، فهو قد يسرق وقد يزني وقد يقتل وقد يفعل وقد يفعل وقد نسب إلى الرسول ﷺ أنه قال: (كاد الفقر أن يكون كفراً). وجاء في الأثر: (عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه). وقد أسقط عمر بن الخطاب حد السرقة عام الرمادة لأن الناس جياع. حتى إن الاشتراكية الحديثة جعلت الفساد كله مسبباً عن الفقر.

فوضع في سياق المفتقرين النهي عن عموم الفواحش، لأن الفقر مدعاة إلى ارتكابها.

وقد خص الزنى بالذكر في الإسراء لأنه أكبر أو من أكبر ما يبغيه الموسرون، فهم يذلون له المال الكثير ويلهثون وراءه.

فانظر كيف جمع الفواحش مع المفتقرين وذكر الزنى خصوصاً مع الموسرين، ولم يكتف بذلك بل علل النهي عنه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَسْرَةٍ وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فنهى بذلك عن سائر الفواحش.

ثم انظر كيف نهى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾. والنهي بـ (لا تقربوا) أشد من النهي بـ (لا تنزوا) أو (لا تفعلوا فاحشة) ونحوها، ذلك أنه نهى عن الاقتراب منه فضلاً عن مباشرته وفعله. جاء في (روح المعاني): «ولا تقربوا الزنى بمباشرة مبادئه القريبة أو البعيدة فضلاً عن مباشرته، والنهي عن قربانه

على خلاف ما سبق ولحق للمبالغة في النهي عن نفسه ولأن قربانه داع إلى مباشرة^(١).

وقد وسط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة، ذلك لأن الزنى مدعاة إلى قتل الأولاد غير الشرعيين أو جعلهم في حكم المقتولين برميهم للتخلص منهم. فيكون التعبير قد تدرج من قتل الأولاد بسبب الفقر إلى قتل الأولاد بسبب الفاحشة إلى قتل النفس عموماً.

جاء في (روح المعاني): «وتوسط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة مطلقاً... باعتبار أنه قتل للأولاد، لما أنه تضييع للانساب فإن من لم يثبت نسبه ميت حكماً»^(٢).

٥ - قال في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وقال في الإساءة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَرِجْوَاهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾.

فاكتفى بذكر النهي في الأنعام ولم يكتف بذلك في الإساءة، بل ذكر ذلك وذكر حق الولي في الاقتصاص ونهاه عن الإسراف في القتل.

والنهي عن الإسراف ههنا متناسق مع النهي عن التبذير في الأموال، ثم إن هذا التبسط والإفاضة ملائمان لسياق الإساءة، كما أن ذلك الإيجاز والاختصار ملائمان لسياق الأنعام.

٦ - قال في الأنعام والإساءة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [١٥٢ و ٣٤] فقد نهاهم عن الاقتراب منه إلا بالتي هي أحسن فكيف بالتصرف فيه ؟ وهذا النهي أبلغ من القول: (ولا تتصرفوا بمال اليتيم) أو نحو ذلك، فقد نهى عن قربانه لما ذكر سابقاً من المبالغة في التعرض له^(٣).

(١) روح المعاني ٦٧/١٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) روح المعاني ٧٠/١٥.

٧ - قدّم الإيفاء بالكيل والميزان على الإيفاء بالعهد في الأنعام، وقدّم الإيفاء بالعهد على الإيفاء بالكيل والميزان في الإسراء، ذلك لأنه مر ذكر المفتقرين في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ إِمْلَاقَهُمْ﴾، ومر ذكر الموسرين في الإسراء، والفقراء أدعى إلى التطفيف وعدم الإيفاء بالكيل لحاجة المفتقر إلى المال، فكان وضع كل تعبير في مكانه الذي هو أليق به.

٨ - قال في الأنعام: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الَّتِي تَمْنَوْنَ﴾. فزاد (إذا) كلتم). وهذه الزيادة متناسبة مع سياق التفصيل في الاسراء. ومعنى: (إذا كلتم) وقت الكيل، فقد أمر بالإيفاء وقت الكيل وعدم تأخير بعض الحق. جاء في (البحر المحيط): «والتقييد بقوله: (إذا كلتم) أي: وقت كيلكم على سبيل التأكيد وأن لا يتأخر الإيفاء بأن يكيل بنقصان ما، ثم يوفيه بعد فلا يتأخر الإيفاء عن وقت الكيل»^(١).

وفي هذا التقييد فائدة أخرى فمعنى (إذا كلتم): إذا بعتم، والتطفيف يكون في هذا الموطن فإن البائع هو الذي يطفف وينقص في الكيل أما الذي يكتال فلا حاجة إلى أمره بالإيفاء^(٢).

٩ - قال في الأنعام بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

ومناسبته مع ما قبله أن ما قبله أمر بالعدل في الأمور المادية، وهذا أمر بالعدل في القول.

١٠ - قال في الأنعام: ﴿وَيَسْهَدُوا لَكُمْ أَن تَدِينُوا بِالْقِسْطِ﴾. بتقديم الجار والمجرور على الفعل.

وقال في الاسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْمِيزَانِ﴾ بتقديم الفعل على الجار والمجرور.

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٤ - ٣٥ .

(٢) انظر روح المعاني ١٥ / ٧١ .

وهذا التقديم في آية الأنعام للاهتمام والعناية، ذلك أنه أضاف العهد إلى الله فازداد تفخيماً وكان ذلك أدعى إلى تقديمه.

وقد تقول: ولكن الله سبحانه قال في مكان آخر: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل] فقدم الفعل على عهد الله.

وأحسب أن الفرق واضح بينهما ففي آية النحل خصص عهد الله بقوله: (إذا عاهدتم) وأطلقه في آية الأنعام. والفرق بينهما أن العهد الذي في النحل يعني به العهد الذي يعقده الشخص باختياره بدليل قوله: (إذا عاهدتم). جاء في (التفسير الكبير): «ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصاً باليهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله: (إذا عاهدتم) يدل على هذا المعنى»^(١).

وأما ما في آية الأنعام فهو عام يشمل جميع اليهود ما عهده الله إلى عباده وما تعاهد عليه الخلق فيما بينهم. ولا شك أن عهد الله بالمعنى العام أعظم من عهود العباد فيما بينهم. فقدم المجرور في الأنعام للاهتمام والعناية، وقدم الفعل في النحل.

وهناك أمور أخرى طريفة في هاتين المجموعتين من الآيات، غير أننا نكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية فيما أحسب.

(١) التفسير الكبير ٢٠ / ١٠٧ .

الحشد الفني في القصص القرآني

إن القصة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه. وهذا شأن القصص القرآني، فأنت ترى أن القصة في القرآن كأنها تتكرر في أكثر من موطن، والحقيقة أنها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق، وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد.

إن قصة موسى مثلاً فيها مواطن عبر كثيرة ومواطن استشهاد متعددة:

منها: بيان أن قدر الله ماضي لا محالة وأنه لا يستطيع أحد أن يغيره أو يرجسه مهما حاول واتخذ من أسباب ووسائل، ويتجلى ذلك في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل حذراً من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم، إلا أنه ربي في حجره الشخص الذي كان مقدرًا له أن يزيل ملكه.

ومنها: بيان عاقبة الظلم والظالمين، ويتجلى ذلك في نهاية فرعون النهاية الوييلة.

ومنها: بيان لنفسية الشعوب المستضعفة المستذلة ولتكونها والسبل التي ينبغي أن تسلكها لتتحرر. ويتجلى ذلك في ذكر نفسية وتكوين بني إسرائيل الذين تربوا على الذلة والجبن والخنوع وذكر عنادهم وصلفهم وجبنهم وحجم للدنيا، ومحاولة سيدنا موسى إعدادهم إعداداً آخر يرفعهم من وهدة الوحل الذي يتمرغون فيه، فلم يستجيبوا له حتى قضى الله عليهم بالتيه أربعين سنة أهلك فيها هذا الجيل وأخرج جيلاً آخر لم يتكون مثل هذا التكوين الذليل ولم ينشأ تلك النشأة المهينة.

ومنها: بيان أن الحق له السلطان الأعظم على النفوس إذا ما عرفته وآمنت به، وأنه ليس بوسع أحد أي أحد أن يحول بينها وبينه مهما اتخذ من وسائل

إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة بموسى وفي دخول الحق بيت فرعون أعني إيمان امرأة فرعون.

وفيها وفيها، فذكر في كل موطن ما يقتضيه السياق منها.

ولذا نراه لا يذكر القصة على صورة واحدة بل، نراه يذكر في موطن ما يطوي ذكره في موطن آخر، ويفصل في موطن ما يوجزه في موطن آخر، ويقدم في موطن ما يؤخره في موطن آخر. بل نراه أحياناً يغير في التعبيرات ونظم الكلام تغييراً لا يخل بالمعنى. كل ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السياق وما يتطلبه المقام وذلك في حشد فني عظيم.

وحتى لا نطيل في سرد هذه الأحكام نذكر أمثلة على ذلك في اختيار طرف من القصص القرآني ولنبدأ بقصة سيدنا آدم عليه السلام.

قصة سيدنا آدم عليه السلام

١ - قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١٠ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١١١ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١١٢ ۝ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١١٣ ۝ قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ إِنَّهُ أَقْبَلُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَلَّمَ مَا لَمْ يَكُنَّ تَعْلَمُونَ ١١٤ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١١٥ ۝ وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١١٦ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١١٧ ۝ تَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨ ۝ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٩ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٢٠ ۝ ﴾

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشٌ فَلَوْلَا مَا تَشْكُرُونَ ١٠١ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّٰجِدِينَ ١٠٢ ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ١٠٣ ۝ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ١٠٤ ۝ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُعِيدُونَ ١٠٥ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ١٠٦ ۝ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٠٧ ۝ ثُمَّ لَا يَجِدُنَّ فِي يَدَيْهِمْ أَكْثِيْرًا مِّنْ أَعْيُنِهِمْ وَهُمْ لَا يُعَذِّبُهُمْ فَتَكْرِيرٌ ١٠٨ ۝ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُّذْخَرًا لَّنْ يَجْعَلَ لِمَنْ يَكْفُرْ لَآئِلَآءًا جَهَنَّمَ بَنِيكُمْ أَجْمَعِينَ ١٠٩ ۝ وَبَعَادُكُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١١٠ ۝ فَوَسَّوْا لِمَا الشَّيْطَانُ يَشِيْرُ لِمَا مَا وَدَّ عَيْنُهُمَا وَسَوَّاهُمَا عَلَىٰ مَا نَهَيْتُمَا عَنْهُمَا وَفَٰتَنَهُمَا عَنْ مَا لَمْ يَكُنَّ تَرَوْنَ وَلَكِنَّمَا أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ ١١١ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ حَٰفِظِينَ يَخُوفُونَ عَلَيْهِمَا مِنْ رَّبِّكَ إِنَّهُمْ هُمُ السَّٰجِدُونَ ١١٢ ۝ فَذَلَّلْنَاهَا بِإِذْنِنَا فَكَانَ آدَمُ خَافِيًا وَسَرِيًّا فَاخْرَجْنَاهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ وَتَدْبَعْنَاهُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ ١١٣ ۝ ﴾

رَبِّمَا أَوْرَثَكُمْ مَاعِنَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبُّنَا عَلَّمَنَا الْقِسْمَ
وَلَنْ لَوْ تَنفِرْنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ بَنِيَّ ءَادَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ
لِيَاسًا يُؤَرِّسُ سَوَاءٌ لَكُمْ وَرِيشًا وَلِيَاسٌ الثَّقَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكِ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ بَنِيَّ
ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰهُمَا إِنَّمَا
بَرَزْتُمْ هُوَ وَفِيهِمَا مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ .

تبدأ هذه القصة في البقرة من أقدم حدث فيها حين أبلغ الرب ملائكته بقراره
في أن يجعل في الأرض خليفة وذلك قبل خلق آدم . وفيها ذكر مراجعة الملائكة
لربهم في هذا القرار مبدين عدم رغبتهم في هذا الاستخلاف لأسباب ذكروها .
فقطع عليهم تخوفهم وظنونهم بعلمه الذي لا يحد . ثم ذكر اختبار المفاضلة
الذي أجراه بين آدم والملائكة ففضلهم فيه آدم ، وثبت لهم فيه أنهم ليسوا أهلاً
للاستخلاف في الأرض بخلاف آدم .

لقد ذكر هذه الأوليات في أول سورة في القرآن تذكر فيها القصة ولم يذكرها
في موطن آخر ، وذكر هذه الأوليات في هذا الموطن بالذات له أكثر من دلالة ،
فنية وغير فنية .

ومن بين جوانبها أنها وردت في المكان المناسب لها تماماً ، فقد وردت
أوليات القصة عند أول ذكر لها في أول سورة من سور القرآن ، كما أنها أول
قصة افتتح فيها القصص القرآني . في حين ذكرت القصة في سورة الأعراف من
مرحلة الخلق والتصوير فهي تبدأ بقوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم)
فكانها كانت استكمالاً لما ورد في البقرة .

ذكر الله قصة آدم في البقرة بعد قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ 》 .

وهذه الآية التي سبقت بها قصة آدم بدأت بتكريم الإنسان: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وختمت بالعلم: ﴿وَقَوَّيْكُمْ لِمَا وَعَلَّمَكُمْ﴾.

وجاءت القصة بعدها مبنية على هذين الركنين: تكريم آدم وتكريم العلم.

أما تكريم آدم فيظهر فيما يأتي:

١ - ذكر استخلاف آدم في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهذا تكريم، إذ المستخلف ذو منزلة رفيعة ولا شك.

٢ - تفضيل آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها مما لا يعلمه الملائكة.

٣ - إسجاد الملائكة له.

وأما العلم في هذه القصة فقد تركز ذكره في ثلاثة مجالات:

١ - إثبات العلم الشامل لله.

٢ - نفي العلم عن الملائكة إلا ما علمهم إياه رب العزة.

٣ - إثبات التعليم لآدم بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم.

ومن هذا يتبين أن القصة وقعت في سياقها أحسن موقع وأجمله. فكانها جاءت تفصيلاً لما أجمل في الآية قبلها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن ذكر استخلاف آدم في الأرض لم يرد إلا في هذا المكان، ولم يرد في أي مكان آخر من القرآن الكريم. وهو أنسب مكان له أيضاً إذ الاستخلاف الناجح لا بد أن يتم له أمران:

الأول: أن يكون للخليفة حق التصرف والتدبير فيما استخلف فيه.

والثاني: أن تكون له القدرة على هذا التصرف، وأن يكون اختياره قائماً على العلم بإمكانياته وقدراته على هذا الاستخلاف.

أما الجانب الأول وهو جانب التدبير والتصرف فقد فوضه به ربه بأوسع نطاق بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلو لم يخلق له ما في الأرض جميعاً ما صح أن يكون خليفة لله فيها.

وأما من حيث إمكانياته وقدراته فقد تبين بالاختبار أنه أصلح المخلوقات لهذه المهمة، هذا علاوة على أن الذي اختاره عالم الغيب والشهادة.

وقد ذكرت الآية التي وردت في مقدمة القصة هذين الركنين وهما قوله:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ يَكْلِئُ لَكُمْ وَاعْلَمُ ﴾.

فتكون الآية أجملت ركني الاستخلاف أيضاً، وبهذا تقع مسألة الاستخلاف هذه في أنسب مكان لها أيضاً.

ويتبين مما مر:

أن الآية التي وقعت في مقدمة القصة أجملت قصة آدم من ناحية، وأجملت ركني الاستخلاف المذكور فيها من ناحية أخرى.

فتكون قصة آدم بصورتها هذه وقعت في أنسب سياق لها وأعجبه.

هذا من حيث التفصيل السياقي للقصة، وأما من حيث الإجمال فإننا يمكننا القول: إن القصة في هذا الموطن في كل حلقاتها ومجالاتها مبنية في الحقيقة على تكريم آدم، وكل الجوانب الأخرى المذكورة فيها إنما تخدم هذا التكريم فتكريم العلم إنما ظهر في العلم الذي يحمله آدم، ومسألة الاستخلاف إنما تدور على استخلاف آدم. فهي تدور أساساً على تكريم آدم. وكل ما فيها من ألفاظ ومواقف إنما هي مبنية على هذا التكريم.

في حين أن القصة في الأعراف ليست مبنية على هذا الأمر بل لها غرض آخر، وقد وقع فيها التكريم ثانوياً. ونظرة واحدة إلى السياق الذي وقعت فيه القصة والتعبيرات التي وردت فيها تريك مصداق هذا الأمر.

لقد بدأت القصة في الأعراف بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

وأنت ترى الفرق واضحاً من حيث التكريم بين قوله: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقوله: ﴿ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا ﴾. وغني عن القول إن التعبير الأول يدل على تكريم أكبر من الثاني. ثم انظر كيف ختم الآية بقوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فهي في مقام العتاب على بني آدم ومواخذتهم على قلة شكرهم وليست في مقام تكريمهم. وقبلها قال ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ فانت ترى أن المقدمتين تختلفان، وكل قصة إنما جاءت منسجمة مع مقدمتها.

أما من حيث السياق فإن القصة وقعت في الأعراف في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم، وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَفْلَكُنْهَا فَمَنْهَا بَأْسُنَا بَيْنَا أَوْهُمْ قَالُوا: ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾﴾

فقد ذكر أنه عاقب قسماً كثيراً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم، فالفرق واضح بين السياقين. ولذا بنيت كل قصة على ما جاء في سياقها. وإليك إيضاح ذلك:

١ - لقد ذكر معصية إبليس في البقرة بقوله: ﴿إِنِّي وَأَسْتَكَذِّبُكَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فقد جمع لإبليس الإباء والاستكبار والكفر للدلالة على شناعة معصيته بحق آدم الذي أكرمه الله وعلمه. ولم يقل مثل ذلك في أي مكان آخر من القرآن بل هو إما أن يقول: (أبى) وإما أن يقول: (استكبر) كما سنرى ذاك، ولم يجمعهما إلا في هذا الموضع. وأما في الأعراف فقد قال: ﴿إِلَّا لِلْإِبْلِيسِ لَوْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وأنت ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين. فقد ذكرت كل عبارة بحسب موقف التكريم.

٢ - قال في البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿وَكُلَا مِنْهَا أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ﴾.

وأنت تلاحظ الفروق بين التعبيرين في هاتين الآيتين. فقد قال:

في البقرة في الأعراف

وقلنا يا آدم اسكن ويا آدم اسكن

وكلا منها وكلا منها

رغداً رغداً

حيث شئتما من حيث شئتما

فقد أسند القول في البقرة إلى نفسه (وقلنا يا آدم) وهذا يقوله القرآن في مقام التكريم والتعظيم، فإن الله سبحانه يظهر نفسه في مقام التفضيل والتكريم، في حين جمع بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول واحد في الأعراف وهو لفظ (قال) بإسناد القول إلى الغائب: ﴿ قَالَ أَخْرِجْهَا مِنْهَا مَذْمُورًا . . . وَكَهَادُمُ اسْتَكْنَتْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ فلم يفرد آدم بقول.

وناسب التكريم والتعظيم أن يذكر (رغداً) في البقرة دون الأعراف لأن المقامين، مختلفان جاء في (البرهان) للكرمانى: «وزاد في البقرة (رغداً) لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله: (وقلنا) بخلاف سورة الأعراف فإن فيها: قال»^(١).

وقال في البقرة: (وكلا) وقال في الأعراف: (فكلا) فجاء بالواو في البقرة وجاء بالفاء في الأعراف. والواو لمطلق الجمع والفاء تفيد التعقيب والترتيب. فالواو أوسع من الفاء لأن من جملة معانيها معنى الفاء، فيصح أن يكون معطوفها مفيداً للتعقيب ولغيره. جاء في (التفسير الكبير): «قال في سورة البقرة: (وكلا منها رغداً) بالواو وقال ههنا: (فكلا) فما السبب فيه؟»

وجوابه من وجهين:

الأول: أن الواو تفيد الجمع المطلق، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو. ولا منافاة بين النوع والجنس»^(٢).

فالواو صالحة لجميع الأزمان بما فيها معنى الفاء. أما الفاء فتفيد التعقيب، أي: أن يقع المعطوف بعد المعطوف عليه مباشرة. فجاء بالواو في سورة البقرة للدلالة على السعة في الاختيار، وهو المناسب لمقام التكريم. ألا ترى لو قلت لشخص ما: (ادخل وكل) كان له الحق في أن يأكل متى شاء على حسب رغبته، فمتى أكل كان موافقاً للأمر.

(١) البرهان ٨٦.

(٢) التفسير الكبير ٤٥/١٤.

ولو قلت: (ادخل فكل) كان عليه أن يأكل في عقب الدخول ولو تأخر لكان مخالفاً للأمر ويحق لك أن تمنعه منه. فالواو أرحب زمناً من الفاء. فذكر كل حرف في المكان الذي هو أليق به.

وقال في البقرة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا وَهَدَّ آدَمُ شَتْمًا﴾.

وقال في الأعراف: ﴿فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شَتَمَا﴾.

فقد أعاد ضمير الجنة في البقرة مع الأكل فقال: (منها) ولم يعده في الأعراف. فأنت ترى أنه ذكر الجنة وضميرها في البقرة. وهو المناسب لمقام التكريم فيها، ولم يفعل مثل ذلك في الأعراف.

ثم إن الظرف (حيث شتتما) في البقرة يحتمل أن يكون للسكن والأكل جميعاً والمعنى: (اسكنا حيث شتتما وكلا حيث شتتما) فالبسكن حيث يشاءان والأكل حيث يشاءان أيضاً.

وأما التعبير في الأعراف فلا يحتمل إلا أن يكون للأكل (فكلا من حيث شتتما) ولا يصح تعليقه بالسكن، فلا يصح أن يقال: (اسكنا من حيث شتتما) فالمشيئة والتخير في البقرة أوسع لأنها تشمل السكن والأكل بخلاف الأعراف، وهو المناسب لمقام التكريم في البقرة كما هو ظاهر.

٣ - قال في البقرة: ﴿فَأَنزَلْنَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنَّا﴾.

وقال في الأعراف: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُورٍ﴾.

والإزال غير التذليل فإن الزلة قد تكون في الموضع نفسه، وأما التذلية فلا تكون إلا إلى أسفل، ذلك أنها من التذلية في البئر فإذا دلّيت أحداً فقد أنزلته إلى أسفل، بخلاف الزلة فقد لا تكون إلى أسفل. ومعنى (دلّاهما): أنزلهما من مكان إلى مكان أحط منه. فخفف المعصية في البقرة وسماها زلة مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف. فاستعمل كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

٤ - لم يذكر في البقرة معاتبة الرب أو توبيخه لآدم وزوجه على معصيتهما

مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف فقد ذكر أنه عاتبهما عليها فقال:

﴿وَنَادَاهُمَا أَنِ اتَّخِذَا الشَّجَرَةَ وَاقُلَا لِكُلِّمَا الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ولا شك أن مرتبة العتاب أدنى من عدمه.

ثم انظر كيف ناسب هذا العتاب لأبوي البشر في الجنة عتاب أبائهما في الدنيا في الآية التي سبقت هذه القصة: ﴿فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾ وكيف وقعا موقعا متناسقا واحدا؟

٥ - طوى في البقرة تصريح آدم عن نفسه بالمعصية ولم يذكرها إكراما له في حين ذكرها في الأعراف فقال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّنُتَغْفِرَ لَكَ وَرَحْمَتَنَا لَتَكُونُ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾.

وانظر بعد هذا كيف يتسق ندم آدم ههنا مع ما ذكره قبل القصة من ندم المعاقبين من بني آدم ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا بِإِسْنَائِنَا أَوْهَمَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَدْعُوهُمْ لَأَجَاءَهُمْ بِإِسْنَاءِ لَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف].

ثم انظر كيف اتفق الندمان على أمر واحد وهو الظلم فقال آدم: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ وقال أبناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم ارجع النظر مرة أخرى وانظر كيف كانت العقوبة على قدر الظلم، فقد قال آدم: (ظلمنا) بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والطروء للدلالة على أنها زلة طارئة وليست معصية إصرار. وقال أبناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالصيغة الإسمية الدالة على الثبات على الظلم والإصرار فتاب على الأولين وأهلك الآخرين.

فانظر يا رعاك الله أي كلام هذا وأية لوحة فنية هذه!

٦ - ذكر في البقرة أن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ولم يذكر ذلك في الأعراف، وإنما ذكر فيها أن آدم طلب من ربه المغفرة، والرحمة ولم يذكر أنه تاب عليه.

فانظر الفرق بين المقامين:

مقام البقرة الذي لم يذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة وذكر أنه تاب عليه مع ذلك.

ومقام الأعراف الذي ذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة ولم يذكر أنه تاب عليه. وانظر تناسب سياق البقرة مع مقام التكريم وسياق الأعراف مع مقام العتاب والمواخذة وقل: جلّ قائل هذا الكلام.

٧ - قال في البقرة: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف . والتكريم واضح في هذه الآية إذ فيها وعد لمن تبع الهدى بالعودة إلى الجنة حيث لا خوف ولا حزن .

ثم انظر كيف قال: (تبع) بالتخفيف ولم يقل: (اتبع) بالتشديد كما فعل في (طه) فقد قال فيها: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ذلك أن الفعل بالتشديد يفيد المبالغة فاكتمى في البقرة بالأخف من الحدث ولم يشدد عليهم تخفيفاً على البشر مراعاة لمقام التكريم .

هذا علاوة على أن في وضع كل فعل من هذين الفعلين في موضعه أسرار وأسرار .

منها: أن الفعل (تبع) تردد في سورة البقرة أكثر من أية سورة أخرى في القرآن الكريم، فوضعه في مكانه الذي هو أليق به . وقد مر بنا نظائر هذا الاستعمال .

ومنها: أن التخفيف الذي يفيد التلطف بالعباد جاء مع إسناد القول إلى نفسه، وأن التشديد جاء مع إسناد القول إلى الغائب (قال) وقد ذكرنا أن الله سبحانه يظهر نفسه في موقف التلطف والتكريم . فوضع كل فعل في موضعه الذي هو أليق به .

ومنها: أن نهاية الآية في البقرة تتعلق بالآخرة وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي: في الآخرة . ونهاية الآية في (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة وهو قوله: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ فقوله: (فلا يضل) متعلق بالدنيا لأن الضلال إنما يكون فيها: وأما في الآخرة فينكشف الغطاء ويصبح الناس كلهم على بصيرة . وقوله: (ولا يشقى) متعلق بالآخرة لأن الدنيا لا تخلو من الشقاء بدليل قوله تعالى لآدم قبيل هذه الآية: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ أي: إذا خرجت من الجنة شقيت، وقد أخرجهما من الجنة فلا بد من الشقاء إذن .

ولما كانت آية (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة بخلاف آية البقرة زاد في بناء الفعل إشارة إلى زيادة متعلقة .

ثم إن كل آية من الآيتين تقتضي الفعل الذي اختير لها من جهة أخرى، ذلك أن آية (طه) تتضمن أمرين: مجاهدة الضلال في الدنيا والفوز في الآخرة. وآية البقرة تتضمن الفوز في الآخرة. والحالة الأولى تتطلب عملاً أكثر وأشق فجاء بالفعل الدال على المبالغة والتكلف للأمر الشاق، وجاء بالفعل الخفيف للعمل الخفيف.

وقد تقول: أفلا يتطلب الفوز في الآخرة مجاهدة الضلال في الدنيا؟ فأقول: إن الفوز في الآخرة على مراتب بعضها أعلى من بعض. وليس كل الناجين في الآخرة ممن كانوا يجاهدون الضلال في الدنيا أو لم يضلوا في أمر من الأمور. فمجاهدة الضلال والتحري لعدم الوقوع فيه مرتبة عالية تتطلب جهداً كبيراً ومشقة في العمل. فوضع كل فعل في المكان الذي يقتضيه تماماً.

فانظر كيف يراعي في اختيار اللفظة أوجهاً متعددة، كل وجه يقتضيها من ناحية وينادي عليها بحيث تكون اللفظة كأنها مصوغة لهذا الموضع، أو أن الموضع كأنما أعد إعداداً لتحل فيه.

ثم انظر هداك الله أيمكن أن يكون هذا من كلام البشر؟!

٨ - قال في الأعراف: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَا يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ وقال فيها أيضاً: ﴿ فَأَهْطِ يَنْتَاهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾

وقال في خاتمة السورة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ فناسب بين القصة وخاتمة السورة، ذلك أنه نفى عن ملائكته التكبر وأثبت لهم السجود، بخلاف إبليس الذي أثبت له التكبر ونفى عنه السجود.

وقال في البقرة في إبليس: ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ وقال في خاتمة السورة: ﴿ فَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فلام بين القصة وخاتمة السورة كما فعل في الأعراف.

ونحو ذلك قوله تعالى على لسان إبليس في قصة الأعراف: ﴿ثُمَّ لَاقَيْنَاهُمْ فِي بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ وقوله تعالى في مقدمة القصة: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فقد لاءم بين الآيتين أجمل ملاءمة، فقد قطع إبليس عهداً على نفسه بأنه سيحول بين بني آدم والشكر. وظاهر أن بني آدم وقعوا في شرك إبليس الذي نصب لهم لثلاً يشكروا فكانوا كما أراد (قليلاً ما يشكرون). وصدق قول الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمُ الْإِلَهُ وَلَئِنَّهُمْ لَفَازِعُونَ إِلَّا لِقَائًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ]. فقد استجابوا لوسوسته كما استجاب أبوهما لها من قبل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٩ - قال تعالى في الأعراف: ﴿فَوَسَّوْنَا لَهُمَا السَّيْلَ لِيُبَيِّنَ لَهُمَا مَآ وَرَىٰ عَنْهُمَا مِنَ السَّوَاءِ وَمَا يَبْدِي لَهُمَا مِنَ السَّوَاءِ﴾ فذكر أن الغرض من الوسوسة هو أن يبدي لهما السوءات المخفية. وقد وقع ذلك فعلاً: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ زَوْقِ الْجَنَّةِ﴾ بغية سترها.

وعقب على ذلك بقوله: ﴿يَبَيِّنَ آدَمَ قَدْ أَزَلَّنَا عَنْ كَرَامَاتِهِمَا سَوْآتِهِمَا وَرَدَّاهُمَا إِلَىٰ السَّوَاءِ﴾.

وهذا التعقيب هو المناسب لظهور السوءات وانكشافها في الجنة. ثم انظر كيف ذكر ههنا كلمة (لباس) مع التقوى فقال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ مناسبة لما مر من السياق. فالتقوى لباس يوارى السوءات الباطنة، واللباس والرياش يوارى السوءات الظاهرة. فانظر هذا التناسب الجميل. جاء في (التفسير الكبير):

«إنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها أتبعه بأن بين أنه خلق اللباس للخلق ليستر بها عوراتهم، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر»^(١).

(١) التفسير الكبير ١٤ / ٥١ .

ثم انظر إلى تحذير الله للرية آدم كيف يتناسب وما مر فقال: ﴿يَنْهَىٰ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف].

وانظر بعد ذلك كيف أمر بأخذ الزينة عند كل مسجد فقال: ﴿كُلُّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف]. والزينة هي الرياش واللباس^(١).

وعقب بعد ذلك بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف].

ثم انظر بعد ذلك كيف قال في عذاب أهل جهنم: ﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ﴾ وكيف ناسب كل ذلك ما مر في قصة آدم.

فأنت ترى أن الشيطان نزع عن أبونا اللباس في الجنة، وهو في هذه الدار حريص على أن يفتننا لتتعرى من اللباس الظاهر والباطن، ولا يرضى في الآخرة إلا بأن نتسربل من سراويل جهنم أعادنا الله منها وأن يكون لنا منها مهاد وغواشٍ نسأل الله العافية.

فانظر أي تناسق هذا وأي فن عجيب.

٢ - قصة آدم في سورتي الأعراف و (ص)

قال تعالى في سورة الأعراف :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ١٥٠ ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ قَالَا لِلْمَلَأِئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَا يَكُونُ مِنَ السَّاجِدِينَ ١٥١ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ١٥٢ قَالَ فَأَخِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ١٥٣ قَالَ أَنْطَرِيكَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٥٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ١٥٥ قَالَ فِيمَا أَخَّرْتَنِي لِأُقِدِّدَ لَكُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٥٦ ثُمَّ لَا تَجِدُنِي فِي يَوْمِ أُبْعَثُ مِنْ بَيْنِ أُولَئِكَ مِنْ عَذَابِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ عَمَلِهِمْ وَلَا تَجِدَ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٥٧ قَالَ الْخُرُوجُ مِنْهَا مَذْمُورًا لِمَنْ نَعَاكَ مِنْهُمْ لِأَسْأَلُكَ عَنْهُمْ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ١٥٨ وَكَهَادِمَ اسْتَأْذَنَ وَذَلِكَ الْجَنَّةُ كُلًّا بِنِجْنٍ وَلَا تَرَى فِيهَا جَبَلًا هَلَوُ الشَّجَرَةُ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ١٥٩ فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ يَسْبِي لَهَا مَا وَرَى عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ يَرَاهَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ١٦٠ وَاسْمُهَا لِي لِكُلِّ لِي مِنَ الصَّاحِبِينَ ١٦١ فَذَلُمْتُمَا بِمَعْرِفٍ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَكُمَا سَوَاءٌ يُمْنًا وَمَطَافًا يَتَصَفَّانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَكَادَهُمَا وَهْمٌ أَنْ يُنْكَبَا عَنْ رِجْلَيْ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَ لِكُلًّا إِذْ الشَّيْطَانُ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٢ قَالَ رَبَّنَا عَلَّمَنَا السَّاسَا وَلَئِنْ لَمْ تَنْفِرْنَا وَرَحِمْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ١٦٣ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ١٦٤ قَالَ فِيهَا يَحْيَوْنَ وَفِيهَا يَمُوتُونَ وَفِيهَا يُخْرَجُونَ ١٦٥ ﴾ .

* * *

وقال في سورة ص :

﴿ قُلْ هُوَ بَرُّ عَظِيمٌ ١٧١ ﴾ أَنَّمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ١٧٢ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ وَالْمَلِكِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ١٧٣ إِنْ يَوْحَى إِلَيَّ إِلَّا أَلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ١٧٤ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ١٧٥ فَلَمَّا سَوَّيْتُمُوهُ وَفَضَحْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ١٧٦ فَسَجَدَ الْمَلَأِئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ١٧٧ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٧٨ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ١٧٩ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ١٨٠ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ١٨١ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ١٨٢ قَالَ رَبِّ فَأَنْطَرِيكَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٨٣ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ١٨٤ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ١٨٥ قَالَ فِيمَا رَبُّكَ لِأَخْيَرْتَنِي مِنَ الْخَالِدِينَ ١٨٦ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُغْلَبِينَ ١٨٧ قَالَ فَالْمَلَأْتُ وَلِلْمَلَأِئِكَةِ

أَقُولُ ﴿١٨١﴾ لَأَعْلَانُ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٢﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿١٨٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٨٤﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ بَنَاؤُ بَعْدَ جَعِنَ ﴿١٨٥﴾ .

بيّنا في موطن سابق علاقة قصة آدم بالآية التي تقدمتها في سورة الأعراف مما يغني عن إعادة ذكره .

أما القصة في سورة (ص) فقد وردت بعد ذكر الخصومة في الملأ الأعلى ﴿ مَا كَانَ لِإِيْمِنْ عِلْمٍ وَالْمَلِكِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿١٦٦﴾ . وهذا هو الموطن الوحيد الذي ورد فيه ذكر لهذه الخصومة ، ولم يرد مثل ذلك في أي موطن آخر من القرآن الكريم . وهذا هو المقام المناسب للذكرها ، ذلك أن جو السورة مشحون بالخصومات فقد افتتحت السورة بالخصومة والشقاق : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي صِرَٰتِكُمْ وَبِقَافٍ ﴾ ﴿١﴾ وهل الشقاق إلا خصومة ؟

ورردت فيها قصة الخصومة التي فصل فيها نبي الله داود قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا إِلَيْكَ بِالْحَرَابِ ﴾ ﴿١٦٧﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ﴿١٦٨﴾ .

وخصومة نبي الله أيوب مع زوجه حتى إنه حلف ليَضْرِبَئَهَا مائة جلدة ، فأفاته الله بقوله : ﴿ وَخَذَ يَدُوكَ خِطْمًا فَانْمِيزْ بِهِ وَلَا تَحْنَطْ ﴾ ﴿١٦٩﴾ .

وخصومة أهل النار في النار وتبادل الشتائم فيما بينهم : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَصِمٌ مِّمَّكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِذْ سَأَلُوا النَّارَ ﴾ ﴿١٧٠﴾ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَشْتَرُ قَدْ مَتَّوْهُنَا فَيَسَّ الْفَرَارُ ﴾ ﴿١٧١﴾ .

ثم ختم هذه الخصومة بقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَخَبْرٌ قَصَاصُهُ أَهْلُ النَّارِ ﴾ ﴿١٧٢﴾ . وخصومة الملأ الأعلى في أمر آدم : ﴿ مَا كَانَ لِإِيْمِنْ عِلْمٍ وَالْمَلِكِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿١٦٦﴾ . فانظر كيف اء ذكر الخصومة ههنا مناسباً لجو السورة تماماً .

مما مر يتبين أن القصة وقعت ههنا في سياق الخصومات وما تقتضيه من أخذ ورد ومحاجة ، بخلاف القصة في سورة الأعراف . فقد ذكرنا فيما سبق أن القصة فيها وقعت في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا

فَهَآءَ مَا بَاسُنَا بَيْنَنَا أَوْ هُمْ قَالُوا لَوْ ﴿١٧١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذْ جَاءَهُمْ بِآسَآءٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف].

فقد ذكر أنه عاقب قسماً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم. فمقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر مما هو في (ص). وقد بُنيت كل قصة على ما جاء في سياقها، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ مِمَّنْ لَكُمْ آلَا تُسْجِدُ إِذْ أَمَرْتُكُمْ﴾ ﴿١٧١﴾.

وقال في (ص): ﴿قَالَ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ تَسْجُدُوا لِمَا خَلَقْتُ بِدَنِّي﴾ ﴿١٧٢﴾.

فقد زاد (لا) في الأعراف لتوكيد السجود وهو قوله: (ألا تسجد) دون ما ورد في (ص) وذلك لأسباب عدة اقتضت الزيادة فيها. منها:

أن التوكيد في قصة الأعراف أشد فاقضى ذلك أن يؤتى بـ (لا) الزائدة المؤكدة. يدل على ذلك بدوّه القصة في الأعراف بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾. و(لقد) مؤكدان هما اللام وقد. وهي - أعني لقد - قسم مقدر عند النحاة. والقسم توكيد بخلاف القصة في (ص) فإنها تبدأ بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾. وأن المؤكدات فيها أكثر (لقد، زيادة (لا)، إنك من الصاغرين، إنك من المنظرين، لأقعدن، لأتينهم، لأملأن جهنم منكم أجمعين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) فتناسب ذلك المجيء بـ (لا) الزائدة المؤكدة.

ومما حسن التأكيد واقتضاه في الأعراف قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكُمْ﴾ ومخالفة هذا الأمر كبيرة ولم يقل مثل ذلك في (ص) بل قال: ﴿مِمَّنْ لَكُمْ آلَا تُسْجِدُوا لِمَا خَلَقْتُ بِدَنِّي﴾ فكان الحساب على مخالفة الأمر أشد واللفظ أعنف وأغلظ.

وهناك جانب فني آخر حسن زيادة (لا) في الأعراف دون (ص) وهو أن سورة الأعراف تبدأ بـ ﴿الَّتِي﴾ وقد انتبه القدامى إلى أن الحروف المقطعة التي تبدأ بها السور يكثر تردها في السورة بصورة أكثر وأوضح من غيرها^(١).

(١) انظر بدائع الفوائد ٣/ ١٧٣.

فناسب ذلك زيادة (لا) وهي لام وألف في السورة التي تبدأ بألف ولام دون التي لم تبدأ بهما.

ثم إن جو السورة في الأعراف يختلف عنه (ص) مما حسن تأكيد السجود في الأعراف دون (ص)، ذلك أن مشتقات السجود كالسجود والساجدين ونحوها ترددت في سورة الأعراف تسع مرات^(١) بخلاف سورة (ص) فإنها لم تذكر فيها إلا ثلاث مرات^(٢). وختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف] في حين لم ترد مشتقات السجود في سورة (ص) إلا في هذه القصة في الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد ترددت مشتقات السجود في الأعراف في هذه القصة وحدها أربع مرات، وفي سورة (ص) جميعها ثلاث مرات، فناسب ذلك أن يؤكد السجود في الأعراف دون (ص) والله أعلم. ثم إن مقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر كما ذكرنا، فناسب ذلك الزيادة في التوكيد والغلظة في القول، ويدل على ذلك أمور منها:

أنه طوى اسم إبليس فلم يذكره في الأعراف فقال: ﴿قَالَ مِمَّنْ أَتَيْنَاكَ﴾ في حين ذكر اسمه في (ص) فقال: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾.

ويدل على ذلك صيغة الطرد في الأعراف قال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فقد كرر الطرد مرتين وهما قوله: (فاهبط) وقوله: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. وكرر الطرد مرة أخرى في الآية الثامنة عشرة قائلاً: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وليس الأمر كذلك في سورة (ص) فإنه قال: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ولم يكرر الطرد مرة أخرى.

(١) انظر الآيات ١١ (ثلاث مرات)، ١٢، ٢٩، ٣١، ١٢٠، ١٦١، ٢٠٦.

(٢) انظر الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد طرده في الأعراف كما طرده في (ص) ثم زاد عليه فقال في الأعراف: ﴿فَأَخْرَجَ إِيَّكَ مِنَ النَّصِيِّينَ﴾ وقال أيضاً: ﴿أَخْرَجَ يَتِيمًا مَدَّهُ وَمَا مَنَحُوا﴾، وقال في (ص): ﴿فَأَخْرَجَ يَتِيمًا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ﴾ فكرر الطرد بصيغة الخروج مرتين في الأعراف ومرة في (ص). وزاد على ذلك في الأعراف فقال: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ يَتِيمًا﴾ والهبوط أشد طرداً من الخروج إذ الهبوط لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، بخلاف الخروج فقد لا يكون كذلك. فهو أخرجه أولاً ثم أهبطه مما يدل على شدة الغضب في الأعراف.

ومما يدل أيضاً على أن مقام السخط في قصة الأعراف أكبر: عدم التبسط مع إبليس في الكلام بخلاف ما ورد في (ص). وأن عدم التبسط في الكلام مما يدل على السخط الكبير يدل على ذلك أنه قال في (الأعراف): ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَى أَنْ تَبْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ والتبسط واضح في القول الأخير.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ﴾ فزاد (رب) والفاء.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وَإِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٨﴾.

فزاد الفاء وزاد ﴿إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

ثم انظر من الناحية الفنية كيف أنه في (ص) لما ذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ كان الجواب بالفاء كذلك: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، ولما لم يذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ﴾ كان الجواب بدون فاء كذلك: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

فانظر كيف أنه لما رأى أن الله تبسط معه في الكلام تبسط هو أيضاً، بخلاف ما في الأعراف فإنه لما رأى السخط الكبير لم يجز أن يتبسط في الكلام بل جعله على أوجز صورة وأقصر تعبير، ولكل مقام مقال.

فانظر يا رعاك الله علو هذا الكلام وفخامته والبصير يرى.

٣ - قصة آدم في الحجر و (ص)

قال تعالى في سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ١٦﴾ وَلَكِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ١٧﴾ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيفٌ بَشَرًا مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ ١٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٢٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٢١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ الْأَنْتَ كُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٢٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ٢٣﴾ قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَانْكُ رَجِيمٌ ٢٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ٢٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٢٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٢٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٣٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ٣١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَكُنْ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ ارْتَبَعَكَ مِنَ الْعَاقِبِينَ ٣٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَتُورِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٣﴾﴾

* * *

وقال في سورة ص:

﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ١٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّغْوِ الْأَعْلَى إِذْ يُخَوِّشُونَ ١٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْ أَذِيرَ مُبِينٌ ٢٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيفٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ٢١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ ٢٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٢٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٢٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْتَالِينَ ٢٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ٢٦﴾ قَالَ فَانْخُرْ مِنْهَا فَانْكُ رَجِيمٌ ٢٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ٢٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٢٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٣٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٣١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٣٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ٣٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَتَّبِعُكَ مِنْ أَجْمَعِينَ ٣٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَبِأَنِّي أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ٣٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالِينَ ٣٧﴾ وَلَنُفْلِتَنَّ يَوْمَ يُعَذِّبُهُمْ ٣٨﴾﴾

* * *

عرض القرآن الكريم في سورتي الحجر و (ص) جانباً واحداً من القصة وهو ذكر معصية إبليس وعداوته للإنسان، ولم يذكر فيها ما يتعلق بآدم، بل لم يرد

فيهما اسم آدم أصلاً، بخلاف ما مر في سورتي البقرة والأعراف فإنه ورد فيهما ذكر جانبي القصة: ما يتعلق بآدم وما يتعلق بإبليس.

فكان الغرض من ذكر القصة في الحجر و (ص) تحذير الجنس البشري من عداوة إبليس الأبدية.

ومع أن الجانب المذكور من القصة يكاد يكون واحداً في السورتين غير أنهما لم تتطابقا. فثمة أمور عرضت لها القصة في الحجر تختلف عما في (ص)، وهذا نظير ما مر بنا من اختلاف القصتين، في البقرة والأعراف.

إن كثيراً من الألفاظ والعبارات متطابقة في القصتين غير أن هناك اختلافاً بينهما أيضاً يتناسب وسياق كل قصة.

واليك بيان ذلك وإيضاح طرف من الأسباب الداعية لهذا الاختلاف:

في (الحجر) في (ص)

-
- | | |
|--|---|
| - خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون | - خالق بشراً من طين |
| - إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين | - إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين |
| - مالك ألا تكون مع الساجدين | - ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي |
| | - استكبرت أم كنت من العالين. |
| - قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. | - قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين |
| - (ذكر إبليس أصل آدم ولم يذكر أصله هو) | - (ذكر إبليس أصله وأصل آدم وذكر أنه خير منه). |
| - وأن عليك اللعنة | - وأن عليك لعنتي |
| - قال ربّ بما أغويتني | - قال فبعزتك |
| - لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين | - لأغوينهم أجمعين (من دون ذكر التزيين). |
| - إلا من اتبعك | - ومن تبعك. |

١ - ذكر في سورة الحجر أنه خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون، وذكر في

(ص) أنه خلقه من طين. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَاذَقَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَكِ كَذِبًا خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وقال في (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ كَذِبًا خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾.

وكلمة (صلصال) متكونة من (صاد) وهو مفتاح سورة (ص) ومن (الف)

ولام) وهما في مفتاح سورة الحجر، وقد تكررت هذه الكلمة في القصة مرتين،

فتكون اللام تكررت أربع مرات والألف مرتين والصاد أربع مرات. وعلى هذا

يكون وضع الكلمة في السورة المبدوءة بالألف واللام أنسب، لأن مجموع

ترددهما أكثر من الصاد.

ومن ناحية أخرى إن القصة في سورة الحجر وردت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ فكان المناسب أن ترد هذه اللفظة في

صلب القصة أيضاً.

٢ - ذكر في الحجر أن إبليس (أبى).

وذكر في (ص) أنه استكبر.

قال تعالى في الحجر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُكَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٢١).

وقال في ص: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٢).

ومعنى (أبى) غير معنى (استكبر) فإن معنى (أبى): رفض وامتنع. ومعنى (استكبر): رأى نفسه خيراً من الآخرين. والرفض والامتناع قد يكونان لغير الاستكبار. وقد بنيت كل قصة على ما ذكر فيها. فقد بنيت قصة الحجر على الإباء والرفض، وبنيت قصة (ص) على الاستكبار، بذلك على ذلك أمور منها:

أنه لما قال في (ص): (استكبر) كان سؤال رب العزة له: ﴿اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْمُتَالِينَ﴾ وهذا هو المناسب للاستكبار. ولم يقل مثل ذلك في الحجر.

ثم انظر إلى جواب إبليس في (ص) كيف كان مناسباً للاستكبار، ذلك أنه قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتُم مِّن طِينٍ﴾ (٢٣) وهو تكبر واضح يدل على ذلك أنه لما قال ذلك في قصة الأعراف قال له رب العزة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ نَكْبَرًا﴾ (٢٤).

ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولكن قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَّاسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُم مِّن صُلَابٍ لِّمَن تَحْمِلُ وُجْهَتُنِي﴾ (٢٥) وهذا هو المناسب لكلمة (أبى) ذلك أن هذا القول يدل على الرفض والامتناع لا على الاستكبار. فإنك إذا قلت: (لم أكن لأفعل هذا) لم يفد قولك الاستكبار عن فعله، ولكن يفيد الامتناع عنه.

هذا علاوة على أن جوّ سورة الحجر عموماً هو الامتناع والرفض، وجوّ سورة (ص) هو الاستكبار والعلو.

فقد ذكر في الحجر أن قسماً من الكفار يرفضون الهداية ولو جتهد بهم بكل أسبابها قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَدَحَا عَلَيْهِمْ أَبَابُ الْسَّمَاءِ لَفُطِّرُوا بِهِ بِعُرْسُونَ﴾ (٢٦) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنَّا قَوْمٌ مَّشْهُورُونَ﴾ (٢٧).

وذكر فيها أن قوم لوط رفضوا عرض نبيهم لهم حين طلب منهم الكف عن التعرض لضيافته، قال تعالى على لسان نبيه لوط: ﴿ قَالَ إِنَّ هَذِهِ خَتْمِي فَلَا تُفْضَحُونِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُفْضَحُونِ ۚ ﴾ فاجابوه قائلين: ﴿ أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْفَاحِشِ ۚ ﴾ .

وذكر فيها أن أصحاب الحجر رفضوا الآيات التي جاء بها نبيهم وأعرضوا عنها، قال تعالى: ﴿ وَءَايَاتُهُمْ مَا يَنْتَظِرُونَ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۚ ﴾ .

في حين أن جوّ سورة (ص) يشيع فيه الاستكبار والعلو - كما أسلفنا - .

فقد ذكر في أول السورة أن الذين كفروا في عزة وشقاق . والمراد بالعزة ههنا «الاستكبار عن الحق»^(١) وعدم الانقياد له . وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا يَكُلُّهُ أَتَى اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ ﴾ [البقرة] .

ثم ذكر قصة الخصمين اللذين بغى أحدهما على صاحبه واستكبر عليه . والباغي مستعلي ظالم مستكبر^(٢) .

وذكر الطاغين وعذابهم قال تعالى: ﴿ هَذَا وَرَبُّكَ لِلْعَالَمِينَ لَحَرَّ مَنَابِقُ جَهَنَّمَ بَصَالَتُهَا لَيْسَ إِلَٰهًا ۚ ﴾ [ص] .

والطاغية: هو الأحق المستكبر الظالم الذي لا يبالى ما أتى^(٣) .

وذكر الذين اتخذوا غيرهم سخرى، والذي يسخر من الناس مستكبر عليهم يراهم دونه . قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رَجُلًا كُنَّا نَمُنُّ بِبَيْنِ الْأَشْرَاقِ ۚ ﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ۚ ﴾ .

ومن هذا نرى أن كل قصة وضعت في مكانها أحسن موضع وأجمله، وأن الجانب الذي عرضت له متلائم أحسن ملاءمة مع جوّ السورة الذي وردت فيه .

(١) روح المعاني ٢٤ / ١٦٣ وانظر التفسير الكبير ٢٦ / ١٧٥ .

(٢) انظر لسان العرب وتاج العروس مادة (بغى) .

(٣) لسان العرب وتاج العروس: (طغى) .

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما جاء في البقرة بالقصة كاملة ما يتعلق
منها بآدم وما يتعلق بإبليس جمع فيها ما تفرق في الحجر و (ص) فقال:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة]. في حين قال في الحجر
(أبى) وقال في (ص) ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

٣ - قال في الحجر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقال في (ص): ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

فلذكر السجود في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أن جو السجود شائع في
قصة الحجر وسورتها أكثر مما في (ص). فقد ورد السجود في قصة الحجر
ست مرات، في حين ورد في قصة (ص) ثلاث مرات. وقد ختمت السورة
بالسجود أيضاً فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وهذا بخلاف ما في (ص) فإنه حتى إن نبي الله داود لما تاب لم يذكر أنه
سجد بل قال: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبِّي وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

فوضع كل تعبير في المكان الذي هو اليتيم به.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما قال في إبليس: ﴿أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ
السَّاجِدِينَ﴾ أمر رسوله بأن يكون من الساجدين فقال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. وهذا تناسق في التعبير جميل ومخالفة أصيلة لإبليس.

٤ - أضاف اللعنة إلى نفسه في قصة (ص) فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ولم يفعل مثل ذلك في الحجر بل قال: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وذلك أنه لما قال في (ص): ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ فأضاف الخلق إلى ذاته وإلى
يديه العليتين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأضاف اللعنة إلى نفسه. ولما لم يكن
كذلك في الحجر قال: (اللعنة).

ثم إنه في قصة (ص) ذكر نفسه أكثر مما في الحجر، فإنه ذكر نفسه في (ص) ست مرات وفي الحجر ثلاث مرات.

قال في الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ﴾.

وقال في (ص): مثل ذلك وزاد عليه قوله:

﴿مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ فكان كل تعبير مناسباً لجو القصة التي ورد فيها. جاء في (درة التنزيل): «اللسائل أن يسأل فيقول: إذا كان المراد باللعنة وبلعنتي شيئاً واحداً فما بال اللفظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالآلف واللام وفي سورة (ص) مضافاً ؟ وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر؟

الجواب أن يقال: إنَّ القصة في سورة الحجر ابتدئت في المعتمد بالذكر وهو خلق الإنسان والجن باسم الجنس المعروف بالآلف واللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر] ثم قال: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر] وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدئت بمثله القصة، وهو اسم الجنس المعروف بالآلف واللام.

وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك لأن أول الآية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ﴾ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَعْثَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْمَالِكِينَ﴾.

فلم تفتح بذكر الصنفين من الجن والإنس باللفظ المعروف بالآلف واللام كما كان في سورة الحجر.

ولما كان موضع ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ جاء بدلالة ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ﴾ فجعل بدل (الساجدين): ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة بأمره بفعله، أجرى لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة كما قال: (بيدي) فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾

فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ الذي افتتحت به الآية واستمرت إلى آخرها هذا^(١).

٥ - قال في (ص): ﴿قَالَ فِيمَرِّكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقال في الحجر: ﴿يَا أَعْيُنِي لَا تَبْصُرْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

فأقسم في (ص) بعزته، وأقسم في الحجر بإغوائه^(٢)، وذلك لما تقدم في (ص) ذكر اسمه العزيز قال تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وقال: ﴿الْعَزِيزُ الْفَكْرُ﴾. وقد بدئت السورة بالعزة أيضاً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَيُثَاقِقُ﴾ [ص] فناسب أن يقسم بعزته سبحانه.

في حين أقسم في الحجر بإغوائه لما تردد من ذكر الإغواء، قال تعالى: ﴿وَلَأَعْيُنُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال: ﴿إِلَّا مَنِ اشْتَعَلَ مِنَ الْفَارِغِينَ﴾.

فناسب أن يضع كل تعبير في مكانه الذي هو أنسب له.

٦ - قال في الحجر: ﴿لَا تَبْصُرْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأَعْيُنُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال في (ص): ﴿لَأَعْيُنُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فذكر التزيين في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أنه ورد ذكر الزينة في الحجر ولم يرد في (ص)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾.

وقال في موطن آخر من السورة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾.

وهذا من التزيين في الأرض.

فناسب ذلك ذكر التزيين في قصة الحجر دون (ص).

(١) درة التنزيل ٢٥١-٢٥٢.

(٢) وقد قيل أيضاً: إن الباء في (بما أعيتني) للسبب لا للقسم وعلى أية حال فإن الجواب واحد.

٧ - قال في الحجر: ﴿لَا مَنَاجِيَ لَكَ مِنَ الْعَاقِبِينَ﴾.

وقال في (ص): ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فذكر الاتباع بالتشديد في الحجر وذكر أتباعه بالتخفيف في (ص) وذلك أنه لما جاء بعد القصة في الحجر قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ بِكَاوِثِ آيَةٍ أَنَا أَلْفَقُورُ الرَّحِيمُ﴾ ناسب ذلك أن يخفف على عباده ويرحمهم بأن لا يدخل النار إلا من بالغ في اتباع إبليس، ولما لم يرد مثل ذلك في (ص) كان التحذير أشد.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ان قصة آدم في الحجر وردت بعد ذكر نعم الله على البشر: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ ثَمَرٍ وَمَوْزُونًا وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَن أَسْتَمْتُمْ لِمُزْمِرٍ مِّن دُونِهَا لَا يَسْمَعُ لَكُمْ شَيْئًا وَلَئِن سَأَلْتُمُوهُ لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الْعَزِيزُ غَفُورٌ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنزَلْنَا مِن السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْذِرِينَ﴾.

في حين وردت قصة آدم في (ص) بعد ذكر عقوبات أهل النار في النار فناسب السياق في الحجر التخفيف على عباده والتفضل عليهم، بخلاف السياق في (ص). وبهذا ناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

وهذا التعبير مشابه لما سبق أن ذكرناه من قوله تعالى في البقرة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقوله في طه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا بَعْثٌ وَلَا يَشْفَى﴾ غير أن هذا في التحذير والترهيب وذلك في الإطماع والترغيب، فجمع الترغيب والترهيب في هذه القصة على أنم وجهه وأكمل صورة، والحمد لله رب العالمين.

قصة سيدنا موسى (عليه السلام)

١ - في البقرة والأعراف

إن قصة سيدنا موسى في البقرة والأعراف تشتركان في قسم من المواطن وتختلفان في الكثير. ففي سورة الأعراف يذكر أموراً لا يذكرها في البقرة، كما يذكر أموراً في البقرة لا يذكرها في الأعراف.

وقد اخترنا نموذجاً من المواضع المتشابهة لنبين الحشد الفني فيه.

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿وَعَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَزَلْنَا عَنْكُمُ الْيَمْنَ وَالسَّلَاطِينَ كُلَّامٍ مِّن طَبَقَتٍ مَّا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ ذَلَّكَ أَتَيْنَا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَنَجَّيْنَاهَا مِن مَّوْضِعِهَا حَيْثُ وَفَّقْنَاهَا أَذْهَبُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَالُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَرْيِدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧١﴾ فَبَدَّلَ الْأَذَىٰ ظِلْمُونَا قَوْلًا غَيْرَ الذِّمِّ قِيلَ لَهُمُ فَارْجِعُوا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ رِجْعًا مِّنَ الشَّكْلِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَايَاهُ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَبْعًا قَدْ جَاءَ كُلُّ أُنَاسٍ مِّنْ شَرِبَتِهِمْ كُلًّا وَافْرَدُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أَسْأَفًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَبْعًا قَدْ جَاءَ كُلُّ أُنَاسٍ مِّنْ شَرِبَتِهِمْ كُلًّا وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَزَلْنَا عَنْكُمُ الْيَمْنَ وَالسَّلَاطِينَ كُلَّامٍ مِّن طَبَقَتٍ مَّا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٥﴾ وَإِذْ ذَلَّكَ أَتَيْنَا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُّوا مِنهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَرْيِدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٦﴾ فَبَدَّلَ الْأَذَىٰ ظِلْمُونَا قَوْلًا غَيْرَ الذِّمِّ قِيلَ لَهُمُ فَارْجِعُوا عَلَىٰ ظِلْمَانَا مِنَ الشَّكْلِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

والآن انظر الفروق التمييزية بين المواطنين:

في البقرة في الأعراف

واذ قلنا	واذ قيل لهم
ادخلوا	اسكنوا
فكلوا	وكلوا
رغداً	—
وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة	وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً
نغفر لكم خطاياكم	نغفر لكم خطياتكم
وستزيد	ستزيد
الذين ظلموا	الذين ظلموا منهم
فأنزلنا	فأرسلنا
على الذين ظلموا	عليهم
يفسقون	يظلمون
واذ استسقى موسى لقومه	إذ استسقاء قومه
فقلنا اضرب	وأوحينا إلى موسى . . . أن اضرب
فانفجرت	فانبعجت
كلوا واشربوا من رزق الله	—
فما سر هذا الاختلاف؟	

إن سر الاختلاف يتضح من الاطلاع على سياق الآيات في السورتين، فسياق هذه الآيات في سورة البقرة هو تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، ويبدأ الكلام معهم بقوله: ﴿يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْهَتْ عَلَيْهِمْ أَن يَفْعَلُوا أَلَم يَلْمِزُوا أَن يَصْلَوْا﴾ [البقرة: ١٧٧]. ثم يأخذ بسرد النعم عليهم ويذكرهم بها.

أما في سورة الأعراف فالمقام مقام تقريع وتأنيب فلأن بني اسرائيل قوم لا يتعظون فإنهم بعد ما أنجاهم من البحر وأغرق آل فرعون طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها. وعندما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل. وإنهم كانوا يتهكون محارم الله فقد طلب الله منهم أن يعظموا حرمة السبت فانتهكوها وأخذوا يصطادون الحيتان فيه إلى غير ذلك.

فالفرق واضح بين السياقين فناسب بين كل تعبير والمقام الذي ورد فيه وانظر إلى توضيح ذلك.

قال تعالى في سورة البقرة: (واذ قلنا) فأسند الرب القول إلى نفسه وقال في سورة الأعراف: (واذ قيل لهم) ببناء الفعل للمجهول.

والقرآن الكريم يسند الفعل إلى الله سبحانه في مقام التشريف والتكريم ومقام الخير العام والتفضل بخلاف الشر والسوء فإنه لا يذكر فيه نفسه تنزيهاً له عن فعل الشر وإرادة السوء. فإنه مثلاً عندما يذكر النعم ينسبها إليه لأن النعمة خير وتفضل منه. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَإِنَّمَا تَعْبَدُونَ اللَّهَ﴾ وقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [النساء] وقال: ﴿فَأَوَّلَتْكُمْ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء] وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَا حُجُوبٌ﴾ [الاسراء]. ففي النعمة أظهر نفسه فقال: (أنعمنا) وفي الشر قال: (واذا مسه الشر) ولم يقل (مسناه بالشر) أو (أصيناه بالشر). وقال: ﴿حَسِرَطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَفْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة] وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف] وقال على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿أَلَيْسَ خَلْقِي فَهُوَ حَبِيبٌ﴾ [الشعراء] وألوى هو بطمئني ويسئو [وإذا مرئيت فهو تشفييت] [الشعراء]. فانت ترى أنه نسب الخير إلى ربه فقال: ﴿وَأَلَيْسَ هُوَ بِطَمَئِنٍّ وَيَسْئِي﴾ ونسب السوء إلى نفسه فقال: ﴿وَلَا مَرِيئٌ فَهُوَ تَشْفِيئٌ﴾ ولم يقل (وإذا أمرضني) فنسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى.

وقال: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشْرَ أُرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرْادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن] فبنى إرادة الشر للمجهول (أشُر أريد) ونسب الخير والرشد إلى الرب (أراد بهم ربهم رشداً).

ومن ذلك ما جاء فيه في قصة موسى والرجل الصالح، قال:

﴿أَنَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۖ﴾ وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آبُوهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٨﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۖ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٩٠﴾ [الكهف].

فقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقال في قتل الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ وقال في إقامة الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾. فإنه في خرق السفينة نسب العيب إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله تعالى تنزيهاً له فقال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾^(١). أما في قتل الغلام فجاء بالضمير مشتركاً لأن العمل مشترك، فإن فيه قتل غلام وهو في ظاهر الأمر سوء، وإبدال خير منه وهو خير، فجاء بالضمير المشترك للعمل المشترك ثم قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾ فأسند الإبدال إلى الله وحده.

وأما إقامة الجدار فعمل كله خير فأسنده إلى الله سبحانه فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۖ﴾ [الحجرات] فأسند تزيين الإيمان في القلوب إلى ذاته سبحانه. وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْأَفْئِدَةِ ۖ﴾ [آل عمران] فبنى تزيين حب الشهوات للمجهول ولم يسه إلى نفسه. وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ۖ﴾ [الصافات] وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ۖ﴾ [الملك] وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۖ﴾ [الحجر] فأسند هذا التزيين الحسن إلى ذاته.

(١) انظر بدائع الفوائد ٢/ ١٨-١٩، التفسير القيم ١٢-١٣، ٥٥٥-٥٥٦.

وقال: ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة]. وقال: ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد]. وقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَسْكُونُونَ﴾ [الأنعام]. وقال: ﴿أَفَنُفِ زَيْنٌ لِمَنْ سَوَّاهُ عَلَيْهِمْ قَرَاهُ حَسْبًا﴾ [فاطر]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سَوَّاهُ عَلَيْهِمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر]. وقال: ﴿زَيْنٌ لَهُمْ سَوَّاهُ أَصْحَابُهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة]. وقال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنٌ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظُرُقَ السَّوَاءِ﴾ [الفتح].

فأنت ترى أنه ينسب تزيين الخير إلى نفسه بخلاف تزيين السوء. إنك قد تجد مثل قوله: ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَصْحَابُهُمْ﴾ [النمل] ولكن لا تجد: (زينا لهم سوء أعمالهم) فإن الله لا ينسب السوء إلى نفسه.

ومن هذا الباب ما تراه في القرآن الكريم في الكلام على الذين أوتوا الكتاب، فإنه على العموم إذا كان المقام مقام مدح وثناء، أظهر ذاته ونسب إيتاء الكتاب إلى نفسه: ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وإذا كان المقام مقام ذم وتقريع قال: (أوتوا الكتاب). ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَكُمْ تَهْدُونَ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِزْكَرَ وَالنَّبُوَّةَ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَقَضَّيْنَاهُمْ عَلَى السَّلَافِ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة، الأنعام ٢٠] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِزْكَرَ وَالنَّبُوَّةَ﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد]. وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [وَلِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ [الفصل] وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ ءَالِ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت] وقوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

فأنت ترى أنه أسند الإيتاء إلى نفسه في مقام المدح والثناء، في حين قال: ﴿بَلَدٌ قَرِيبٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ زَكَةَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة] وقال:

﴿ وَلِلَّهِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [١٥٠] وَلَكِنْ أَتَيْتَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآثِرٍ مَّا تَسْمِعُوا مِنْكَ ﴿١٥١﴾ [البقرة]. فهو في مقام ذم لهم لأنهم
يعلمون الحق ثم يروغون عنه .

وقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَدِ مَا جَاءَهُمْ أَوَّلًا بَشَاءً
بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران].

وقال : ﴿ أَوْتَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُنْفِقُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ يُحْكَمُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَعْرُضُونَ ﴾ [١٥٢] [آل عمران].

وقال : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَفَرِينَ ﴾ [آل عمران].

وقال : ﴿ وَلَقَدْ شِئْنَا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَذْنَى كُفْرًا ﴾ [آل عمران].

وقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ مِنْكُمْ حِجَابًا وَذَكَرَ
ظُهُورَهُمْ وَاشْرَقُوا بِوُجُوهِهَا لِيَلْأَنَّهُمْ ﴾ [آل عمران].

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْكُرُونَ الْفَسَلَةَ وَيُزِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا
السَّيْلَ ﴾ [النساء].

وقال : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَا يُؤْمَرُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْوَصَ
وُجُوهًا فَتَرَاهُمْ أَعْدَاءُ يَوْمَآ أُولَئِكَ أَعْتَبْتُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ [النساء].

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء].

وقال : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذَلُوا الَّذِينَ تَخْذَلُوا بِهِ تَهْتِكُوا فِيهَا أَفْئِدَةً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَالْخُبْرَ أَوَّلًا ﴾ [المائدة].

وقال : ﴿ فَتِلْكَ الْأَفْئِدَةُ لَا يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة].

وقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد]. وغير ذلك من الآيات.

فأنت ترى أنه في مقام الدم يبنى فعل الإيتاء للمجهول.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ الَّذِي كَانُوا يُبْتَغَمُونَ مِنْكُمْ وَبِالْآيَاتِ الَّتِي بُدِّلَتْ فِيهَا وَبِالْكِتَابِ الَّتِي كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ عَنْهَا﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ الَّذِي أَصْلَحْتُمْ مِنْ عِبَادَتِهِ﴾ [فاطر].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهَدْيَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعِدُونَ﴾ [الشورى].

بإسناد الفعل إلى ذاته في مقام المدح في حين قال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ مِنْكُمْ أَفْعَالٌ لَئِيمَةٌ﴾ [الشورى].

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَعْيِهِمْ لَكُمْ أَسْفَارٌ﴾ [الجمعة] في مقام الدم^(١).

فأنت ترى أن الله سبحانه يذكر ذاته في الخير العام وينسب إلى نفسه، بخلاف الشر والسوء^(٢).

فبنى القول للمجهول في الأعراف ولم يظهر الرب نفسه لأنهم هنا لا يستحقون هذا التشريف، وهو نحو قوله تعالى: ﴿عَائِلَتُهُمْ الْكَافَّةُ﴾ (أو تواتر الكتاب).

(١) انظر التفسير القيم ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٢) ليس معنى هذا القول: إن الله سبحانه لا ينسب إلى نفسه عقوبة أو غضباً أو نحو ذلك، بل إنه ليفعل ذلك لأنه من الخير العام ولكنه لا ينسب إلى نفسه سوءاً فإنه من أكبر الخير أن يهلك الطغاة الظالمين ويستأصل شأفتهم، ولذا ترى في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿تَهْلِكُنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿فَرَأَيْنَاهُ كَفَرًا وَكَفَّكَ كَانَ نَجِسًا﴾ [فاطر].

وقال في سورة البقرة: ﴿أَنْتَلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ أي: أن الأكل يكون عقب الدخول، لأن الفاء تفيد التعقيب، أي: بمجرد دخولكم تأكلون تَوّاً. وأما في سورة الأعراف فقال: ﴿أَتَكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ فالأكل لا يكون إلا بعد السكن والاستقرار وليس بعد الدخول.

ثم لاحظ الفرق أيضاً فقد قال في سورة البقرة: (فكلوا) أي: أن الأكل يكون بعد الدخول تَوّاً: ولم يأت بالفاء في الأعراف وإنما جاء بالواو ليفيد أنه ليس هناك من تعقيب، وأن الأكل سيحصل مع السكن ليس موقوتاً بزمن.

وفرق كبير بين الأمرين فهما كما نقول لشخص: أنت بمجرد دخولك يجيئك الأكل، أو نقول له: اذهب واسكن وإن الأكل يأتيك (غير محدد بزمن).

وقد تقول: إنك جعلت الواو مع السكن أكرم من الفاء في قصة آدم في البقرة والأعراف، فلماذا جعلت الفاء ههنا أكرم؟

والجواب: أن الأمر مختلف، ذلك أن قصة آدم ذكرت السكن في السورتين. قال تعالى في البقرة: ﴿وَلَقَدْ يَمْكُدُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَلَقَدْ يَمْكُدُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا﴾.

أما في قصة موسى فقد ذكرت الفاء مع الدخول والواو مع السكن. قال تعالى في البقرة: ﴿وَلَقَدْ قُلْنَا أَنْتَلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَلَقَدْ قِيلَ لَهُمْ أَتَكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾. فالأمر مختلف وذلك أن الأكل في الأولى بعد الدخول، وفي الثانية مع السكن، فقال في البقرة: إن الأكل واقع في عقب الدخول فإذا دخلتم أكلتم فوراً من كل مكان شئتم رغداً. وقد جعله في الأعراف مع السكن والاستقرار ولم يحدد لهم الوقت. والدخول غير السكن لأن السكن لا يكون إلا بعد الدخول، فجعل الطعام في البقرة مهياً قبل السكن والاستقرار. وفي الأعراف مع السكن بلا تعقيب، فقد يطول الزمن وقد يقصر، فكان الموقف في البقرة أكرم وأفضل.

وقال في سورة البقرة: (رغداً) لأنه مناسب لتعداد النعم ولم يقل: (رغداً) في سورة الأعراف لأن المقام تفرغ وتأنيب وأنهم لا يستحقون رعد العيش.

ثم انظر إلى تناظر هذه القصة مع قصة آدم فقد قال في قصة آدم: (رغداً) في البقرة دون الأعراف، نظير ما فعل في قصة موسى، لأن جو البقرة جو تكريم لآدم وتكريم لذريته من بني اسرائيل، في حين كان الجو في الأعراف جو عقوبات وتأنيب فلم يذكر الرعد في القصتين.

فانظر هذه الدقة في مراعاة جو السورة.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قدّم (الرعد) في الجنة وأخره في الدنيا، فقال في الجنة: ﴿وَكُلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وقال في الدنيا: ﴿فَسَكُّنُوا فِيهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَعْدًا﴾ [البقرة]. لأن الرعد في الدنيا قليل.

ومن ناحية أخرى انه لو وضعهما موضعاً واحداً لكان المعنى أنهما متساويان في الرعد، وهذا بعيد فإنه ليس من المعقول أن تتساوى الجنة والدنيا الدنية في الرعد. كما أن فيه إشارة إلى أن رعد الجنة مقدم على رعد الدنيا، فليعمل العاملون لنيل ذلك الرعد أولاً. فانظر هذا التأليف العجيب.

وقدّم السجود في سورة البقرة على القول فقال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حُطَّةً﴾ [البقرة] لسببين والله أعلم:

الأول: لأن السجود أشرف من القول لأنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فناسب مقام التكريم.

الثاني: لأن السياق يقتضي ذلك، فقد جاءت هذه القصة في عقب الأمر بالصلاة قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة] ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ عَنْ النَّكْرِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] ﴿وَأَسْمِعُوا بِالصَّلَاةِ وَفِيهَا كَبِيرٌ إِلَّا عَلَى الْمُتَنَبِّهِينَ﴾ [البقرة] الَّذِينَ يَنْطَلِقُونَ أَهْتُم مَّاتُوا بِهَذَا رَجِيمٌ وَأَنْتُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ﴿يَنْبَغِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ لِيُخْبِرَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِكُمْ عَلَى الْمَلَكِينَ﴾ [البقرة].

فناسب ههنا تقديم السجود لاتصاله بالصلاة والركوع، وكلا الأمرين مرفوع في سورة الأعراف فأخّر السجود.

وقال في سورة البقرة: ﴿ تَنْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ (٢٠٦) بجمع الكثرة لأن الخطايا جمع كثرة، وهو مناسب لمقام تعداد النعم والتكريم، أي: مهما كانت خطاياكم كثيرة فإننا نغفرها لكم. وقال في سورة الأعراف: (خطيئاتكم) بجمع القلة لأن الجمع السالم يفيد القلة، أي: يغفر لهم خطيئات قليلة، وهو مناسب لمقام التقرير والتأنيب.

وقال في سورة البقرة: (وستزيد) فجاء بالواو الدالة على الاهتمام والتنويع، ولم يجرى بها في سورة الأعراف والسبب واضح.

وقال في سورة البقرة: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ (٢٥٨).

وقال في سورة الأعراف: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ﴾ (١٢٩) وذلك لأنه سبق هذا القول في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَ قَوْمٍ مَوْسَىٰ أَنَّهُ يُهَيِّدُوكَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٠٩).

أي: ليسوا جميعاً على هذه الشاكلة من السوء، فناسب هذا التبعض التبعض في الآية السابقة. جاء في (التفسير الكبير): قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ (٢٥٨) وفي الأعراف: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ﴾ (١٢٩) فما الفائدة في زيادة كلمة (منهم) في الأعراف؟

الجواب: سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة ههنا مبني على التخصيص بلفظ (من) لأنه تعالى قال: ﴿ وَبَيْنَ قَوْمٍ مَوْسَىٰ أَنَّهُ يُهَيِّدُوكَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٠٩) فذكر أن منهم من يفعل ذلك، ثم عدد صنوف إنعائه عليهم وأوامره لهم. فلما انتهت القصة قال الله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ﴾ (١٢٩) فذكر لفظه (منهم) في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله، فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم، فهناك ذكر أمة عادلة وههنا ذكر أمة جائرة... وأما في سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق^(١).

(١) التفسير الكبير ٣ / ٩٣ - ٩٤ .

ومن ناحية أخرى إن في ذكر (منهم) تصريحاً بأن الظالمين كانوا من بني إسرائيل، ولم يذكر في البقرة (منهم) فلم يصرح بأنهم منهم تكريماً لهم. وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه كما هو ظاهر.

وقال في سورة البقرة: (فأنزلنا). وقال في سورة الأعراف: (فأرسلنا).

ذلك لأن الإرسال أشد في العقوبة من الإنزال، قال تعالى في أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿١﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِن يَجِبِلُو ﴿٢﴾ لِيُجْلِبَهُمْ كَاصِفٍ تَأْكُلُ مِنْهُمْ ﴿٣﴾﴾ [الفيل]. وكل منهما مناسب لموطنه.

جاء في (التفسير الكبير): «لم قال في البقرة: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ آيَاتٍ﴾» وقال في الأعراف: (فأرسلنا)؟

الجواب: الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستتصاله لهم بالكلية وذلك إنما يحدث بالآخرة^(١).

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن لفظ الإرسال كثر في الأعراف دون البقرة. فقد ورد لفظ الإرسال ومشتقاته في الأعراف ثلاثين مرة، وفي البقرة سبع عشرة مرة، فوضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها. جاء في (البرهان) للكرمانلي أنه عبر بالإرسال في الأعراف دون البقرة «لأن لفظ الرسول والرسالة كثر في الأعراف، فجاء ذلك وفقاً لما قبله، وليس كذلك في سورة البقرة»^(٢).

وقال في سورة البقرة: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وقال في سورة الأعراف: (عليهم) وهو أهم من الأول. أي: أن العقوبة أهم وأشمل وهو المناسب لمقام التوقيع.

وقال في سورة البقرة: ﴿يَا كَاذِبًا يَكْفُرًا﴾.

(١) التفسير الكبير ٩٤ / ٣ .

(٢) البرهان ٩٠ وانظر تسهيل السيل للبكري.

وقال في الأعراف: ﴿يَمَّا كَانُوا يَقْلُمُونَ﴾^(١) لأن الظلم أشد من الفسق، وهو المناسب لـ (إرسال) العذاب فذكر في كل سياق ما يناسبه.

وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾^(٢) فموسى هنا هو الذي استسقى ربه لقومه.

وقال في سورة الأعراف: ﴿إِذْ أَسْتَسْقَىٰ قَوْمُهُ﴾^(٣): أي أن قوم موسى استسقوا موسى، والحالة الأولى أكمل وأبلغ في النعمة.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ... أَنِ اضْرِبْ﴾.

فإن القول المباشر من الله أكمل وأشرف من الإيحاء.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَأَنفَجَرَتْ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَلْبَجَسَتْ﴾.

وثمة فرق بين الانفجار والانبجاس فإن الانفجار للماء الكثير، والانبجاس للماء القليل. وكل تعبير يناسب موطنه. فإنه المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم كما ذكرنا. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن موسى هو الذي استسقى ربه فناسب إجابته بانفجار الماء. ومن ناحية ثالثة: إن الله قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر ولم يوح إليه وحياً، فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبجاس^(١) والله أعلم.

وثمة سبب آخر دعا إلى ذكر الانفجار في البقرة والانبجاس في الأعراف علاوة على ما سبق، ذلك أنه قال في البقرة: ﴿كُلُوا وَافْرُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾^(٢) فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب فناسب ذلك

(١) انظر معترك الاقران ١ / ٨٧ - ٨٨ .

أن يبلغ في ذكر الماء في البقرة. جاء في (البرهان) للكرمانى: «قوله: (فانفجرت) وفي الأعراف: (فانبجست) لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة، والانبجاس ظهور الماء وكان في هذه السورة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فذكر بلفظ بليغ. وفي الأعراف ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وليس فيه: (واشربوا) فلم يبلغ فيه»^(١).

وقيل: إن الماء أول ما انفجر كان كثيراً ثم قلّ بمصيانهم، فعبر في مقام المدح بالانفجار وفي حالة الذم بالانبجاس.

ومن مقام التكريم في البقرة أنه جمع لهم بين الأكل والشرب فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأعراف بل قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. وقد قال مثل هذا القول في البقرة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّكَوٰى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وزاد عليه الجمع بين الأكل والشرب.

ومقام التكريم واضح بين، جاء في (معترك الاقران): «إن آية البقرة في معرض ذكر النعم عليهم حيث قال: ﴿يَتَّبِعْ لِأَمْرِهِمْ ذِكْرًا وَيَتَّبِعْ لِأَمْرِهِمْ نَهْيًا﴾ فأنشأ عليه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فناسب نسبة القول إليه تعالى، وناسب قوله: (رغداً) لأن النعم به أتم. وناسب تقديم: ﴿وَأَنكُلُوا الْغَامَ سُبْحًا﴾ وناسب: (خطاياكم) لأنه جمع كثرة. وناسب الواو في: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ لدلالاتها على الجمع بينهما، وناسب الفاء في (فكلوا) لأن الأكل قريب من الدخول.

وآية الأعراف افتتحت بما به توبيخهم وهو قوله: ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ثم اتخذهم العجل فناسب ذلك: (وإذ قيل لهم) وناسب ترك (رغداً) والسكن يجامع الأكل فقال: (وكلوا) وناسب تقديم مغفرة الخطايا وترك الواو في (سنزيد). ولما كان في الأعراف تبعيض الهادين بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(١) البرهان ٩٠ وانظر تسهيل السبيل.

ولم يتقدم في البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا، لتصريحه بالإنزال على المتصفين بالظلم. والإرسال أشد وقماً من الإنزال، فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة. وختم آية البقرة بـ : (يفسقون)، لأن الفسق لا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق فناسب كل لفظ . . .

كذا في البقرة: (فانفجرت) وفي الأعراف: (انبعجت) لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء^(١).

فانظر جمال هذا التعبير وقدر أ يكون هذا من كلام البشر؟

(١) معترك الأقران ٨٧/١ - ٨٩ وانظر درة التنزيل ١٤ - ٢٠ والبرهان للكرمانى ٨٨ - ٩٠.

١ - قصة موسى في الأعراف والشعراء

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿فَمِنْ بَيْنَهُمْ ثَمُودُ وَكَانَتْ بَنَاتُهُ إِذَا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ ذُرِّيَّتِهِمْ فَأَنْظَرَهُنَّ لِيَوْمَ عَذَابِ الْغُلُوبِ ﴿١٠٠﴾ وَقَالَ ثَمُودُ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ رَسُولُ رَبِّي الْمَلَكُوتَ ﴿١٠١﴾ خَوَّيْتُ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ أَمْرٍ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ ﴿١٠٢﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يَنْتَوِيذُونَ ﴿١٠٣﴾ فَأَلْقَىٰ حَصَاةً فَلَمَّا فِي شُبَّانٍ نَبِيٍّ ﴿١٠٤﴾ وَزَجَّ وَدَّمَ فَلَمَّا فِي يَدَيْهِ إِسْطِطِينَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ رَمُوتَ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَكْبَرْتُمْ ﴿١٠٧﴾ فَأَلَا أَرْسِلَ إِلَيْهِ رَسُولًا وَارْتِجِلْ فِي السَّاعَةِ خَبِيرٌ ﴿١٠٨﴾ بِأَمْرِكَ يُكَلِّمُ سَجِيرَ جَبَرٍ ﴿١٠٩﴾ وَجَاءَ الشَّعْرُ رَمُوتَ قَالُوا إِنَّكَ لَأَجْرَانِ كُنَّا عَنْ الْقَبِيلِ ﴿١١٠﴾ قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ لَوْنُ الْمُشْرِقِينَ ﴿١١١﴾ قَالُوا يَبْسُوتُ إِنَّا أَنْ ثَلَاثِينَ رَجُلًا أَنْ لَكُنْ مِنْ الثَّلَاثَةِ أَلْفًا سَحَرُوا عَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَفْهَمُوهُمْ وَجَاءَكَ بِبَحْرِ عَجِيزٍ ﴿١١٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَنْ اتَّقِبْ حَصَاةً فَلَمَّا فِي تَلَفٍّ مَا يَكُونُ ﴿١١٣﴾ فَوَقَّعَ الْكَلْبُ رَطْلًا مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ ﴿١١٤﴾ فَخَرَّبُوا مَا هَآؤُلَاءِ وَاقْبَلُوا صَنِيعَهُ ﴿١١٥﴾ وَأَلْقَى الشَّعْرُ سَجِيرِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا مَاذَا يَرِي السَّعِيرِينَ ﴿١١٧﴾ رَبُّنَا مُؤَنِّمٌ وَهَدِيدٌ ﴿١١٨﴾ قَالَ يَرْجِعُونَ مَأْمُورٌ وَبَدَّ قِيلَ أَنْ مَكَّدَ لِكُلِّ بَنٍ هَذَا لَتَكُنْ مَكْرُمُهُ فِي الْمَبِيتِ يُخْرِجُوا بَنِيهَا أَعْلَهُمَا فَسَوَّفَ تَقْلُوتُ ﴿١١٩﴾ لَأَقْلُتَنَّ لِيَوْمِكُمْ وَأَوَّلَكُمْ مِنْ جُلُوفٍ ثُمَّ لَأَمْلِكَنَّ لَكُمْ أَجْعَلُكُمْ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا إِنَّا إِنْ رَجَعْنَا مُنْقَلَبِينَ ﴿١٢١﴾ وَمَا نَبِيُّنَا إِلَّا أَنْتَ مَا نَا بَكَانَتْ رَجَعْنَا لَكَ جَعَلْنَا رَجَعْنَا أَرْغَىٰ عَلَيْنَا سَبْرًا وَتَوَكَّلَا مُتْلَبِينَ ﴿١٢٢﴾ ۝

• • •

وقال في سورة الشعراء:

[illegible]

مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ
 إِلَيْهِ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَتَجَنُّوهُ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُقُولُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ لَيْسَ
 أَخَذْتُ إِلَهًا قَبْرِي لِأَجْمَعَنَّكَ مِنَ السَّجْدِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨﴾ فَأَتَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُجْتَمِعٌ ﴿١٩﴾ وَنَجَّى يَدَهُ إِذَا هِيَ بِيَضَاءَ
 الْيَاسْمِينِ ﴿٢٠﴾ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ هَذَا نَسْرٌ عَلَيَّ ﴿٢١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَعْرِهِ فَكَذَّا
 تَأْمُرُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا أَرْضُهُ لَنَا وَهِيَ فِي الَّذِينَ خَشِينُوا ﴿٢٣﴾ يَا أَوَّلُكَ بِكُلِّ سَعَارٍ عَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
 فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَقْنَتَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٢٥﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ
 كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْنَا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِيَرْقُونَ إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ نَسَمُ
 وَلَكُمْ إِنْ لَكِنَّ الْمُغْرِبِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ هُمْ مَوْسَى الْقَوْمَ ثَلَاثُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُمْ وَقَالُوا بَعْدَ
 يَرْقُونَ إِنْ لَتَنُحْنُ الْقَائِلُونَ ﴿٣١﴾ فَأَتَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَتَى السَّحَرَةَ
 سَاجِدِينَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا رَبُّنَا الْغَالِيُونَ ﴿٣٤﴾ رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ أَمْسَحُوا لَمْ يَكُنْ أَنْ مَادَنَ لَكُمْ إِنْ
 لَكِبْرُكُمْ إِلَهِي حَلَّكُمْ الْيَوْمَ فَسَوِّفَ نَقْتُمُ لَأَقُولَنَّ لِيَوْمِكُمْ وَأُضِلُّكُمْ مِنْ غَلَبٍ وَلَا مَلِكٍ لَكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا لَا خَيْرَ لَنَا إِنْ رَأَيْنَا بُقُولَهُ ﴿٣٧﴾ إِنْ نَطْلُعْ أَنْ يَفْغِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِينًا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾

* * *

إن موضوع القصة في سورة الأعراف هو تاريخ بني اسرائيل، بدءاً من قصة موسى
 مع فرعون إلى ما بعد ذلك من أحداث. أما موضوعها في الشعراء فهو ذكر قصة
 موسى مع فرعون بالتفصيل إلى غرق فرعون وقومه. ومعنى ذلك أن ما في سورة
 الشعراء إنما هو جانب مما في الأعراف. ونحن يعني هنا ذكر الجانبين
 المتشابهين، اللذين يتضح فيهما الحشد الفني من النظر في أوجه التشابه والاختلاف
 بين النصوص في الموطنين.

إن القصة في سورة الشعراء تنسم بسمتين بارزتين هما:

١ - التفصيل في سرد الأحداث.

٢ - قوة المواجهة والتحدي.

وقد بنيت القصة على هذين الركنين، وجاءت كل ألفاظها وعباراتها لتحقيق هذين الأمرين.

أما القصة في سورة الأعراف فقد بنيت على الاختصار من ناحية، كما أنها ليس فيها قوة المواجهة التي في الشعراء. وبملاحظة النصوص الواردة في كلا الموطنين يتجلى ما ذكرناه واضحاً.

تبدأ القصة في الأعراف بدعوة موسى فرعون إلى الهدى بأقصر كلام: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

أما في الشعراء فقد بدأت بالأحداث السابقة لذلك، فقد بدأت بأمر الرب لموسى أن يذهب إلى فرعون ليلفغه دعوة ربه وليرسل معه بني إسرائيل. فأظهر موسى خوفه من أن يكذبه وأن لا ينطلق لسانه. وذكر أن لهم عليه ذنباً خاف أن يقتلوه به وطلب أن يعينه بهرون. فطمأنه ربه بأنه معهما.

ثم ذكر المحاوراة بينه وبين فرعون، وقد ذكر فرعون مَنته عليه بتربيته في بيته وأنه فعل ما فعل من قتل المصري، فأقر بذلك موسى وذكر من أمر فراره منهم ما ذكر.

ثم ذكر المحاجة بينهما في أمر الألوهية والربوبية. فقد سأل فرعون موسى قائلاً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فأجابه موسى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء]. فلا يرد عليه فرعون بالحجة ولكن حاول أن يؤلب عليه من حوله ليسخروا منه. ﴿قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ آلَ تَمِيمٍ إِلَّا تَتَمَنَّوْنَ﴾ فيمضي موسى قائلاً: ﴿رَبِّكُمْ رَبُّ رَبِّي مَا بَيْنَكُمْ وَالَّذِينَ الْأَوَّلِينَ﴾ فيضيق فرعون بموسى ويرميه بالجنون قائلاً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَجُنُونٌ﴾.

فيمضي موسى يعرض دعوته من دون أن يلتفت إلى ما رماه به من الجنون. فقد أدرك موسى أن فرعون حاول أن يصرفه عن الكلام في العقيدة إلى الانتصار لنفسه، ففوت الفرصة عليه ومضى فيما هو فيه فقال معزّضاً بقولهم: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾، فما ملكك من هذا؟!

فانظر كيف ناسب قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ما رماه به من الجنون وعدم العقل .
ولما أهيت الحيلة وأحوزه المنطق تورعده ونهذه بالسجن قائلاً: ﴿لَيْنِ أُنْخَلَّتْ إِلَيْهَا
فُيُورِي لُجْنَائِكَ مِنَ السَّجُنِ﴾ .

ولم يشر إلى هذه المحاجة في الأعراف لأن القصة بنيت هناك على الاختصار
وعدم التفصيل كما ذكرنا . كما أنها ليس فيها مثل هذه القوة في المواجهة .

ولننظر إلى الفروق التعبيرية بين القصة في السورتين لتبين كيف بنيت كل قصة
بحسب السياق الذي وردت فيه :

في الأعراف في الشعراء

قال للملا حول	قال الملا من قوم فرعون
يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره	يريد أن يخرجكم من أرضكم
وابعث في المداائن	وأرسل في المداائن
بكل سحار	بكل ساحر
قالوا لفرعون	قالوا
إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ	إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ
وإنكم إذن لمن المقربين	وإنكم لمن المقربين
فألقي السحرة ساجدين	وألقي السحرة ساجدين
قال آمتم له	قال فرعون آمتم به
فلسوف تعلمون	فسوف تعلمون
ولأصلبكم أجمعين	ثم لأصلبكم أجمعين
قالوا لا خير إنا إلى ربنا متقلبون	قالوا إنا إلى ربنا متقلبون
	وإليك إيضاح ذلك :

١ - قال في الأعراف: ﴿ قَالَ الْمَلَأَيْنِ قَوْرِيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا تُسْأَرُ عَلَيْهِمْ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكُمْ فَهَذَا تَأْمُرُكَ ﴾ .

وقال في الشعراء: ﴿ قَالَ لِلْمَلِكِ حَرَامٌ إِنَّ هَذَا لَسُورٌ عَلَيَّ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِخِيَرَةٍ فَهَذَا تَأْمُرُكَ ﴾ .

فالقائلون في آية الأعراف هم ملا فرعون. في حين أن الذي قال في آية الشعراء هو فرعون نفسه. وذلك أن الحاجة كانت معه. ففي الآية الأولى كان فرعون في مقام خطرة الملك والترفع عن الكلام. وأما في آية الشعراء فإن انقطاعه أمام موسى أنساه خطرة الملك وكبريائه ودفعه إلى أن يقول هو وأن يتكلم هو وأن يستعين بملكه.

وزاد كلمة (بسرره) لمناسبة مقام التفصيل في الشعراء وللتأكيد على السر فيها.

٢ - جاء في الأعراف: ﴿ قَالُوا آتِنَا زَكَاةً وَأَنْزِلْ فِي السَّمَاءِ مِثْرًا ﴾ وجاء في الشعراء: ﴿ قَالُوا آتِنَا زَكَاةً وَأَنْزِلْ فِي السَّمَاءِ مِثْرًا ﴾ فقال في الأعراف: (وَأَرْسَلْ) وقال في الشعراء: (وَابْعَثْ) وذلك لكثرة تردد فعل الإرسال في الأعراف كما سبق أن ذكرنا، فقد تردد فعل الإرسال ومشتقاته ثلاثين مرة في الأعراف، وتردد في الشعراء سبع عشرة مرة، فناسب ذلك ذكر الإرسال في الأعراف دون الشعراء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المقام في الشعراء يقتضي ذكر الفعل (ابعث) دون (أرسل) ذلك أن البعث فيه معنى الإرسال وزيادة، فإن فيه معنى الإثارة والإنهاض والتنهيج.

جاء في (لسان العرب) أن «البعث في كلام العرب على وجهين:

أحدهما: الإرسال كقوله تعالى: ﴿ قُمْ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْبِرِّ تُجِدْ ثَمَرًا لَهُ ثَمَرٌ ﴾ [الأعراف] معناه: أرسلنا. والبعث إثارة بارك أو قاعد تقول... بعث البعير فانبعث، حل عقاله

فأرسله أو كان باركاً فهاجه. وفي حديث حذيفة: أن للفتنة بَعَثَات ... قوله: (بعثات) أي: إثارات وتهيجات»^(١).

وفي (مفردات الراغب) أن «أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث»^(٢).

والبعث قد لا يكون بإرسال شخص من مكان إلى آخر بل يكون بإنهاض شخص من المجتمع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ الْإِنْسَانَ كَقَمَرٍ وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾^(٣) وهذا إنما يكون يوم القيامة، ومعناه: يوم نهض ونقيم، وليس معناه: يوم نرسل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْكَلْبِ بِأَيْتَنِ بِمَاءٍ مِنْ أَيْدِيهِمْ إِذْ قَالَوا لِيَتَوَّكَّلْهُمْ أَلَمْ يَأْتِ كُنْزًا مَلَكًا فَقَتَلَ فِي سَكِينٍ أَلَّهُ^(٤)﴾ [البقرة].

ومعناه: «أنهض للقتال منا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره»^(٥).

فأجاب الله طلبهم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾^(٦) ومعناه: أنهضه فيهم، وليس معناه: أنه أرسله إليهم.

فالبعث قد يكون فيه معنى الإرسال وقد يكون فيه معنى الإنهاض. فلما كان المقام في الشعراء مقام زيادة تحدٍ وقوة مواجهة قال ملأ فرعون: ﴿وَأَيَّتُ فِي الْكَلْبِ حَشِيرٌ﴾^(٧) فلم يكتفوا بالإرسال بل أرادوا أن ينهضوا من المجتمع حاشرين علاوة على الرسل، وهؤلاء من مهمتهم الإثارة وتهيج الناس على موسى. وهذا المعنى لا يؤديه لفظ (أرسل). فاقضى كل مقام اللفظة التي وردت فيه.

(١) لسان العرب (بعث).

(٢) مفردات الراغب ٥٢.

(٣) الكشف ١ / ٢٨٧، البحر المحيط ٢ / ٢٥٥.

٣ - قال في الأعراف: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ﴾ وقال في الشعراء: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ﴾.

فقد جاء في الأعراف بصيغة اسم الفاعل (ساحر)، وجاء في الشعراء بصيغة المبالغة (سحار)، وهذه الصيغة في الشعراء تتناسب مع المبالغة في قوة التحدي وشدة المواجهة بين فرعون وموسى، وتتناسب مع غضب فرعون البليغ واندفاعه للنيل من موسى. فهم أرادوا سحاراً بليغاً في السحر لا مجرد ساحر. وهذا يتناسب أيضاً مع مقام التأكيد على السحر، فإن السحر أكد وكرر في الشعراء أكثر مما في الأعراف، فقد ذكر في الأعراف سبع مرات وفي الشعراء عشر مرات. فانظر كيف اقتضى كل مقام اللفظة التي وردت فيه.

٤ - زاد في الشعراء قوله: ﴿فَجِئَ السَّحَرَةُ لِيَقْتُلَ يُوسُفَ بْنَ مَرْيَمَ﴾ وَقِيلَ لِلثَّانِي هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿١٠﴾ لَمَّا نَجَّ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفَالِقِينَ ﴿١١﴾ وهو المناسب لمقام التفصيل ومقام التأكيد على السحر.

٥ - جاء في الأعراف: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرَعَوَتْ قَالُوا إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَالِقِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ لَإِنْ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢﴾.

وجاء في الشعراء: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَهْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَالِقِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ لَإِنْ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣﴾.

فانظر إلى الفرق بين التعبيرين، وكيف أن كل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه.

أ - قال في الأعراف: (قالوا) وقال في الشعراء: (قالوا لفرعون).

فذكر في الشعراء أنهم قالوا لفرعون، ولم يذكر في آية الأعراف أنهم قالوا له، وكل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه، وذلك أنه ذكر في الأعراف أن ملا فرعون هم الذين قالوا: ﴿إِنَّكَ هَذَا أَسِيرٌ عَلِيمٌ﴾. وذكر في الشعراء أن فرعون هو الذي قال ذلك وأنه هو الذي تولى هذه المهمة بنفسه، فتناسب ذلك أن يواجهوا فرعون بالقول، بخلاف ما في الأعراف.

ولا يفهم من هذا أن ثمة تناقضاً بين الموقفين، فقد قال فرعون هذا القول وردده ملوّه، فذكر القول عنه مرة وذكره عن الملا مرة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق.

ب - قال في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَآجِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۖ﴾. وقال في الشعراء: ﴿قَالُوا لَئِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۖ﴾.

فقد حلف همزة الاستفهام في الأعراف وذكرها في الشعراء، وذلك أنه لما كان المقام مقام إطالة ومبالغة في المحاجة جيء بهمزة الاستفهام ليشترك في الدلالة على قوة الاستفهام والتصریح به.

ففي الآية الأولى أضرر المقول له وأضر همزة الاستفهام، وفي الثانية صرح بالمقول له وبهمزة الاستفهام.

ج - قال في الأعراف: ﴿قَالَ تَمَّ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۖ﴾. وقال في الشعراء: ﴿قَالَ تَمَّ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۖ﴾.

فزاد كلمة (إذن) في الشعراء لتدل على قوة الوعد وتوكيده وريبط تقرّيبهم بالغلبة، وذلك أن (إذن) حرف جواب وجزاء، وذكرها يدل على أن ما بعدها مشروط حصوله بحصول ما قبلها. وذلك نحو أن يقول لك شخص: (سأزورك) فنقول له: إذن أكرمك.

فـ (إذن) تدل على أن إكرامك له مشروط بالزيارة. والمعنى: إن زررتني أكرمتك وإلا فلا.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مَعَكُمْ مِنْ لَدُنْ إِيَّاكُمْ لَنَهَبَ كُلُّ لَدُنْ بِمَا خَلَقَ ۖ﴾ [المؤمنون]. والمعنى: إنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق. فـ (إذن) أفادت معنى الشرط. والمجيء بها في آية الشعراء أكد اشتراط تقرب السحرة بالغلبة. وذلك أنهم سألوا فرعون: إِنْ غلبنا أعطينا أجراً ؟ فقال لهم: نعم وإنكم إذن لمن المقربين ؟ فذكر الشرط في السؤال وفي الجواب. وأما في الأعراف فكان الجواب ما يأتي: ﴿تَمَّ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۖ﴾.

فلم يُعد الشرط في الجواب، وإنما اكتفى بالشرط الذي في السؤال. ولا شك أن إعادة الشرط في الجواب تفيد التأكيد وزيادة الاهتمام. وهذا نظير أن يقول لك شخص: إن فعلت ذلك أكرمتني؟ فتقول له: نعم أو تقول له: نعم إن فعلت ذلك.

فانت كررت الشرط في جوابك الثاني للاهتمام به وتوكيده، بخلاف الجواب الأول. وهذا التكرار يدل على لهفة فرعون على غلبة موسى من ناحية، ومن ناحية أخرى إن مقام التحدي وقوة المواجهة في الشعراء اقتضى ذكرها فيها بخلاف الأعراف.

ثم إنهم لما أكدوا السؤال بزيادة الهمزة في الشعراء أكد لهم الجواب بذكر (إذن). وعلاوة على ذلك كله فإن ذكرها مناسب لمقام التفصيل في الشعراء دون مقام الأعراف المبني على الإيجاز والاختصار.

٦ - أقسم السحرة بعزة فرعون في الشعراء. قال تعالى: ﴿فَالْقُرْآنُ حَكِيمٌ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۝﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف، ذلك أن المقام ههنا مقام الانتصار لعزة فرعون التي نال منها موسى في مواجهته ومحاجته له. وهم في مقام التراف إليه والحظوة برضاه.

ثم انظر كيف ذكر الحبال والعصي في الشعراء وهو المناسب لمقام التفصيل فيها، ولم يذكر ذلك في الأعراف لأن المقام مقام إجمال.

٧ - ثم انظر بعد تأكيد الوعود وتمنية السحرة بالقربى منه والقسم بعزته كيف انقلب الأمر فجأة من دون مهلة: ﴿فَالَّذِي ثَمَرُهُ خَصَاءٌ لِّذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُفُونَ ۝﴾ فالإي السحرة مكجين ۝ [الشعراء].

مكلا بالترتيب والتعقيب من دون فاصل زمني بين اللفف والسجود: ﴿لِّذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُفُونَ ۝﴾ فالإي السحرة مكجين ۝.

وهذا المشهد هو المناسب لقوة التحدي، فإن سرعة النصر الحاسم بعد قوة التحدي هو المناسب لمثل هذا المقام.

في حين لا تجد مثل هذا التعقيب في الأعراف . قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُلُونَ ﴿١٠٠﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَغَلَبُوا هَٰذَاكَ وَانْقَلَبُوا صَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ۝ ﴾ .

ولا ندري كم مضى من الوقت بين انقلابهم صاغرين وسجودهم ، فإنه جاء بالواو ، والواو لا تفيد التعقيب كما هو معلوم ، ولم يأت بالغاء كما فعل في الشعراء ، وذلك لأن الموقف ليس فيه تلك المواجهة وذلك التحدي ، فجعل كل تعبير في الموطن اللائق به .

وليس ثمة تناقض بين القولين فإن الغاء لا تناقض الواو وإنما هي واقعة في أحد أزمنتها المحتملة .

فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الألفاظ والحروف .

٨ - قال في الأعراف : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَمْتَمْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَّنَ لَكَ ﴿١٠٠﴾ ۝ ﴾ وقال في الشعراء : ﴿ قَالَ مَا مَسَّرْتُ لَمْ قَبْلَ أَنْ مَادَّنَ لَكُمْ ﴿١٠٠﴾ ۝ ﴾ ومعنى (أمتم به) : أمتم بالله . ومعنى (أمتم له) : انقدتم لموسى وصدقتم به .

فالضمير في (به) يعود على الله وفي (له) يعود على موسى . وذلك أن موسى أغضبه في الشعراء أكثر مما في الأعراف ، فقد نال منه بالقول وأفحمه بالحجة ، ولذا كان تصديقهم به أكثر إغاطة له ، فذكره في الشعراء ولم يذكره في الأعراف .

٩ - قال في الشعراء : ﴿ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ ﴿١٠٠﴾ ۝ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأعراف ، ذلك لأن الكلام في الشعراء كان على موسى فإنه قال : (أمتم له) . أي لموسى ، والكلام في الأعراف كان على الله ، فإنه قال : (أمتم به) وواضح أنه لا يصح أن يقال مثل هذا القول في الأعراف ، فإنه لا يصح أن يقال في الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ ﴿١٠٠﴾ ۝ ﴾ . وهو يدل أيضاً على شدة غضبه من موسى .

١٠ - قال في الأعراف : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ ۝ ﴾ . وقال في الشعراء : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ ۝ ﴾ فأكد تهديده باللام ، وذلك لأن الموقف موقف غضب زائد وتميز من الغيظ .

١١ - قال في الأعراف : ﴿ لَا أَقِيعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ حَتَّىٰ تَمُوتَ لِأَصْلَابِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٠﴾ ۝ ﴾ .

وقال في الشعراء: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢٠) فاعطاهم مهلة في الأعراف ذلك أنه قال: ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢١). و(ثم) تفيد التراخي، ولم يعطهم مهلة في الشعراء وذلك لزيادة غضبه واحتراق قلبه من الغيظ.

١٢- قال في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّكَ مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٢) وقال في الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَّا إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٣). فزاد (لا ضير) في الشعراء وهو المناسب لمقام التفصيل من ناحية، ثم إنه المناسب لمقام التهديد الشديد والوعيد المؤكد. فإن تهديده في الشعراء أشد وأكد مما في الأعراف، فلو أنهم قالوا في الأعراف: (لا ضير) دون الشعراء لظن أنهم هابوا التهديد الشديد فلم ينطقوا بما يدل على عدم الاكتراث، إذ من المعتاد أن يهرب الانسان التهديد الكبير دون الصغير، أما إذا استهانوا بالتهديد الكبير ولم يكثرثوا به فإن ذلك يدل - ولا شك - على أنهم أقل اكتراثاً بالتهديد الأدنى وأقل رهبة له. فناسب هذا أن يقولوه في موطن التهديد الشديد دون الأدنى.

وقد تقول: ولماذا لم يذكروه في الوطنين ؟

والجواب: إن ذكره في موطن التهديد الكبير يغني عن ذكره في الوطن الأدنى، وذلك من باب الأولى فيكون كأنهم ذكروه في الوطنين.

ثم إن ذكره في الوطنين مخل بالإيجاز، إذ إن ذلك مفهوم من الوطن الأول. ثم إن بناء القصة في الشعراء قائم على التفصيل، وبناءها في الأعراف قائم على الاختصار، وذلك يقتضي أن يفصل ما يقتضي التفصيل، ويختصر ما هو معلوم وما لا حاجة لذكره ؟ فافتضى ذلك أن يذكر القول في الشعراء الذي هو مقام الرهبة الشديدة ومقام التفصيل دون الأعراف الذي هو مقام التهديد الأدنى ومقام الاختصار.

ثم إن ذكره في الوطنين على السواء معناه أن المقامين متشابهان ولا فرق بينهما، ومن المعلوم أنهما ليسا متشابهين، فافتضى أن يذكر في كل موطن ما يتناسب معه من الأمور، فوضع كل تعبير في مكانه اللائق به تماماً.

ثم يمضي في الشعراء في غير الوجهة التي يمضي بها في الأعراف، فيمضي في الأعراف لذكره أحوال بني إسرائيل وتاريخهم والآيات التي أروها ومعاصيهم واستهانتهم بالنعم والآيات.

ويمضي في الشعراء لنهاية فرعون ونجاة بني إسرائيل..
وغني عن القول أن اختيار الألفاظ والعبارات كان مقصوداً لخدمة الناحية الفنية في أدق معانيها وأكمل صورها.

تفسير سورة (التين)

ولنضرب مثلاً في تفسير سورة من قصار السور ونبين طرفاً مما فيها من أمور فنية ولتكن هذه السورة سورة التين .

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْزَيْتُونِ وَالْأَنْثَرُونَ ۚ وَطُورِ سِينِينَ ۚ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۚ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۚ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۚ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّكْرِ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لِمَنْ عَمِلَ الصَّالِحِينَ ۚ ﴾ .

ابتدأت السورة بالقسم بالتين والزيتون . والتين والزيتون قد يكون قصد بهما الشجران المعروفان، وقد ذكر المفسرون لاختيار هذين الشجرين للقسم بهما أسباباً عدة، فقد ذكروا أنه أقسم بنوعين من الشجر، نوع ثمره ليس فيه عجم، ونوع فيه عجم، وأنه ورد في الأثر أن التين من شجر الجنة، فقد روي أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبقاً من تين فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلتُ هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم» . . وقد ذكر أن آدم خصف من ورقه ليستر عورته حين انكشفت في الجنة .

وأما الزيتون فإنه شجرة مباركة كما جاء في التزييل العزيز .

وقد ذكروا أموراً أخرى لا داعي لسردها هنا .

ولا ندرى هل لبده السورة بالقسم بالشجر الذي يذكر أن له أصلاً في الجنة أعني التين له علاقة بعدد آيات هذه السورة أو لا ؟ فإن عدد آيات هذه السورة ثمانية وهن بعدد أبواب الجنة . قد يكون هذا القول خرساً محضاً وأنا أميلُ إلى ذلك، ولكننا قد وجدنا شيئاً من أنواع هذه العلاقات في القرآن . فقد تكرر - كما سبق أن ذكرنا - قوله: ﴿ قِيَامِي ۚ أَلَا رَيْبُكُمَا كَذِبَانِ ﴾ [الرحمن] عند الكلام في وصف الجنة ثماني مرات بعدد أبواب الجنة، وحصل ذلك مرتين في السورة، وتكرر في الوعيد سبع مرات بعدد أبواب جهنم ابتداء من قوله: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الْفَلَاحِينَ ﴾ ^(١) [الرحمن] .

(١) انظر ملاك التأويل ٢/ ٨٨٨ .

وقالوا : إن سورة القدر ثلاثون كلمة بعدد أيام شهر رمضان، وإن قوله: (هي) في قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُ الْقَوْمَ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون، وهي إشارة إلى أن هذه الليلة هي الليلة السابعة والعشرون من رمضان.

وعلى أي حال فإن كثيراً من هذه العلاقات ربما كانت موافقات والله أعلم.

وقيل: إن المقصود بالتين والزيتون جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لأنهما منبئا التين والزيتون^(١).

والعلاقة بين التين والزيتون وما بعدهما ليست ظاهرة على هذا إلا بتكلف. وقيل: « هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار. فالأول: محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام. والثاني: طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً صلى الله عليه وسلم^(٢) ».

وجاء في (التيان في أقسام القرآن): « فأقسم سبحانه بهذه الأمانة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة. فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس... وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم. كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه. ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى: (جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستملن من فاران).

فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع، ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم^(٣).

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ٩، روح المعاني ٣٠ / ١٧٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٢٦.

(٣) التيان ٥٣ - ٥٥.

وهذا هو الراجع فيما أرى لأن المناسبة بين هذه المحال المُقسَّم بها ظاهرة على هذا.

ثم لننظر إلى ترتيب هذه الأشياء المقسم بها.

فقد بدأ بالتين فالزيتون. والزيتون أشرف وأفضل من التين فقد شهد الله له أنه شجرة مباركة قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور] وهي فاكهة من وجه وإدام من وجه وزيتها يُستعمل في إنارة المصابيح والشُّرج.

ثم أقسم بطور سينين وهو أفضل مما ذكر قبله، فإنه الجبل الذي كلم الرب عليه موسى ونجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف وضع طور سينين بجوار الزيتون لا بجوار التين، وقد ورد ذكر الزيتون بجوار الطور في موطن آخر من التنزيل العزيز^(١).

قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْكَلْبِينَ﴾ [المؤمنون] وهذه الشجرة هي شجرة الزيتون بإجماع المفسرين. قال الواحدي: «والمفسرون كلهم يقولون إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون»^(٢).

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة: مكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين^(٣). وهو أفضل البقاع عند الله وأحبها إليه كما جاء في الحديث الشريف، فتدرج من الفاضل إلى الأفضل ومن الشريف إلى الأشرف.

فأنت ترى. أنه تدرج من التين إلى الزيتون إلى طور سينين إلى بلد الله الأمين. فختم بموطن الرسالة الخاتمة أشرف الرسائل.

وقد وصف الله هذا البلد بصفة (الأمين) وهي صفة اختيرت هنا اختياراً مقصوداً لا يسد مسدّها وصف آخر.

فالأمين وصف يحتمل أن يكون من الأمانة، كما يحتمل أن يكون من الأمن. وكلا المعنيين مراد.

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٠ / ١٩٣ .

(٢) انظر فتح القدير ٣ / ٤٦٣، روح المعاني ١٨ / ٢٢ - ٢٣ .

(٣) روح المعاني ٣٠ / ١٧٣ .

فمن حيث الأمانة وَصِفَ بالأمين لأنه مكانٌ أداء الأمانة وهي الرسالة. والأمانة ينبغي أن تؤدي في مكان أمين. فالرسالة أمانة نزل بها الروح الأمين وهو جبريل، وأداها إلى الصادق الأمين وهو محمد، في البلد الأمين وهو مكة. فانظر كيف اختير الوصف ههنا أحسن اختيار وأنسبه.

فالأمانة حملها رسولٌ موصوف بالأمانة فأداها إلى شخص موصوف بالأمانة في بلد موصوف بالأمانة. جاء في (روح المعاني): «وأمانته أن يحفظ مَنْ دخله كما يحفظ الأمين ما يُؤْتَمَنُ عليه»^(١).

وأما من حيث الأمن فهو البلد الآمن قبل الإسلام وبعده، دعا له سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأمن قبل أن يكون بلداً ويعد أن صار بلداً فقال أولاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة] وقال فيما بعد: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم] فهو مدعو له بالأمن من أبي الأنبياء. وقد استجاب الله سبحانه هذه الدعوة قال تعالى: ﴿وَمَنْ ذَكَرْهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿وَلَجَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِنًا﴾ [البقرة].

فـ (الأمين) على هذا (فعل) للمبالغة بمعنى الآمن. ويحتمل أن تكون (الأمين) فعلاً بمعنى مفعول، مثل: جريح بمعنى مجروح وأسير بمعنى مأسور، أي: المأمون، وذلك لأنه مأمون الغوائل^(٢).

جاء في (روح المعاني): «الأمين فعيل بمعنى فاعل أي الآمن من أَمْن الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين... وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه... وأما بمعنى مفعول أي: المأمون من (أمنه) أي: لم يَحْفَظْ، ونسبته إلى البلد مجازية. والمأمون حقيقة الناس أي: لا تخاف غوائلهم فيه، أو الكلام على الحذف والإيصال أي: المأمون فيه من الغوائل»^(٣).

وجاء في (البحر المحيط): «وأمين للمبالغة أي: آمِنٌ مَنْ فيه ومن دخله وما فيه من طير وحيوان، أو من أَمِن الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين كما يحفظ

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) انظر روح المعاني ٣٠ / ١٧٣، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠، الكشف ٣ / ٣٤٨.

(٣) روح المعاني ٣٠ / ١٧٣.

الأمين ما يؤتمن عليه. ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من أمته لأنه مأمون الغوائل^(١).

وقد تقول: ولم اختار لفظ (الأمين) على (الآمن) الذي تردد في مواطن أخرى من القرآن الكريم ؟ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا بَيْنَا﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا بَيْنَا وَمَنْ خَلْفَهُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

والجواب: أنه باختياره لفظ (الأمين) جمع معنيي الأمن والأمانة، وجمع معنى اسم الفاعل واسم المفعول، وجمع الحقيقة والمجاز، فهو أمينٌ وآمن ومأمون، وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة.

ثم انظر إلى جواب القسم وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين] كيف تناسب مع المُقَسَّم به تناسباً لطيفاً ولأهمه ملاءمة بديعة. فإنه أقسم بالرسالات على بداية الإنسان ونهايته^(٢) فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهذه بدايته، ثم قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين] وهذه نهايته.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين منهم مَنْ أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين^(٣)، والآخرين وهم المؤمنون الذين لهم أجر غير ممنون.

ولما كانت الرسالات إنما هي منهج للإنسان وشرعة له، كان الجواب يتعلق بالإنسان طبيعة ومنهجاً، فذكر طبيعة الإنسان في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وذكر المنهج في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين].

وفي هذه إشارة إلى أن المنهج لا بد أن يكون متلائماً مع الطبيعة البشرية غير مناقض لها وإلا فشل.

فكان الجواب كما ترى أوفى جوابٍ وأكمل وأنسب شيء لما قبله وما بعده.

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٩٠ وانظر الكشف ٣ / ٣٤٨ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ٥٥ .

(٣) التبيان ٥٦ .

ثم انظر من ناحية أخرى إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإنه أسند الخلق إلى نفسه ولم يَنْتِه للمجهول، وذلك أنه في موطن بيان عظيم قدرته وحسن فعله ويدبج صنعه فأسند ذلك إلى نفسه، وهذا في القرآن خط واضح، فإنه في مثل هذا المقام وفي مقام النعمة والتفضل يسند الأمر إلى نفسه قال تعالى: ﴿وَمَعْنَى خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿أَوَلَمْ نَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صُفًى أَتَيْنَا أَفْكَمًا لَهُمْ لَكُمَا مَلَكُونَ﴾ [وَلَقَدْ كَلَّمْنَا هُمْ فَمَنَّا رَكُومٌ وَمِنَّا يَكُونُ] [يس].

فانظر كيف أسند الخلق في مقام النعمة والتفضل إلى ذاته في حين قال: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ صَوِيغًا﴾ [النساء] ببناء الفعل للمجهول لما كان القصد بيان نقص الإنسان وضعفه. وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [إِذَا سَأَلَكَ الشَّرُّ هَرُوعًا] [وَأَمَّا سَأَلَهُ الْخَبِيرُ سُرُوعًا] [المعارج].

فانظر إلى الفرق بين المقامين. وقد مر شيء من هذا في موطن سابق.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه أسند الخلق إلى نفسه لأن المقام مقام بيان منهج للإنسان، فأراد أن يبين أن واضح المنهج للإنسان هو خالق الإنسان ولا أحد غيره أعلم بما يصلح له وما هو أنسب له، ولو بني الفعل للمجهول لم يفهم ذلك صراحة.

فأنت ترى أن إسناد الخلق إلى ذات الله العلية أنسب شيء في هذا المقام. وقد تقول: ولِمَ أسند الرد أسفل سافلين إلى نفسه فقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين] وهذا ليس مقام تفضل ولا بيان نعمة؟

فنقول: إن هذا الإسناد أنسب شيء ههنا ولا يليق غيره، وذلك أنه أراد أن يذكر أن بيده البداية والنهاية، وأنه القادر أولاً وأخيراً لا معقب لحكمه يفعل ما يشاء في البداية والختام، وهذا لا يكون إلا بإسناد الأمر إلى ذاته العلية.

ألا ترى أنه لو قال: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رَدَّ أسفل سافلين) لكان يفهم ذاك أن هناك راداً غيره يفسد خلقته ويهدم ما بناه؟

ومعنى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنه صَيَّرَهُ على أحسن ما يكون في الصورة والمعنى والإدراك وفي كل ما هو أحسن^(١) من الأمور المادية والمعنوية.

(١) انظر روح المعاني ٣٠ / ١٧٥، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

وقال بعدها: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَتَسْأَلُ سَافِلِينَ﴾ فجاء بـ (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي، لأن كونه أسفل سافلين لا يعاقب خلقه بل يتراخى عنه في الزمن، فهي من حيث الوقت تفيد التراخي، كما أنها من حيث الرتبة تفيد التراخي، فرتبة كونه في أحسن تقويم تتراخى وتبعد عن رتبة كونه في أسفل سافلين، فثمة بؤنٌ بعيد بين الرتبتين فأفادت (ثم) وهنا التراخي الزماني والتراخي في الرتبة.

واختلف في معنى ﴿أَسْأَلَ سَافِلِينَ﴾ فذهب قسم من المفسرين إلى أن المقصود به أرذل العمر، والمراد بذلك: الهرم وضعف القوى الظاهرة والباطنة وذهول العقل حتى يصير لا يعلم شيئاً^(١).

ومعنى الاستثناء على هذا أن الصالحين من الهرم لهم ثواب دائم غير منقطع^(٢) يَكْتَبُ لهم في وقت شيخوختهم كما كان يكتب لهم في وقت صحتهم وقوتهم. وفي الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا رَدَّ لَأَرْذَلَ الْعُمُرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي قُوَّتِهِ» وذلك أجر غير ممنون^(٣). أي: غير منقطع.

وذهب آخرون إلى أن المقصود به أسفل الأماكن السافلة وهو جهنم أو الدرك الأسفل من النار.

ومعنى الاستثناء على هذا ظاهرٌ، فالصالحون مستثنون من الرد إلى ذلك.

وركز بعضهم على الخصائص الروحية. جاء في (ظلال القرآن): «والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها. فهو مهياً لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين... بينما هذا الإنسان مهياً حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَتَسْأَلُ سَافِلِينَ﴾. حيث تصبح البهائم أرفع وأقوم لاستقامتها على فطرتها...»

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح. ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها^(٤).

(١) روح المعاني ٣٠ / ١٧٦، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

(٢) الكشف ٣ / ٣٤٨.

(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

(٤) في ظلال القرآن ٣٠ / ١٩٤.

وظاهر أن معنى الآية يتسع لكل ما ذكره، وهي تفيد أيضاً أن حياة غير المؤمن نكد وغم، وعيشة ضنك وشقاء قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ [طه] وقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَطُهَا الطُّيُورُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج].

فحياة هؤلاء هابطة سافلة بل هم في أسفل سافلين. ثم ننظر إلى الاستثناء وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين] فإنه استثنى من الرد أسفل سافلين مَنْ آمَن وعمل صالحاً ولم يزد على ذلك، فلم يقل مثل ما قال في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وذلك لاختلاف المواطنين، فإن سورة العصر في بيان الخسران الذي يصيب الإنسان، وسورة التين فيما ينجي من دركات النار، قال تعالى: ﴿وَالصَّبْرُ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فبين لنا أن الإيمان والعمل الصالح يمنع من الرد أسفل سافلين. ولكن لا يمنع من الخسران الذي يفوته فيما لو تواصى بالحق وبالصبر فإن كل من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله، فانظر الفرق بين المواطنين وبين الاستثناءين.

جاء في (التيبان): «وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ فإنه ضَمَّنَّ الاستثناء وخصمه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ولما قال: ﴿فَرُدُّوهُ أَثْقَلَ سَنِينَ﴾ [التين] وَسَّعَ الاستثناء وعممه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يقل: (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الريح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضاً على الأعيان. وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يُستحب، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يُستحب. فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب

عليهم في أنفسهم ولم يأمرؤا غيرهم به . وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهلهم . فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء ^(١) .

ثم قال : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ مَمْنُونٌ ﴾ [التين] قيل : ومعنى غير ممنون غير منقوص ولا منقطع ، وقيل : معناه غير مكدر باليمن عليهم ^(٢) . والحق أن كل ذلك مراد وهو من صفات الثواب ، لأنه يجب أن يكون غير منقطع ولا منقصاً بالمنة ^(٣) .

فقال : (غير ممنون) ليجمع هذه المعاني كلها ، ولم يقل : غير مقطوع ولا نحو ذلك فيفيد معنى دون آخر .

ثم انظر كيف زاد الفاء في قوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ مَمْنُونٌ ﴾ ولم يفعل مثل ذلك في آية شبيهة بها وهي قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الإنشاق] بدون فاء . وذلك لأن السياقين مختلفان . فسياق سورة الإنشاق أكثره في ذكر الكافرين ، وقد أطال في ذكرهم ووصف عذابهم فقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبَ وَرَدَّ ظُهُورَهُ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِيهِ مُسْرِوًّا ۝ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ كَانَ بِهِ مُبِيرًا ﴾ [الإنشاق] ثم قال مفرعاً للكافرين مؤنباً لهم : ﴿ فَتَالَهُمْ لَا يَوْمُوتُونَ ۚ وَإِنَّا فَرَقْنَا عَلَيْهِمُ الْفُرْقَانَ لَا يُسْجَدُونَ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۝ وَأَنَّهُ أَهْلُ مَا يَكْفُرُونَ ۚ فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرُهُمْ مَمْنُونٌ ﴾ [الإنشاق] .

في حين لم يزد في الكلام على المؤمنين عن قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبَهُ يُسْمِنُ ۖ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَئِيمًا ۝ وَتَقَلَّبُ إِلَٰهُ عَلَيْهِ مُسْرِوًّا ﴾ [الإنشاق] .

فانظر كيف أطال في وصف الكافرين وأعمالهم وعقابهم ، وأوجز في الكلام على المؤمنين ، ولذا حذف الفاء من جزاء المؤمنين في سورة الإنشاق مناسبة للإيجاز . في حين لم يذكر الكافرين في سورة التين ولم يزد على أن قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ يعني الإنسان ، وهو غير صريح في أن المقصود به الكافرون أو غيرهم كما أسلفنا .

(١) التبيان ٩١ .

(٢) انظر البحر المحيط ٨ / ٤٩٠ ، روح المعاني ٣٠ / ١٧٦ .

(٣) التفسير الكبير ٣٢ / ١١ .

ثم انظر إلى كل من السورتين كيف تناولت الكلام على الإنسان. فقد بدأت سورة الإنشقاق بذكر كدح الإنسان ومشقته ونصبه: ﴿يَتَأَيَّمُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ وتوعده ربّه بركوب الأهوال والشدائد المتتابعة التي يفوق بعضها بعضاً في الشدة فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقِ وَالْقَمَرِ إِذَا اسْتَقَىٰ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقِ﴾.

في حين بدأ في سورة التين بتكريم الإنسان فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فناسب ذلك تأكيد استمرار أجره وعدم تنغيصه، وذلك بزيادة الفاء في التين دون الإنشقاق.

ثم قال بعدها: ﴿فَمَا يَكْبُرُكَ بِمَدِّالَّذِينَ﴾. والمعنى: أي شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالجزء بعد هذا الدليل الواضح؟ والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدرجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي مع تحويله من حال إلى حال، أوضح دليل على قدرة الخالق على الحشر والنشر^(١) فإن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه خلقك الأول^(٢).

فانظر جلالة ارتباط هذا الكلام بما قبله.

ثم انظر كيف استدل على الجزء بالأدلة النقلية والعقلية. فالدليل النقلية هو ما أخبرت به الرسائل السماوية، وقد ذكر من هذه الرسائل كبراهها وهي رسائل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والدليل العقلي هو الاستدلال بخلق الإنسان في أحسن تقويم وتدرجه في مراتب الزيادة والنقص.

ثم انظر كيف اختار كلمة (الدين) ولم يختار كلمة الجزء أو الحساب أو النشور نحوها، وذلك لما تقدم ذكر مواطن الرسائل ناسب ذلك ذكر الدين، لأن هذه إن، ولأنه قد يراد بذلك معنى (الدين) علاوة على معنى الجزء. والمعنى أي شيء يجعلك مكذباً بصحة الدين بعد هذه الأدلة المتقدمة؟ فالذي خلقك

(١) الكشف ٣/ ٣٤٩، التفسير الكبير ٣٢/ ١٢.

(٢) التبيان ٦١.

في أحسن تقويم يرسم لك أحسن منهج تسعد به في الدنيا وفي الآخرة. فجمعت كلمة (الدين) معنى الدين ومعنى الجزء في آن واحد، ولو قال: فما الذي يكذبك بالجزء لم يجمع هذين المعنيين.

فأنت ترى أنه اختار كلمة (الدين) لتقع في موقعها المناسب لها تماماً. ثم قال بعدها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (١). و(أحكم الحاكمين) يحتمل أن يكون معناه: أعظم ذوي الحكمة وأحسنهم تدبيراً، ويحتمل أن يكون معناه، أقضى القاضين، لأن (حكم) يحتمل أن يكون من الحكمة، ويحتمل أن يكون من القضاء وهو الفصل في المحاكم.

وعلى الوجه الأول يكون المعنى: أليس الذي فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنماً وتديراً وأن حكمته بالغة لا حدود لها. وإذا تبين أن الله سبحانه أحكم الحاكمين - وهو بَيِّنٌ - تعيَّنت الإعادة والجزء لأن حكمته تأبى أن يترك الإنسان سدى ولا يحاسب على أعماله، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته (٢)؟

وعلى الوجه الثاني يكون المعنى: أليس الله بأقضى القاضين (٣) فيحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، كما قال تعالى: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر].

فانظر قوة ارتباط هذه الآية بما قبلها على كلا الوجهين، فإن حكمته تقتضي الإعادة والجزء. والجزء والفصل بين الخلائق يقتضي وجود قاضي، بل يقتضي وجود أقضى القاضين.

فجمع بهذه العبارة معنيين: القضاء والحكمة، بل لقد جمع معاني عدة بهذا التعبير، إذ كل لفظ من (أحكم الحاكمين) يحتمل أن يكون بمعنى القضاء والحكمة فيكون قد جمع أربعة معان كلها مرادة وهي (أحكم الحاكمين) بمعنى: أكثرهم حكمة و (أقضى الحكماء) و (أقضى القضاة) و (أحكم القضاة).

فانظر كيف جمع أربعة معان تؤدي بأربع عبارات في عبارة واحدة موجزة. ولو قال: (أقضى القاضين) لدلت على معنى واحد.

(١) انظر التبيان ٣٣ وما بعدها، التفسير الكبير ٣٢/ ١٢.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٧٧، مجمع البيان ١٠/ ٥١٢.

ثم انظر كيف جعل ذلك بأسلوب الاستفهام التقريري ولم يجعله بالأسلوب الخبري فهو لم يقل: (إن الله أحكم الحاكمين) ولا نحو ذلك، وإنما قرر المخاطب ليقوله بنفسه وليشارك في إصدار الحكم فيقول: بلى ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ثم انظر إلى ارتباط خاتمة السورة بفاتحتها، فإن فاتحة السورة في ذكر مواطن الرسالات العظمى وارتباطها بخاتمها واضحٌ بَيِّنٌ، فإن الذي أنزل هذه الشرائع العظيمة وما تضمنته من أحكام سامية هو أحكم الحاكمين.

ثم انظر إلى التنسيق الجميل في اختيار خواتم الآي، فإن خاتمة كل آية اختيرت لتجمع عدة معانٍ في آن واحد. فاختيرت (الأمين) لتجمع معنيي الأمن والأمانة، و(أسفل سافلين) لتجمع معنى أرذل العمر ودركات جهنم السفلى. و(غير ممنون) لتجمع معنى غير مُنْقَطِعٍ ولا مُنْقَضٍ بالميَّة عليهم، وكلمة (الدين) لتجمع الجزاء والدين - و(أحكم الحاكمين) لتجمع الحكمة والقضاء.

فانظر هذه الدقة في الاختيار وهذا الحُسن في التنسيق. أليس الذي قال ذلك بأحكم الحاكمين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

المراجع

- الإتيان في علوم القرآن للسيوطي - ط ٣/ ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.
- الإعجاز العددي للقرآن الكريم - عبدالرزاق نوفل ط ٣.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي ط ٦/ ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، مطبعة الاستقامة في القاهرة.
- أنوار التنزيل - القاضي البضاوي - المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ.
- الإيضاح للقرويني - تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر - مطبعة السنة المحمدية.
- البحر المحيط لأبي حيان ط ١ سنة ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة بمصر.
- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية - الطباعة المنيرية.
- بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري تحقيق حفني شرف ط ١ مكتبة نهضة مصر.
- البرهان في علوم القرآن ليدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط ١/ ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية.
- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان - محمد بن حمزة الكرمانلي. رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية حققها الطالب ناصر بن سليمان العمر - مكتوب بالآلة الكاتبة.
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - الزملكاني. تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب - مطبعة العاني - بغداد ط ١/ ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدالسلام محمد هرون ط ٢ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتب الهلال ببغروت.

– تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي منشورات مكتبة الحياة – بيروت، تصوير، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ.

– التبيان في أقسام القرآن لابن القيم – مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤ – بتحقيق عصام فارس الحرستاني.

– تحرير التحرير لابن أبي الإصبع المصري تحقيق حفي شرف، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة.

– تسهيل السبيل في فهم معاني التنزيل لمحمد تاج الدين أبي الحسن البكري مخطوطة بمكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٢٣٢٠.

– التصوير الفني في القرآن – سيد قطب.

– التعمير الفني في القرآن – الدكتور بكري شيخ أمين – دار الشروق، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

– التفسير القيم لابن القيم – جمع محمد أويس الندوي – مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ – ١٩٧٣م.

– التفسير الكبير لفخر الدين الرازي – المطبعة البهية – مصر.

– تفسير ابن كثير طبع بدار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه.

– حاشية الصبان على شرح التصريح للشيخ يس بن زيد الدين العليمي الحمصي طبع مع شرح التصريح – دار إحياء الكتب العربية.

– حاشية ابن المنير على الكشاف طبع مع الكشاف.

– دراسات في اللغة للدكتور إبراهيم السامرائي – مطبعة العاني – بغداد سنة ١٩٦١م.

– درة التنزيل وغرة التأويل للمخطيب الإسكافي منشورات دار الأفاق الجديدة – بيروت ط١/ ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي،
إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي.
- سيرة النبي ﷺ لمحمد بن إسحاق هذبها ابن هشام تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد - نشر محمد علي صبيح وأولاده، مطبعة المدني ١٣٨٣هـ -
١٩٦٣م.
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبدالله الأزهرى - دار إحياء الكتب
العربية.
- شرح الدماميني على مغني اللبيب طبع بهامش حاشية الشمني على مغني
الليبيب - المطبعة البهية بمصر.
- الطراز ليحيى بن حمزة العلوي - مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢هـ -
١٩١٤م.
- فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ط ١ - مطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.
- في ظلال القرآن لسيد قطب - الطبعة الأولى.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - لجارالله
الزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ -
١٩٤٨م.
- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري -
مصور على طبعة بولاق.
- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي - كتا بفروشي إسلامية - طهران.
- معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل صالح السامرائي ط ١، ١٤٠١هـ -
١٩٨١م الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت.
- معاني النحو - الدكتور فاضل صالح السامرائي -

- معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد علي البجاوي - دار الثقافة العربية للطباعة.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.
- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسيني بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني - طهران.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوي - مطبعة لجنة البيان العربي.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ط ١ سنة ١٣٢٧هـ - مطبعة السعادة بمصر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
التعبير القرآني	٧
البنية في التعبير القرآني	٢٢
التقديم والتأخير	٤٩
الذكر والحذف	٧٤
التوكيد في القرآن الكريم	١٢٥
التشابه والاختلاف	١٧٣
فواصل الآي	٢١٧
السمة التعبيرية للسياق	٢٣٧
الحشد الفني	٢٥٢
الحشد الفني في القصص القرآني	٢٨٣
قصة سيدنا آدم عليه السلام	٢٨٥
١ - قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف	٢٨٥
٢ - قصة آدم في سورتي الأعراف و (ص)	٢٩٧
٣ - قصة آدم في الحجر و (ص)	٣٠٢
قصة سيدنا موسى عليه السلام	٣١١
١ - في البقرة والأعراف	٣١١
٢ - في الأعراف والشعراء	٣٢٥
تفسير سورة التين	٣٣٧
المراجع	٣٤٩

